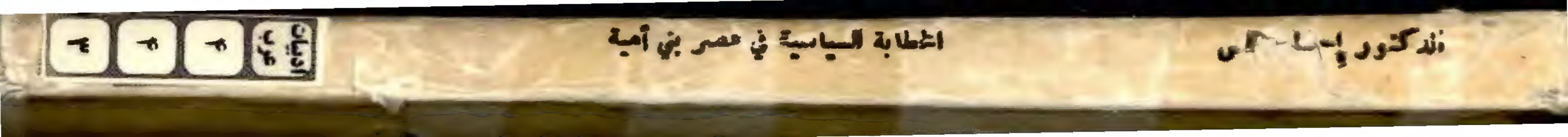
الدكتور إحسان النص

الخطابة السياسية

في

عصر بني أمية

دار الفكر بدمشق


الخطابة السياسية في عصر بني أمية
الدكتور إحسان النص

١٥--

[illegible]٠٠ ق.س



الدكتور إحسان النص



المقــــدمة

كان العصر الأموي هو العصر الذي تألقت فيه الخطابة العربية عامة ، والسياسية خاصة ، وبلغت فيه غاية بعيدة من الرقي والازدهار ، وتألق فيه نجم طائفة من أبرز خطباء العرب المفوّهين أمثال زياد وعتبة بن أبي سفيان والحجاج .

وهذا الكتاب يشتمل على المحاضرات التي ألقيت على طلبة كلية الآداب في موضوع الخطابة السياسية في عصر بني أمية . والقسم الأول منه يتناول المؤثرات الـتي كان لها صداها في الخطابة السياسية وازدهارها في ذلك العصر ، ويتنـاول القسم الثاني منه الخطابة السياسيـة من حيث أنواعها وخصائصها الفكرية وسماتهـا الأسلوبية . والقسم الأخير منه يتناول دراسة خطيب من ألمع خطباء السياسة عصرئذ وهو زياد ابن أبي سفيان .

وآمل أن يكون هذا الكتاب حافزاً للباحثين على استيفاء دراسة الخطابـــة العربية في شتى عصورها واستجلاء خصائصها ومميزاتها ، إذ أنها ـ على رغم الدور الخطير الذي لعبته في حياة الأمة العربية في عصورها المختلفة والمنزلة الرفيعة الـتي تبوأتها في أدبنا العربي ـ لم تحظ حتى اليوم بما هي خليقة به من عناية الدارسين .

دمشق ١ / ٣ / ٦٥

احسان النص

القسم الاول

العوامل المؤثرة في الخطابة السياسية

في العصر الأموي

١

الأحداث السياسية وأثرها

في الخطابة الأموية

كانت الأحداث السياسية التي حفل بها العصر الأموي أبرز العوامل التي تأثرت بها حياة الفن الخطابي في ذلك العصر ، وتاريخ العصر الأموي يسجل صراعاً متصلا بين الفرق والأحزاب المختلفة ، ومدار هذا الصراع على الخلافة ، ففي سبيل الظفر بها اصطرعت الأحزاب والفرق صراعاً حربياً ولسانياً لم تهدأ ثائرته طوال هذا العصر ، وكان النزاع القبلي صورة من صور هذا النزاع السياسي. فقد شهد هذا العصر تجدد الخصومات القبلية التي استطاع الإسلام إخماد جذوتها فترة قصيرة ، وانضمت إلى العصبية القبلية عصبية أخرى جديدة تمخضت عنها الفتوح الإسلامية ، هي عصبية الأمم التي غلبت على أمرها وأظلها لواء الحكم الإسلامي . بيد أن الصراع بين العرب والأعاجم لم يتخذ في هذا العصر صورة واضحة لغلبة النزعة العربية عند بني أمية وبطشهم بالموالي واضطهادهم أياهم . وثمة لون آخر من الصراع شهده هذا العصر هو الصراع الحربي من أجل توسيع رقعة البلاد الإسلامية . وكان من شأن هذه الأحداث كلها أن ازدهرت الخطابة السياسية في هذا العصر ازدهاراً لم تحظ به في أي عصر آخر ، إذ أنها كانت أحد الأسلحة الماضية التي استخدمت إبان هذا الصراع السياسي العنيف . وسأوجز القول فيما يأتي في أبرز الأحداث السياسية والفتن والفتوح الحربية التي تمخض عنها هذا العصر وكان لها أثرها في الخطابة الأموية .

بوادر انشقاق المسلمين في سبيل الخلافة وظهور المعارضة لبني أمية

أولاً : كان مصرع عثمان وتولي علي الخلافة (٣٥ ﻫ) إيذاناً ببدء انقسام المسلمين على أنفسهم ، وافتراقهم إلى أحزاب وشيع تصطرع من أجل الخلافة والحكم ، واتخذ الطامعون في الخلافة مقتل عثمان ذريعة لمناوأة علي ورفض مبايعته . وكان أول المنشقين عائشة زوج رسول الله عليه السلام وانضم إليها طلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وهما من زعماء القرشيين الطامعين في الخلافة ، فاضطر علي إلى قتالهم وكانت وقعة الجمل (٣٦ ﻫ) أول موقعة اقتتل فيها المسلمون .

وما كاد علي يفرغ من أمر أصحاب الجمل حتى وجه همه إلى محاربة معاوية الذي قام يطالب أيضاً بدم عثمان ، والتحمت جموع العراقيين بجموع الشاميين في صفين (٣٧ ﻫ) وكادت الغلبة تتم لعلي وأنصاره لولا خدعة المصاحف المشهورة [١] واضطر علي إلى قبول التحكيم نزولا عند رغبة القراء وهم كثرة أصحابه ، كما اضطر إلى قبول أبي موسى الأشعري حكماً عنه ، ولم يكن من المتحمسين لتولي علي الخلافة ، في حين اختار جماعة معاوية الداهية عمرو بن العاص .

وكان قبول التحكيم نصراً سياسياً لمعاوية لأنه جعله كفؤاً لعلي في حق المطالبة بالخلافة ، وبسبب التحكيم تعرض المسلمون لانشقاق آخر ، فقد انسلخ عن علي جماعة من أنصاره رأوا أنه كان مخطئاً بقبوله التحكيم ونزوله عن حقه الشرعي ، ونادوا ألا حكم إلا لله ، وهم الذين عرفوا بالحرورية أو الخوارج ، ولم ينته الحكمان إلى قرار يحسم الخلاف وعزم علي على استئناف قتال معاوية ولكنه اضطر أن يبدأ أولاً بالخوارج وكاد أن يستأصلهم في موقعة النهروان (٣٨ ﻫ) . وانتهز معاوية

---

(١) يهك بعض الباحثين من الغربيين في خبر رفع المصاحف يوم صفين دون ايراد مايؤيد شكهم فيه (راجع مثلا تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان المعرب) ج ١٤٢/١ .

الفرصة فاستولى على مصر وأخذ يغير على نواحي العراق وأنصار علي يتلكئون في مهاجمة بلاد الشام . وفي رمضان من عام ٤٠ هـ قتل عبد الرحمن بن ملجم علياً في مسجد الكوفة فاستقر بمقتله الأمر لمعاوية وبايعه الناس أميراً للمؤمنين بإيلياء ، واستطاع إغراء الحسن بن علي بالتنازل عن الخلافة ، ونقل حاضرة الخلافة إلى إلى دمشق حيث انصاره الذين يعتمد عليهم . وكان حكمه فاتحة عهد ملكي أو أوتوقراطي يتوارث فيه الحكم الأبناء عن الآباء ، خلافاً لما كان عليه الأمر من قبل ، واستمال معاوية بلباقته السياسية في اكتساب قلوب رعيته وأغرى الطامعين بالخلافة بما أقعدهم عن منازعته بانتظار صيرورة الأمر إليهم بعد وفاته . فلم تظهر طوال مدة حكمه أية معارضة جادة . وقد ندب للخوارج الذين ثاروا عليه ، ولم تكن شوكتهم قد قويت بعد ، من أمعن فيهم قتلا وبطشاً ، وكان لزياد وابنه عبيد الله اليد الطولى في القضاء على ثورات الشراة في عهده .

وهذا الهدوء النسبي أتاح لمعاوية أن ينصرف إلى توسيع رقعة مملكته شرقاً وإلى غزو بلاد الروم والتوغل في ديارهم . وقبيل وفاته وجه همه إلى جعل الحكم وراثيًّا في الأسرة الأموية ، أسوة بإمبراطورية الروم ، فأخذ يستميل زعماء القبائل ويدعوهم إلى تأييده في تولية عهده ابنه يزيد . وتم له ما أراد فلم يتخلف عن البيعة إلا خمسة : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس ، وعبيد الله بن عمر . وحين دنت منيته أوصى ابنه يزيد وصية تدل على بعد نظره السياسي وتبين ليزيد الخطة التي ينبغي له أن ينتهجها بعد وفاة أبيه ، وأنا أثبتها هنا لقيمتها في بيان ما كان عليه معاوية من بعد نظر سياسي وخبرة بنفوس الناس وأساليب معاملتهم قال : « انظُر أهلَ الحجاز فإنهم أصلُك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهَد من غاب . وانظُر أهل العراق فإن سألوك أن تعزِل عنهم كلّ يوم عاملاً فافعل ، فإنّ عزل عامل أحب إليك من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعَيْبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردُد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا

بغير أخلاقهم . وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن علي وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك . وأما الحسين بن علي فإنه خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير فإنه خب ضب فإذا شخص لك فالبُد له إلا أن يلتمس منك صُلحاً فإن قبل فافعل واحقُن دماء قومك ما استطعت[١] .

وقد تحقق ما توقعه معاوية فما كاد يزيد ينهض بالأمر حتى ثار عليه من كانوا يتوقعون صيرورة الخلافة إليهم بعد وفاة معاوية : أبى ابن الزبير مبايعة يزيد وعاذ بالبيت الحرام والتف حوله من كان هواهم معه ، وكذلك امتنع الحسين بن علي وتهيأ المسير إلى الكوفة تلبية لدعوة أهلها ، ولم يلبث الخوارج أن جمعوا شملهم وعادوا إلى مناوأة بني أمية . ومنذ ذلك الحين ظهرت حركة معارضة عنيفة لحكم بني أمية استمرت طوال العصر الأموي وكادت مرات متعددة أن تقوض صرح الحكم الأموي واستطاعت آخر الأمر أن تودي بالدولة الأموية لتحل محلها دولة بني العباس .

اقترن ظهور حركة المعارضة بحركة خطابية قوية نشطة ، وشارك خطباء كل فريق في نصرة جماعتهم مشاركة فعالة ، ونستشف طابع الحكم الأموي القائم على القوة من خطبة يزيد بن المقنع يوم اجتمع القوم لبيعة يزيد : « أمير المؤمنين هذا – وأشار إلى معاوية – ، فإن مات فهذا – وأشار إلى يزيد – ، فمن أبى فهذا ، وأشار بيده إلى سيفه . » فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء [٢] .

ثانياً : أبرز الأحداث الداخلية زمن بني أمية وأثرها في الخطابة :

(أ) ثورة ابن الزبير ٦١ – ٧٣ هـ

كان عبد الله بن الزبير أحد الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد ، وقد غادر المدينة

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٣٨ . والوصية رواية أخرى ذكرت في نفس الموضع .
(٢) البيان والتبيين ١/٣٠٠ .

وعاذ بالبيت الحرام وسمى نفسه « العائذ » . وكان معاوية قد توقع أن يقف ابن الزبير موقفه هــذا من يزيد وأوصى ابنه بأن يأخذه بالعنف والشدة . ولم يكن ابن الزبير ليطمع أن تكون له الخلافة والحسين على قيد الحياة . فكان ، طوال إقامة الحسين بمكة ، يلازم المسجد مظهراً الانصراف إلى الصلاة والعبادة ، وهو في الوقت نفسه يجمع حوله خاصته وأنصاره ويترقب الأحداث منتظراً الفرصة المواتية . وما إن بلغه مقتل الحسين وخذلان أهل الكوفة إياه حتى بادر إلى خلع يزيد وإعلان خلافه عليه (٦١ هـ) ، وخطب في أهل مكة خطبة مشهورة نعى فيها حسيناً وعاب خاذليه من أهل العراق ، وقد علم أنه لم يبق أحد ينازعه الخلافة بعد مقتل الحسين ، فدعا إلى نفسه فبايعه أهل مكة . وأنفذ إليه يزيد جيشاً عليه مسلم بن عقبة فمضى هذا أولاً إلى المدينة ، وكانت قد خلعت طاعة يزيد وبايعت عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فنكل ابن عقبة بأهلها شر نكال في وقعة الحرة المشهورة (٦٣ هـ .) ثم توجه إلى مكة وتوفي وهو في طريقه إليها فتولى القيادة حصين بن نمير وحاصر مكة أربعة وستين يوماً ورمى الكعبة بالمجانيق . وقد شارك الخوارج تحت قيادة نجدة بن عامر الحنفي في الدفاع عن بيت الله الحرام إلى جانب ابن الزبير . وأثناء الحصار جاء نعي يزيد (٦٤ هـ) فانصرف جيش الشام عن مكة . وانتهز ابن الزبير ما وقع من اختلاف القوم في الشام والعراق أثر وفاة يزيد فمد سلطانه على الحجاز والعراق وبايعه أكثر أهل الشام وكاد مروان بن الحكم يكون رسول أهل الشام لمبايعته لولا أن ثناه عن ذلك عبيد الله بن زياد وأنصار بني أمية من الكلبيين . والحق أن ابن الزبير كان يفتقر إلى الكثير من مؤهلات النجاح السياسي ولم يكن له دهاء بني أمية ولا خبرتهم السياسية . وكان من أبرز أخطائه السياسية إخراجه بني أمية من الحجاز إلى الشام فسرعان ما التأم شملهم والتف حولهم أنصارهم ولا سيما قبيلة كلب اليمنية - أصهار معاوية - واستطاعوا دحر القيسيين أنصار ابن الزبير في موقعة مرج راهط المشهورة (٦٤ هـ) . ومنذ تلك الهزيمة أخذ سلطان ابن الزبير يتقلص شيئاً فشيئاً ، واستطاع عبد الملك السياسي المحنك أن يقضي على حركة ابن الزبير بادئاً بمصعب في العراق ، وكان هذا قد فرغ من القضاء على المختار وأنصاره ، فتوجه لقتاله

بنفسه (٧١ هـ) وقتله فدخل أهل العراق في طاعته ثم وجه الحجاج لقتال عبد الله ابن الزبير فحاصر مكة وضيق الخناق على ابن الزبير الذي أخذ ينفض عنه أنصاره ، وأخيراً برز ابن الزبير فقاتل جيش الحجاج حتى قتل (٧٣ هـ) وبمقتله قضى على الحزب الزبيري الذي لم تقم له قائمة بعد ذلك .

وكان أشهر الخطباء الذين ظهروا إبان هذه الثورة عبد الله بن الزبير نفسه وله خطب جيدة قالها في مناسبات شتى لعل أجودها خطبته يوم بلغه نعي أخيه وقد ذكر فيها ما تركه في نفسه قتل مصعب من فرح لموته شهيداً وحزن لفراق الحميم حميمه ، وندد بأهل العراق ، أهل الغدر والنفاق ، ثم وازن بين آله الذين لا يموتون إلا قعصاً بالرماح وبين بني أمية الذين لم يقتل رجل منهم يوم زحف[1] .

(ب) ثورات الشيعة

كان الحزب الشيعي يرى أنه أجدر الأحزاب بتولي الحكم وأن بني أمية مغتصبون قد انتزعوا الخلافة من أصحاب الحق فيها ، فكان من الطبيعي أن يحاول الشيعة استرداد حقهم السليب كلما أتيحت لهم الفرصة ، وحينما كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن مناهضة سلطان بني أمية كانوا يجنحون إلى الأخذ بالتقية .

وأول الثورات التي قام بها الشيعة في هذا العصر هي ثورة الحسين بن علي .

كان الحسين أقوى المرشحين لتولي الخلافة بعد وفاة معاوية ، فلما ولي يزيد رفض الحسين مبايعته وخرج من المدينة إلى مكة فأرسل إليه أهل الكوفة يطلبون إليه القدوم عليهم ، فأوفد إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليتحقق من صدق دعوتهم فبايعه أكثر أهل الكوفة ولكنهم كعادتهم سرعان ما انفضوا عنه وخذلوه لما طلبه عبيد الله بن زياد وانتهى أمره بالقتل ، وكان قد أرسل في أول الأمر كتاباً إلى الحسين يدعوه إلى القدوم فصح عزمه على المسير إليها ، ولم يستمع إلى ناصحيه الذين أشاروا عليه بالعدول عن هذه المغامرة وخوفوه أهل الكوفة إذ خذلوا بالأمس أخاه

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥ والأغاني ١٧/١٦٦ .

وقتلوا أباه ، وتوجه إلى الكوفة في قلة من أصحابه فوجه إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص ليأتي به فإن أبى فليقاتله ، ولما تحقق الحسين من خذلان أهل الكوفة له أراد الرجوع من حيث أتى ولكن ابن زياد أبى إلا أن يؤتى به ، واضطر الحسين أن يقاتل بمن معه وانتهى الأمر بمصرعه في كربلاء (٦١ هـ) وقتل من كان معه من آل بيته وأنصاره .

ومن المحقق أن مقتل الحسين كان أبعد أثراً في تكوين حزب الشيعة واصطباغه بالصبغة الدينية من مقتل أبيه علي . يقول بروكلمان : « والحق أن ميتة الشهداء التي ماتها الحسين ، والتي لم يكن لها أي أثر سياسي ، قد عجلت في التطور الديني للشيعة ، حزب علي ، الذي أصبح فيما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب »[١] . ولو كان ليزيد بعد نظر أبيه السياسي لما أقدم على قتل الحسين الذي خلف في قلوب المسلمين الحزن لمصرعه والحقد على قاتليه ، ولا سيما في قلوب أهل الكوفة الذين اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن التغرير به ثم خذلانه ، وأصبحت بيئة الكوفة منذ ذلك الحين الموطن الرئيسي للحزب الشيعي ، ومنها كان أنصاره يخرجون ، كلما سنحت الفرصة ، لقتال بني أمية طلباً بثأر شهيد كربلاء . وكان مما أعان على نجاح الدعوة العباسية فيما بعد أنها اتخذت لنفسها صفة المطالب بدم الحسين وزيد ويحيى وسائر قتلى البيت العلوي .

وأول الحركات الشيعية التي أعقبت مقتل الحسين حركة التوابين بالكوفة ، فإن الذين خذلوا حسيناً أدركهم الندم وتلاوموا ثم اتعدوا الخروج وبايعوا شيخ الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد ، وكان ابن زياد قد فر إلى الشام حين ظهر أمر ابن الزبير بالعراق وثارت الفتنة القبلية بالبصرة . وقد رفض التوابون أن ينضم إليهم جيش ابن الزبير ليقاتلا معاً جيش الشام ، واستطاع المختار أن يستميل طائفة من الشيعة إلى صفه وتوجه سائرهم مع ابن صرد لقتال أهل الشام ، وكان هؤلاء يفوقونهم عدداً وعليهم الحصين بن نمير . وفي معركة عين الوردة انتصر جيش بني أمية وقتل

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية (المعرب) ١/١٥٤ .

ابن صرد وأكثر أصحابه (٦٥ هـ) ، وكان فيهم نخبة من القراء والنساك ، ورجع فل التوابين فانضم إلى المختار .

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي يتمتع بذكاء ودهاء ومهارة حربيـــة جديرة بالإعجاب ، وكان انتهازيًا ذا طموح بعيد ، فلما رأى اختلاف القوم على الخلافـة وما ساد الأمصار من الاضطراب بعد موت يزيد حدثته نفسه بأن يجعل من الطلب بدم الحسين وسيلة لتحقيق مطامعه البعيدة . وكان ابن زياد قد سجنه لانتصاره لابن عقيل وظل في السجن حتى شفع له صهره عبد الله بن عمر عند يزيد فأمر ابن زياد بإطلاق سراحه فأطلقه وتوعده إن لم يرحل عن الكوفـة ، فتوجه إلى الحجـاز وأظهر الولاء لابن الزبير وقاتل معه ببسالة عظيمة جيش أهل الشام . ولما لم يجد عند ابن الزبير ما يرضي طموحه عاد إلى الكوفة وأخذ يدعو لنفسه زاعماً أنه موفد من قبل محمد بن الحنفية . فمالت إليه طائفة كبيرة من الشيعة ، ولما استفحل أمره سجنه والي الكوفة من قبل ابن الزبير ، عبد الله بن يزيد ، ثم شفع له ابن عمر ثانية . فأطلق من سجنه بعد أن ضمنه جماعة من أصحابه . وما لبث أن عاد يبث دعوتـه وتكاثر أنصاره ولا سيما بعد إخفاق حركة التوابين إذ انضم إليه سائر الشيعة واستطاع أن يستميل إليه كذلك الموالي والعبيد ، ثم استعان بالخديعة في اجتذاب إبراهيم بن الأشتر القائد البارع إلى دعوته فاشتدت شوكته . ولكي يؤثر في أنصاره ولا سيما الموالي منهم كان يلجأ إلى ضروب من الكهانة والكلام المسجع ، ثم اتخذ بعدئـذ كرسيًا نسب إليه القداسة وإتيان المعجزات . وقد استطاع أن يغلب على الكوفة ، وكاد أن يستولي على المدينة لولا يقظة ابن الزبير ، ثم وجه جيشاً بقيادة ابن الأشتر لقتال عبيـد الله بن زياد وأسفرت موقعة خازر عن مقتل ابن زياد وهزيمـة جيش الشام (٦٧ هـ) .

ولما قدم مصعب بن الزبير البصرة والياً عليها وجه همه للقضاء على المختار وانضم إليـه الناقمون على المختار من الكوفيين ، وكان سبب نقمتهم أنه أثار عليهم عبيـدهم وجعل لهؤلاء حظًا من الفيء فساواهم بالعرب ، وبعد قتال شديد اضطر المختار أن

يلجأ إلى قلعة الكوفة ولما طال عليه الحصار وأصابه الجهد برز لقتال جيش مصعب في قلة من أصحابه فقتل (٦٧ هـ) ، وأعمل مصعب السيف في شيعته ، ولا سيما الموالي والعبيد ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودخل ابن الأشتر ، وهو يومئذ على الموصل ، في طاعة ابن الزبير .

ويرى بعض المستشرقين أن المختار كان مخلصاً في دعوته وفي انتصاره للشيعة ، على الرغم من موقفه الشائن من الحسن يوم لجأ إلى المدائن كما يرون أن حركة المختار وما انطوت عليه من مساواة الموالي بالعرب قد أتاحت للاسلام أن ينتشر فيما بعد بين الشعوب غير العربية ، وأن يتحول من حركة عربية خالصة إلى مدنيـة عالمية[1] . ويبدو لي أن هؤلاء المستشرقين قد غالوا في تقدير إخلاص المختار وأثر دعوته في الإسلام وانتشاره . ولم يكن المختار في الواقع مخلصاً إلا لنفسه . وفي تاريخ الطبري كلام على لسان المختار أجاب به أحد أنصاره حين أيقن بأنه هالك لا محالة ، وهو يصور لنا حقيقة نفسية المختـــار وتجرده عن الإخلاص الذي ينسبه إليه هؤلاء المستشرقون فهو يقول مخاطباً السائب بن مالك : « ويحك ، أحمق أنت ، إنمـا أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجـاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ، ومروان على الشام فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم ، إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب . . . [2] » إلا أن من المستشرقين من شك في صحة هذا الخبر الذي رواه الطبري واستبعد صدور هذا الكلام عن المختار[3] .

وقد تلت حركة المختار فترة هدوء غير قصيرة ، إذ آثر جل الشيعة الأخذ بالتقية خوفاً من بطش أمية فلم يجنحوا إلى المعارضة الحربية حتى كانت ثورة زيد ابن علي بن الحسين (١٢١ هـ) . وكان زيد يجمع إلى الفقه بالدين الفصاحـة

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣/٧٦٥ من الطبعة الفرنسية .

(٢) تاريخ الطبري ٤/٧٥٠ .

(٣) ولهوزن : الخوارج والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٢٣٧ .

واللسن والشجاعة ، وقد شهد له هشام بن عبد الملك بقوة الحجة ورأى فيه « رجلا جَدِلا لَسِناً خليقـــاً لتمويه الكلام وصَوغه واجترار الرجال بحلاوة لسانـه وبكثرة مخارجه في حججه [١] . وقد تلمذ زيد لواصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، وتأثر بتعاليمه فكان معتدلاً في تشيعه ، فلما دعا إلى نفسه لم يرض به غلاة الإمامية وقالوا إن إمامهم جعفر الصادق — ابن محمد الباقر أخي زيد ، وكان زيد لايرى التقية ويشترط في الإمام الخروج مخالفاً بذلك جمهور الإمامية . ويبدو أن زيداً كان أبرز شخصية في الشيعة في عصره حتى إن جعفراً الصادق قد حث أتباعه على مبايعته ، إذا صح مارواه الطبري [٢] . وذكر أبو الفرج في مقاتل الطالبيين أن المرجئة وأهل النسك كانوا لايعدلون بزيد أحداً وأن جعفر بن محمد كان يمسك بركاب زيد ويسوي ثيابه على السرج وكذلك كان يفعل عبد الله بن الحسن على الرغم من اختلافهما في شأن صدقات علي [٣] . ويظهر أن زيداً كان يحدث نفسه بطلب الخلافة قبل مجاهرته بالخلع ، فقد رووا أن زيداً لما وفد على هشام قال له « لقد بلغني يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك وأنت ابن أمة (كانت أمه أم ولد سندية هدية من المختار) فقال زيد : « فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن أمة وإسحق عليه السلام ابن حرة ، فأخرج الله من صلب إسماعيل خير ولد آدم محمداً ﷺ . فقال له : قم . قال : إذن لا تراني إلا حيث تكره »[٤] .

فقد كان زيد إذن يحدث نفسه بالثورة ، وسنحت الفرصة حين ارسله هشام إلى يوسف بن عمر ، والي العراق ، للنظر فيما ادعاه خالد القسري من أنه أودع زيداً وجماعة آخرين أموالا كان ابن عمر يطالبه بأدائها . فلما تحقق ابن عمر من كذب خالد أطلقهم . وسواء أصحت هذه القصة أم لا فإن زيداً قدم الكوفة وأقام بها ولم يعد إلى المدينة ، فكتب ابن عمر ، وهو يومئذ بالحيرة ، إلى عامله

(١) تاريخ الطبري ٤٨٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٩٨/٥ .

(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٢٨ .

(٤) الطبري ٤٨٦/٥ والبيان والتبيين ٣١٠/١ .

على الكوفة يأمره بإزعاج زيد عنها ، وكانت الشيعة قد أخذت تختلف إليه وتبايعه حتى صح عزمه على الخروج ولم يصخ إلى تحذير من حذره أهل الكوفـة ، وقد غدروا من قبل بعلي والحسن والحسين . ولما علم ابن عمر بعزمه وهم بالقبض عليه اضطر إلى التعجيل بالخروج قبل الموعد المتفق عليه ووقع ما كان منتظراً فقد خذله أهل الكوفة ولم ينصره إلا نفر دون الثلاثمائة ، وما كان إلا قتال يسير بالكناسة حتى أصيب زيد بسهم وتوفى (١٢٢ هـ) واستخرج ابن عمر جثته وصلبـه . وقد نجا ابنه يحيى من القتل ولجأ إلى خراسان ، ثم خرج في زمن الوليد بن يزيد وانتهى الأمر بقتله أيضاً (١٢٥) هـ .

وقد كان لثورة زيد بن علي على الرغم من سرعة إخمادها ، ثم لميتته وصلبه وهو عريان ، ثم مقتل ابنه يحيى بعده ، أثر بالغ في تفاقم السخط على بني أمية وتكاثر الشيعة ، وكانت هذه النقمة من الاسباب التي عجلت بانهيار الحـكم الأموي فقد ظهر أبو مسلم الخراساني بمظهر المطالب بدم زيد وابنه .

وفي زمن مروان بن محمد تكثر الاضطرابات وتسود الفوضى وكان ممن ثاروا عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب المعروف بالهاشمي وقد دعا إلى نفسه بالكوفة أيضاً (١٢٧ هـ) وتابعه عدد من الشيعة إلا أن والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز استطاع أن يهزمه ويزعجـه عن العراق فلجأ إلى فارس فوجه إليه ابن عمر معن بن زائدة وهزمه فلحق بخراسان وكان أبو مسـلم قد ظهر بها فحبسه ومات في حبسه مقتولا على الأرجح .

* * *

(حـ) ثورات الخوارج :

لم تؤد معركة النهروان إلى استئصال الخوارج والقضاء على حركتهم ، بل على النقيض أدت إلى كثرة أتباعهم وانتشار دعوتهم . ذلك أن استشهادهم على هـذا النحو أثار إعجاب الناس بهم وعطفهم عليهم ، فضلا عن أن مبدأهم الذي يسوي بين

جميع المسلمين في حق تولي الخلافة كان خليقاً باستمالة جمهور كبير من الأنصار . وكان كثير من القبائل القوية الطامعة في الخلافة كتميم والأزد ، تنفس على قريش استئثارها بالأمر ولا تقر مبـــدأ حصر الخلافة في قريش أو في أسرة منها . فقد تضافرت إذن العوامل السياسية والقبلية والدينية في دعم الحركة الخارجية وتوسيع نطاقها . وكانت النهروان فاتحة مواقع عديدة استشهد فيها الخوارج دفاعاً عن عقيدتهم وكان مقتل علي أول رد فعل لهذه المعركة ، ثم هدأت حركة الخوارج فترة من الزمن استقرت فيها عقيدتهم واطمأنوا فيها إلى صواب دعوتهم وضلال مخالفيهم . وكان معاوية قد ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة فنشطت دعوة الخوارج في عهده لأنه كان يؤثر العافية ولا يأخذهم بالشدة ، ولما أحس بتزايد خطرهم سجن من أدركه منهم وخرج عليه سائرهم وقد بايعوا المستورد بن علفة . فندب المغيرة القوم لقتالهم فإذا بالشيعة يكونون أشد الناس حماسة لقتالهم ، وتولى قيادتهم معقل بن قيس وبعد مواقع عديدة هزمت الخوارج وقتل زعيمهم المستورد كما قتل قائد الكوفيين معقل بن قيس (٤٣ هـ) .

ولما ولى زياد البصرة والكوفة اشتد على الخوارج وأخمد حركاتهم . وكان زياد يتوعد الناس إن لم يكفوه أمر الخوارج فكانوا يبادرون إلى القضاء عليهم خوفاً منه ، ومات زياد عام ٥٣ هـ وقد استتب الأمر لبني أمية في العراق .

وفي عام ٥٨ هـ اجتمع الخوارج واتفقوا على الخروج وبايعوا حيان بن ظبيان ، ولكن حركتهم قمعت بسهولة لقلة عددهم وقضى عليهم جيش عبد الرحمن بن أم الحكم والي الكوفة ، ثم وجه عبيد الله بن زياد والي البصرة همه إلى القضاء على من بمصره من الخوارج فقتل كثيراً منهم إما صبراً وإما حرباً ، وممن قتلوا صبراً عُروة بن أُدَية ، وخرج أخوه أبو بلال مرداس بن أدية بالأهواز في قلة من أصحابه واستطاع أول الأمر أن يهزم جيشاً وجهه إليه ابن زياد ولكنه مالبث أن قتل وسائر أصحابه في معركة لاحقة .

وإثر وفاة معاوية ساد الاضطراب أكثر الأمصار فانتهز الخوارج الفرصة وتهيئوا

الوثوب على بني أمية . وكانت لهم أول الأمر مشاركة بجدية في الدفاع عن البيت الحرام مع ابن الزبير ، يوم حاصره جيش يزيد بمكة ، ثم فارقوا ابن الزبير حين أخفقوا في استمالته إلى مبدئهم فصارت طائفة منهم إلى اليمامة وقد أجمع هؤلاء بعد على نجدة بن عامر الحنفي ، وصارت طائفة أخرى إلى البصرة .

ولم يحتفظ الخوارج بوحدة كلمتهم طويلا فسرعان ما وقع الاختلاف بينهم حول بعض الأمور التي أصبحت فيما بعد نواة للفقه الخارجي ، ويذكر الطبري أن اختلاف الخوارج كان عام ٦٤ هـ بعد مفارقتهم لابن الزبير . ولكن ثمة أخباراً تدل على أن اختلافهم سابق لهذا التاريخ[١] ، وربما تحددت فرقهم تحديداً واضحاً منذ هذا العام ، فقد وقع الاختلاف بين نافع بن الأزرق وبين عبد الله بن إباض وعبد الله بن صفار في حكمهم على المخالفين لرأي الخوارج ، وتطرف نافع فعدهم كالمشركين في دين الله وأباح استعراضهم[٢] وقتل أطفالهم ونساءهم . وخالفه في رأيه هذا ابن إباض وابن صفار ، وتلا هذا انقسامات أخرى كان لها أثرها في إضعاف شوكة الخوارج وأتاحت للأمويين أن يقضوا على ثوراتهم ، ولولا انقسامهم لكان لهم شأن آخر .

وقد قام الأزارقة المتطرفون بأعنف الثورات وأجرأ الهجمات ، ولا سيما أنهم كانوا لايجيزون القعود عن القتال ، كما أنهم كانوا لايتورعون عن قتل الأطفال وبقر بطون الحبالى . وقد بدأت مواقعهم بيوم « دولاب » وكان النصر لهم فيه

---

(١) يظهر مما ذكره المبرد في الكامل (٢/١٠٥) أن أصول مذاهب الخوارج واختلافهم في بعض الأمور ترجع إلى أول عهدهم ، فهو يذكر أن الصفرية قد بايعت عبد الله بن وهب الراسبي وخلعت معدان الإيادي لأن هذا تبرأ من القعد في قوله :

سلام على من بايع الله شارياً ... وليس على الحزب المقيم سلام

وهذا يرجح أنهم سموا بالصفرية لصفرة ألوانهم ، لا نسبة لابن صفار ، وربما أريد بهم عامة الخوارج أول الأمر ثم افترقوا بعد . ومما يدل على قدم اختلافهم أن قريب بن مرة وزحافا الطائي لما خرجا في أيام زياد وأخذا يستعرضان الناس أنكر أبو بلال عملهما وتبرأ منهما . (الكامل للمبرد ٢/١٥٣) .

(٢) يراد بالاستعراض قتل كل من كان يعرض لهم من مخالفيهم .

ولكن قتل يومئذ زعيمهم نافع بن الأزرق (٦٥ هـ) ، فانتدب لهم القائد الماهر المهلب بن أبي صفرة واستطاع أن يرد جموعهم عن البصرة وتجرد لقتالهم فلم يعرف الأزارقة خصماً أعنف منه قتالا ولا أبرع تدبيراً ومكيدة . وكانت طريقة الخوارج في الهجوم أن يغيروا غارات مفاجئة سريعة وينتهزوا غرة القوم ثم ينصرفوا مولين ، فلم يتح لهم المهلب أن يصيبوا غرة منه واستطاع أن يهزمهم هزيمة منكرة بسلى وسلبرى وانهزمت فلولهم إلى كرمان وأصبهان . ولما ولي المهلب الموصل جمعوا صفوفهم وولوا عليهم الزبير بن الماحوز واتجهوا نحو الكوفة فصدهم عنها جيش من أهلها ثم قتل زعيمهم في وقعة بأصبهان فبايعوا قطري بن الفجاءة ، وهو أشهر زعماء الأزارقة . ولما تفاقم خطرهم ندب لهم مصعب بن الزبير المهلب ، خصمهم العنيد ، فتوجه نحوهم في جيش من أهل البصرة وجرت بين الجانبين وقائع عنيفة وخاصة بسولاف ثم جاء نعي مصعب والمهلب يقاتل الأزارقة فبايع الناس لعبد الملك ، ولم يحملهم مقتل مصعب على مخالفة الأزارقة على بني أمية لأن تطرف مذهبهم كان خليقاً بصرف جمهور المسلمين عنهم وإيثارهم مذهب الجماعة .

وفي الوقت نفسه غلب على البحرين الخارجي أبو فديك وقتل نجدة بن عامر واستطاع أول الأمر أن يهزم جيشاً من أهل البصرة ثم هزمه جيش العراقيين فقتل (٧٣ هـ) .

وقدم الحجاج العراق والياً عليها وأهلها مشغولون بقتال الأزارقة تحت لواء المهلب . وفي عهده جرت أعنف الوقائع مع الخوارج ، وظهر أشهر زعمائهم واجتمع على قتال الحجاج الأزارقة والصفرية . أما الأزارقة فقد عجل بالقضاء على ثوراتهم ما وقع بينهم من اختلاف (٧٧ هـ) وانحياز عامتهم عن قطري ومبايعتهم عبد ربه ، وهو من الموالي . وبعد أن اقتتلوا وأوهن بعضهم بعضاً عاد المهلب إلى قتالهم وتغلب على عبد ربه وقتله وجل أصحابه . وأنفذ الحجاج جيشاً من أهل الشام والكوفة عليه سفيان بن الأبرد ، وكان قد فرغ من أمر شبيب ، فلحق بقطري في طبرستان ودارت الدائرة على الأزارقة وقتل زعيمهم قطري (٧٧ هـ) ، ثم قضى جيش ابن

الأبرد على آخر جيش الأزارقة وقتل قائدهم عبيدة بن هلال وبذلك انتهى أمر هذه الفرقة. وكان عنفهم وتطرفهم وتحريمهم القعود عن القتال سبباً في سرعة القضاء عليهم واستئصالهم جميعاً .

أما الصفرية فقد تحركت في زمن الحجاج أيضاً تحت زعامة صالح بن مسرح التميمي وكان جل أصحابه من النساك والزهاد ، ولما قدموا من الجزيرة إلى العراق وجه إليهم الحجاج جيشاً من أهل الكوفة وانجلت الموقعة عن مقتل ابن مسرح (٧٦ هـ) فبايع الصفرية شبيب بن يزيد . وقد استطاع شبيب أن يلقي الذعر في قلوب أهل العراق ، على قلة أنصاره ، وتحدى هو وزوجه غزالة الحجاج في معقله فدخل الكوفة والحجاج فيها لا يجرؤ على الخروج إليه . وفي حين شغل أهل البصرة بقتال الأزارقة انصرف أهل الكوفة إلى قتال شبيب وكان الحجاج لا يوجه إليه جيشاً إلا هزمه وارتدت فلوله مذعورة هلعة . وإن من يقرأ أخبار شبيب ليدركه العجب من انتصاره المتصل ، وهو في قلة من العدد ، على جيوش أهل الكوفة الكثيفة اللجبة ، ومرد ذلك كله إلى قوة عقيدة الخوارج التي جعلتهم يستهينون بالكتائب والجحافل ، ويستعذبون لقاء الموت ويعدون الاستشهاد في ساح الوغى غاية ما يصبون إليه . وقد خالط الذعر قلوب أهل الكوفة في وقائعهم مع شبيب فكانوا إذا ندبوا لقتاله أيقنوا بلقاء الموت . وقد وصف أحد قواد الحجاج جماعة شبيب لابن الأشعث حين وجهه الحجاج لقتاله بقوله : « يا بن عم ، إنك تسير إلى فرسان العرب ، وأبناء الحرب ، وأحلاس الخيل والله لكأنهم خلقوا من ضلوعها ، ثم بُنوا على ظهورها ، ثم هم أُسد الأجَم الفارس منهم أشد من مائة.. »[1].

وقد قتل شبيب في مواقعه نخبة من قواد الحجاج وزعماء العراقيين منهم : زائدة بن قدامة وعثمان بن قطن وعتاب بن ورقاء وزهرة بن حوية وفر عبد الرحمن ابن الأشعث في إحدى المواقع وقد كاد يقتل . واضطر الحجاج آخر الأمر أن يستعين بأهل الشام فثبتوا لشبيب يوم هاجم الكوفة المرة الثانية وقتلت يومئذ غزالة

---

(١) الطبري ٧٨/٥ .

زوجه وأخوه مصاد ، وانتهى أمر شبيب أخيراً بغرقه في دجيل يوم الجسر (٧٧ أو ٧٨ هـ) بعد أن أشاع الرعب في أرجاء العراق ، وكانت شجاعته الخارقة سبباً في أن نسجت حوله طائفة من الأساطير روتها كتب التاريخ[1] . وهكذا وفق الحجاج في القضاء على أعنف الثورات التي قام بها الأزارقة والصفرية وكانت شوكة في جانب الدولة الأموية .

ولم تقم للخوارج بعدئذ قائمة حتى أواخر العصر الأموي ، باستثناء بضع ثورات أخمدت كلها كثورة شوذب الخارجي في اليمن زمن عمر بن عبد العزيز ، وثورة عباد الرعيني باليمن في عهد هشام ، وثورة بهلول بن بشر في العراق على خالد بن عبد الله القسري في خلافة هشام أيضاً (١١٩ هـ) ، وقد استطاع هذا الخارجي أن يهزم جيوشاً عديدة وجهت إليه من الشام والعراق ، وروي لنا أنه قاتل في أصحابه السبعين جيشاً عدته عشرون ألفاً وظل يقاتل حتى قتل ومن معه . ولما آنس الخوارج ما ألم بالدولة الأموية من الضعف في أواخر أيامها تجددت حركاتهم وثوراتهم وظهر من الصفرية زعيم خارجي قوي الجانب هو الضحاك بن قيس (١٢٧هـ) وقد استطاع أن يهزم جيوش أهل الشام والعراق ويستولي على الكوفة واجتمع له من الأنصار ما لم يجتمع لخارجي قبله . وبعد مواقع عنيفة استطاع مروان بن محمد التغلب عليه وقتله (١٢٨ هـ) .

ولم يكد مروان يفرغ من الضحاك حتى ظهر خارجي آخر هو أبو حمزة موفداً من قبل عبد الله بن يحيي طالب الحق ، وقد توجه إلى الحجاز واستطاع أن يدخل مكة دون قتال ثم هزم أهل المدينة في موقعة « قديد » ودخل المدينة وخطب فيها خطبة طويلة مشهورة ، واضطر مروان أن يوجه إليه جيشاً من أهل الشام فلقيه أبو حمزة بوادي القرى وقاتل حتى قتل (١٣٠ هـ) ، وأخيراً قتل عبدالله ابن يحيي باليمن وانطوت بذلك صفحة الثورات الخارجية في عهد بني أمية ولكن لم ينقض إلا قليل من الوقت حتى انهارت دولة بني أمية وكانت ثورات الخوارج من أبرز الأسباب التي أدت إلى سرعة انهيارها .

---

(١) اقرأ مثلا جانباً منها في الجزء الخامس من تاريخ الطبري ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

ويظهر من استعراضنا الموجز لثورات الخوارج أن الذين قاموا بأعنف الثورات هم الأزارقة والصفرية ولذلك كادوا يستأصلون في هـذا العصر ولم يبق أحد من أتباعهم فيما بعد أما الإباضية فلم يكن لهم شأن يذكر إلا في أواخر عصر بني أمية لأن مذهبهم معتدل لا يدعو إلى الثورة ولا يكفر القعد ، وكان هـذا سبب بقائهم وعدم استئصالهم ، ولم يزل مذهبهم قائماً حتى اليوم في عمان وطرابلس والجزائر وقد وجد في العصر العباسي كثير من أتباع نجدة بن عامر فيما يروي المبرد[1] .

(د) ثورة ابن الأشعث (٨١ - ٨٥ هـ)

لم يتعرض سلطان الحجاج بالعراق لخطر أشد من خطر الفتنة التي أشعلها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٨١ هـ) وقد استطاع أن يضم تحت لوائه عدداً ضخماً من الأنصار لم يجتمع لأي ممن ثاروا على بني أمية طوال مدة حكمهم . وكان الحجاج قد فرغ من إخماد ثورات الأزارقة والصفرية ودان له العراق وأخذ بعد المدة لتوجيه حملة إلى « رتبيل » (أو زنبيل حسب تحقيق فلهوزن) صاحب سجستان الذي كان قد أوقع بجيش أنفذه إليه الحجاج بقيادة عبد الله بن أبي بكرة . وأعد الحجاج لقتال رتبيل جيشاً ضخماً من أهل الكوفة والبصرة بلغ عدده ، فيما يروي الطبري ، أربعين ألفاً من المقاتلة وقد أحسن تسليحهم وتجهيزهم . واختار لقيادة هذا الجيش العظيم الشريف الكوفي عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي . والقارىء لخبر هذه الحملة يدركه العجب من اختيار الحجاج ابن الأشعث قائداً لهذا الجيش مع ما يكنه له من شديد البغض حتى إن الطبري يروي على لسان الحجاج قوله في ابن الأشعث : « ما رأيته قط إلا أردت قتله »[2] ، وكأنما كان يسخطه عليه شدة غروره واعتداده بنفسه ونسبه . ويبدو أن الحجاج لم يكن يتوقع خلاف ابن الأشعث له فقد حذره عم عبد الرحمن من ابن أخيه فلم يحفل بتحذيره ورآه أجبن من أن يخرج عليه . وكان الحجاج مخطئاً في تقديره فابن الأشعث لم يكن

---

(١) الكامل ١١٨/٢ .

(٢) تاريخ الطبري ١٤٠/٥ .

اهلاً لمثل هذه الثقة ولم يكن مخلصاً لولائه لبني أمية ، فضلاً عما فيه من غرور واعتداد وحب الرياسة ، بل إنه لم يكن من أهل الثبات في المعارك والإقدام يوم الروع ، وقد أظهر في قتال شبيب من الجبن والموادعة ما حمل الحجاج على عزله من القيادة . ومهما يكن من أمر فقد تولى ابن الأشعث قيادة هذا الجيش الضخم ومضى إلى سجستان فاستولى ، دون قتال ، على جزء كبير من بلاد رتبيل ورفض مصالحته . وآثر بعدئذ أن يتريث في الوغول في البلاد خشية أن يحل به ما حل بجيش أبي بكرة من قبل ، ولكن الحجاج لم يرض عن خطته هذه ، وكان سريع الاتهام لقواده سيء الظن بولائهم ، فأرسل إلى ابن الأشعث يأمره بالتوغل في أرض الأعداء ويهدده إن لم يفعل بتولية أخيه إسحاق مكانه . وشق الأمر على ابن الأشعث فاستشار أصحابه في خلع الحجاج فأجابوه إلى ذلك مسرعين ، وأحسب أن ابن الأشعث كان خليقاً بأن يقوم بهذا الأمر حتى لو لم يصله كتاب الحجاج هذا . ومما يلفت النظر سرعة استجابة العراقيين وأهل فارس لدعوة ابن الأشعث فما لبثوا أن خلعوا طاعة عبد الملك وأجمعوا على مبايعة عبد الرحمن بن محمد ، ومرد ذلك إلى تأصل كره العراقيين لبني أمية ونقمتهم على سياسة الحجاج خاصة ، فالتف حول ابن الأشعث جميع الناقمين على بني أمية ، ومنهم طائفـة كبيرة من القراء ، ولم يصغ ابن الأشعث إلى تحذير ابن المهلب ، وهو يومئذ على خراسان ، بل وادع رتبيل وعاد بجيشه الضخم لاحتلال العراق وطرد الحجاج ، وانضم الموالي إلى ابن الأشعث لنقمتهم على الحجـاج الذي فرض عليهم الجزية ، ولما بلغ الحجـاج نبأ الفتنة أصابه الذعر وأسرع يستنجد بعبد الملك وأهل الشام وسرعان ما وافته النجدات فوجهها إلى ابن الأشعث . وفي أول الأمر هزم ابن الأشعث جيش أهل الشام ولكنه ما لبث أن حاقت به الهزائم ولا سيما يوم الزاوية ويوم دير الجماجم ، وأخذ أنصاره ينفضون عنه . وكان الحجـاج يقود جيش الشاميين بنفسه ويستعين بفصاحته في حث جنوده على الاستبسال في القتال . وأخيراً اضطر ابن الأشعث أن يلجأ إلى رتبيل ، حليفه ، الذي ما لبث أن غدر به وأسلمه لقائد جيش الحجاج فآثر ابن الأشعث الانتحار بأن ألقى بنفسه من فوق سطح فمات (٨٥ هـ) . ولا شك أن إخفاق ثورة ابن الأشعث

يرجع أول ما يرجع إلى ضعف شخصية قائدها وجبنه ، ولم تكن مواهبه لتؤهله لقيادة مثل هذه الثورة الضخمة . وقد ذهب ضحية هذه الثورة عدد كبير من أهل العراق ومنهم نخبة من القراء والزهاد والشعراء ، قتل بعضهم أثناء المعارك وقتل بعضهم الحجاج بعد الهزيمة ، ومنهم جَبَلة بن زَحْر رئيس كتيبة القراء وأبو البختري الطائي وابن ابي لَيلى ، وممن قتلهم الحجاج ابن القِرّيّة وأعشى هَمْدان ، ثم قتل بعد حين سعيد بن جبير لما ظفر به .

(ﻫ) ثورة ابن المهلب (١٠١ - ١٠٢ ﻫ)

منذ أن فرغ الحجاج من فتنة ابن الأشعث لم يكن له هم إلا يزيد بن المهلب وبني المهلب . وكان يزيد والياً على خراسان،فمازال الحجاج بعبد الملك يخوفه غدرهم ويتهمهم بالزبيرية حتى أباح له عزل يزيد فعزله وأمره بالقدوم عليه (٨٥ ﻫ). وكان من تدبيره ودهائه أن ولى مكانه أول الأمر أخاه المفضل ليوقع بين بني المهلب ثم ما لبث أن عزل المفضل وولى خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي ، ولم يكن الحجاج يطمئن إلا إلى ولاء من كانوا من قبيلته قيس ، وكان يتخوف أن يقوى أمر بني المهلب بخراسان فيكون منهم ما كان من ابن الأشعث . ولم يشفع لآل المهلب حسن بلائهم في نصرة بني أمية فما أن قدم عليه يزيد حتى حبسه وعزل إخوته عن عملهم ولج في تعذيبهم ليؤدوا إليه ما أغرمهم به من أموال .

وحين توجه الحجاج لقتال الأكراد حمل معه بني المهلب ولكنهم استطاعوا الفرار من محبسهم ولحقوا بالشام ، ولجأ يزيد إلى سليمان بن عبد الملك بفلسطين فأجاره وأخذ له الأمان من أخيه الوليد . وظل بنو المهلب في كنف سليمان وحمايته حتى وفاة الوليد (٩٦ ﻫ) ، فلما أفضى الأمر إلى سليمان ولى يزيد العراق وأمره باستئصال آل بني عقيل ، لنقمته على الحجاج الذي وافق الوليد في نزع ولاية العهد منه ، وبعد مقتل قتيبة بن مسلم بخراسان ولى عليها ابن المهلب وظل فيها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ﻫ) . وكان عمر يكره يزيد وآل المهلب لما فيهم من الجبروت ولاحتيازهم الأموال ، فعزل يزيد عن خراسان وحبسه فلم يزل في حبس عمر حتى

بلغه مرضه وخشى أن يقع في يد يزيد بن عبد الملك ، وكانت بينـه وبين آل أبي عقيل مصاهرة ، ففر من محبسه ولحق بالبصرة فغلب عليها ، وحبس واليها عدي بن أرطاة ، فوجه إليه يزيد أخاه القائد الداهية مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العبـاس ابن الوليد في جيوش أهل الشام . والتقى مسلمة يزيد بالعقر ولم يكن إلا قتال يسير حتى فر أهل البصرة عن يزيد وثبت في قلة من أنصاره حتى قتل وقتل معه بعض إخوته (١٠٢ هـ) ، وكذلك انهزم أخوه عبد الملك بن المهلب قرب الكوفـة . ومازال يزيد يطارد آل المهلب حتى استأصلهم وقضى بذلك على الأسرة التي أنجبت أبرع القادة وأشجع المقاتلين في العصر الأموي .

(و) الصراع بين بني أمية على الخلافة

استطاع معاوية الداهية أن يجعل الخلافة وقفاً على بنى أمية وأقام لهم ملكاً يتوارثونه بعده . ولكن بني أميـة أنفسهم ما لبثوا بعد وفاة معاوية الثاني أن ظهر التنازع بينهم على الخلافة ، نشب الصراع أول الأمر بين الفرع السفياني وكان يريد مبايعة خالد بن يزيد ، والفرع المرواني وكان يجنح إلى مبايعة مروان بن الحكم ، وتم الأمر لمروان وظلت الخلافة بعده في أبنائه حتى نهاية العصر الأموي .

بيد أن النزاع بين بني أمية لم ينته بذلك ، وكان من أسبابه تلك السنة التي ابتدعها مروان بن الحـكم في جعل ولاية العهد لأكثر من واحد حين أخذ البيعة بعده لابنه عبد الملك ثم لابنه الثاني عبد العزيز . وجرى الخلفاء بعده على هذه الخطة ولكن الخليفة كان لا يكاد يلي الخلافة حتى يوجه همه إلى انتزاع ولاية العهد من أخيه وجعلها في أبنائه . وكان بعض الطامعين في الخلافة من الأسرة الأموية ينتهزون الفرص لمنازعة الخليفة سلطانه ، وظل هذا الصراع على الخلافة محتـدماً طوال العصر الأموي ، وكان من الأسبـاب القوية التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية وانهيارها .

في زمن عبد الملك طمع في انتزاع الخلافة منه عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق ، وهو ينتمي إلى أحـد فروع البيت الأموي . فاغتنم فرصة

خروج عبد الملك لقتـال مصعب وغلب على دمشق فاضطر عبد الملك أن يقفل إلى دمشق وأن يقاتل الأشدق ، وكان كلاهما يعتمد على تأييد قبيلة كلب اليمنية ، وأخيراً اصطلحا وأمن عبـد الملك عمراً ثم ما لبث أن غـدر به وقتله بيده فيما يذكرون (٦٩ هـ) .

وفي أواخر أيام عبد الملك هم بخلع أخيه عبد العزيز عن ولاية عهده إلا أنه مات قبل ذلك فسار عبد الملك على سنة أبيه وبايع لابنيه الوليد ثم لسليمان من بعده .

وأراد الوليد أن ينتزع ولاية العهد من أخيه سليمان ويجعلها في ابنه عبد العزيز وأبى سليمان عليه ذلك ، ولم يجب الوليد في مبايعة ابنه وخلع سليمان إلا الحجـاج وقتيبة بن مسلم . فلما وُلى سليمان انتقم من آل أبي عقيل ، وكان الحجاج قد توفي قبل عام من خلافته ، وخشى قتيبة بطش سليمان فثار عليه وخلعه ولكن القبائـل التي كانت بخراسان خالفته وولوا أمرهم وكيع بن أبي سـود التميمي الذي أحاط بقتيبة وقتله وجل أهل بيته (٩٦ هـ) .

وقد شذ سليمان عن سنة أسلافه فجعل الخلافة بعده لغير بنيه ، بل إنه أخرجها عن أولاد عبد الملك حين جعلهـا لابن عمه عمر بن عبد العزيز . ولكنه جعلها بعـده لأخيه يزيد بن عبد الملك إرضاء لآل بيته . ومع ذلك فقد غضب هشام بن عبـد الملك ولم يبايع عمر إلا مكرهاً . وهناك رواية في موت عمر تذهب إلى أنه هم بخلع يزيد عن ولاية العهد بعده حين ناظره الخارجيان اللذان أرسلهما اليه شوذب ، فدس له بنو أمية السم خشية خروج الأمر من يدهم .

وتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة واضطر أن يجعل ولاية العهد لهشام أخيه لأنه وجد ابنه الوليد أصغر من أن يقوم بشأن الخلافة . ومع ذلك حدثنا أنه كان يقول إذا رآه : « الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك »[١] . وجعل الخلافة للوليد ابنه بعد هشام .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٥٢٠ .

ولما ولي هشام أراد أن يستخلف ابنه مسلمة فاشتد على الوليد وأضر بـه كي يحمله على التنازل عن حقه ولكنه رفض ، فعمل هشام سراً في البيعة لابنه ، ولكنه لم يوفق في مسعاه إذ أن ملوك بني أمية كانوا يحرصون على أخذ البيعة من الناس لمن يستخلفونهم بعدهم ، فكره الناس أن يتخلوا عن الوليد للبيعة التي كانـت في أعناقهم له منذ زمن أبيه يزيد بن عبد الملك .

ولما صار الأمر إلى الوليد بدأ عهده بالانتقام من آل هشام وولده ، ومصـادرة أموالهم . ثم عقد الولاية لولديه الحـكم وعثمان . وفي عهده اشتدت الخصومة بـين بني أمية ، فقد اشتد على بني عمه هشام ونالهم الكثير من أذاه وأسخط بني عمه الوليد بتولية عهده ولديه وهما حدثان ، وزعموا أنه اتخذ مائة جامعة وكتب على كل منها اسم رجل من بني أميه ليقتله بها ، وكان أكثر بني الوليد نقمة عليه يزيد ابن الوليد المعروف بالناقص ، وكان يظهر النسك والعبادة فمال الناس اليه وهو الذي حرضهم على الفتك بالوليد . ولا ريب أن ما عرف به الوليد من المجون والفسق والعبث بالدين قد أثار سخط الناس عليه ، ولكن من المحقق أيضاً أن خصومه من بني أمية قد بالغوا كثيراً في أخبار مجونه ليوغروا صدور الناس عليه . وكذلك كانت اليمانية ساخطة عليه لما فعله بآل هشام وبخالد القسري . وانتهى أمره بأن أحاطت به جموعهم في حصن البخراء وقتلوه (١٢٦ هـ) . وكانت هذه الفتنة مؤذنـة بقرب هلاك بني أمية ، وقيل إن العباس بن الوليد بن عبد الملك تنبأ بقرب هلاك بني أمية لما رأى من اختلافهم وتمثل بأبيات منها :

إني أعيذُكم بالله من فـــتن ... مثل الجبـال تسامى ثم تندفـع
إن البريّةَ قد ملت سياستـكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تَبقرنَّ بأيديـكم بطونـكم ... فثمَّ لاحسرة تغني ولا جَزَعُ

ومنذ مقتل الوليد انتقض أمر بني أمية واشتد الصراع بين بني مروان على الخلافة ، فما كاد يزيد الناقص يستقر على كرسي الخلافة حتى ثارت الفتن واضطربت الأمور ، فثار أهل حمص وأظهروا الطلب بدم الوليد ، ثم ثار أهل فلسطـــين

والأردن وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك . وما كاد يزيد يخمد هذه الفتن حتى أظهر مروان بن محمد خلافه وطلب بدم الوليد المقتول فأرضاه يزيد بتوليته الجزيرة وإرمينية والموصل .

ولم تطل خلافة يزيد أكثر من ستة أشهر ، وكان قد استخلف اخاه إبراهيم ، ولكن مروان بن محمد خلع إبراهيم واستطاع أن ينتزع الخلافة منه . وفي عصر مروان كثرت الثورات والفتن وشملت الاضطرابات جميع أرجاء الدولة ، ونازعه سليمان ابن هشام واستطاع مروان أن يتغلب عليه بعد قتال عنيف . وقد أدى الخلاف بين بني مروان وتنازعهم على الخلافة إلى ضعف الدولة وأطمع فيهم خصومهم ، ولا سيما أنصار بني العباس ، وأدى آخر الأمر إلى انهيار الحكم الأموي .

(ز) الدعوة العباسية وانهيار الحكم الاموي

منذ مقتل الحسين اختلفت الشيعة في أمر الإمامة ومن يتولاها من أبناء علي ، وكان أكثرهم يرون حصرها في أبناء فاطمة فلا يرون لمحمد بن علي المعروف بابن الحنيفة حقاً في تولي الأمر ، وكان إمامهم بعد الحسين ابنه علياً زين العابدين ، وقد آثر هذا الأخذ بالتقية فبايع بني إمية بالخلافة وكذلك فعل أبناؤه من بعده ، وهم الذين عرفوا بالإمامية الاثني عشرية ، وقام المختار يدعو لابن الحنفية وظاهرته طائفة من الشيعة ، وهم الذين عرفوا بالكيسانية ، ولكن ابن الحنفية أيضاً آثر العافية ولم يطالب الخلافة لنفسه مع أنه رفض مبايعة ابن الزبير . وكان بنو العباس ، أبناء عم علي يرقبون الأمور عن كثب واقفين في صف العلويين ، ولم تراودهم في مبدأ الأمر فكرة الدعوة لأنفسهم لثقتهم أن الناس ما كانوا ليتابعوهم ويتخلوا عن أبناء علي . ولكن منذ حمل الوليد بن عبد الملك علي بن عبد الله بن العباس على الإقامة في الحميمة ، إبعاداً له عن الحجاز موطن الهاشميين ، بدأت فكرة الدعوة لآل بيته تراوده ، وصح عزمه عليها حين توفي بالحميمة أبو هاشم ـ ابن محمد بن الحنفية ـ ويزعم العباسيون أنه حين حانت منيته أدلى بحقه في الخلافة إلى علي بن عبد الله ، فلذلك وقفت الشيعة الكيسانية في جانب بني العباس .

وقد استفاد بنو العباس من الأخطاء التي وقع فيها العلويون في ثوراتهم على بني أمية فلم يتسرعوا مثلهم بإعلان دعوتهم ، وإنما آثروا أن يمهدوا لها تمهيداً بطيئاً واختاروا خراسان مركزاً رئيسياً لدعوتهم وأظهروا أنهم إنما يدعون للرضا من آل البيت ليستميلوا اليهم الشيعة وأنصارهم ، ثم أظهروا بعد مقتل زيد وابنه يحيى أنهم يطالبون بدم زيد وابنه وسائر قتلى الطالبيين .

يحدد الطبري مبدأ الدعوة بمطلع القرن الثاني للهجرة ، ويذكر أن محمد بن علي وجه في هذه السنة ميسرة إلى العراق ووجه طائفة من الدعاة إلى خراسان وأمرهم بالدعوة لأهل بيته ، واختار أبو عكرمة السراج اثني عشر نقيباً وسبعين من الدعاة ، وكتب لهم محمد بن علي كتاباً يوجههم فيه إلى الخطة التي ينبغي لهم السير عليها . ويبدو أن ثمة مراحل تمهيدية سبقت هذه الخطوات .

واختيار خراسان مقراً للدعوة العباسية يدل على بعد نظر سياسي ، وذلك لبعدها عن حاضرة الدولة وسهولة استمالة أهلها إلى آل البيت ، ولأن هناك « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل الخ . . . » حسبما جاء في كتاب محمد بن علي إلى دعاته .

وقد اتخذت الدعوة طابعاً سرياً مدة تزيد على ربع قرن ، وكان ولاة خراسان كلما نمى إليهم أمر جماعة من الدعاة بطشوا بهم ، وكان أسد بن عبد الله القسري أشد هؤلاء الولاة بطشاً بدعاة بني العباس ، وكان الدعاة يتخذون من مواسم الحج مناسبة للاتصال ببني العباس وحمل الأموال إليهم . وقد نشطت الدعوة العباسية وقوي أمرها بانضمام أبي مسلم إليها (١٢٤ هـ) . وبعد وفاة محمد بن علي (١٢٥ هـ) تولى الأمر ابنه إبراهيم ، ولما رأى هذا انشقاق البيت الأموي زمن مروان بن محمد وقيام الفتن القبلية في خراسان رأى أن الوقت قد حان للجهر بالدعوة . فبعث أبا مسلم إلى خراسان وولاه أمر الدعوة وأوصاه بالاعتماد عل القبائل اليمنية التي كانت آنذاك ساخطة على مروان لاعتماده على القيسية . وأبرز مانلاحظه في وصية

إبراهيم لأبي مسلم في قوله له : « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله (١) » . فقد رأى بنو العباس أن يعتمدوا على العنصر الفارسي في دعوتهم لأن هؤلاء لامطمع لهم في الخلافة . ورأى الأعاجم والموالي الفرصة سانحة للانتقام من العرب الذين قوضوا ملكهم وأذلوهم وعاملوهم معاملة السادة للعبيد فقبلوا دعوة بني العباس مسرعين .

وفي عام ١٢٩ هـ أظهر أبو مسلم الدعوة واتخذ معسكره أولا بسفيذنج ، قرية سليمان ابن كثير الخزاعي ، وكان مروان مشغولا آنئذ بقتال الثائرين عليه في الشام والعراق ، وكان عرب خراسان مشغولين بالفتنة القبلية التي كان يتزعمها الكرماني من جهة ، وهو على رأس اليمنية ، ونصر بن سيار عامل مروان ورئيس مضر من جهة أخرى . ولما استيقن أبو مسلم من ضعف الفريقين بدأ حملته واستطاع أن يستولي على خراسان بسهولة ، واتصلت انتصاراته وانتصارات قواده . وكان ابن سيار لايفتأ يرسل إلى ابن هبيرة بالعراق وإلى مروان ينذرهما بالخطر الداهم ويحثهما بالشمر على تدارك الأمر قبل استفحاله ، كقوله من أبيات :

فقلتُ من التعجب ليت شعري ... أأيقاظٌ أميــــة أم نيام (٢)

أو يخاطب العرب المختصمين بقوله :

أبلغْ ربيعـة في مَرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل أن لا ينفعَ الغضبُ
ولينصبوا الحربَ إنّ القومَ قد نصبوا ... حرباً يُحَرَّقُ في حافاتها الحطبُ
ما بالكم تُلْقِحون الحربَ بينكم ... كأن أهل الحِجا عن فعلكم غيَبُ
وتتركون عدوّاً قد أظلكم ... ممـا تأشب لا دِين ولا حَسبُ
قدماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم ... فإنّ دينهم أن تُقتل العرب(٣)

---

(١) الطبري ٦/٣٧ .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٧٨ .
(٣) العقد الفريد ٤/٤٧٨ .

ولكن صيحاته جاءت بعد فوات الوقت ، وعلى الرغم من أن مروان استطاع أن يظفر بإبراهيم بن محمد ويسجنه ثم يقتله آخر الأمر فإن جيوش العباسيين كانت قد اكتسحت خراسان ، واستقر أبو العباس السفاح ، وقد آل الأمر إليـه بالكوفة ومعه بنو العباس ، وما لبث يزيد بن عمر بن هبيرة أن هزم ولجأ إلى واسط ، وغلبت المسودة على العراق ، ثم كانت أخيراً هزيمة مروان في موقعة الزاب الفاصلة (١٣٢ هـ) وما لبث أن قتل في نفس العام في بوصير ، وقضى بذلك على دولة بني أمية بالمشرق .

(ح) الحروب القبلية

كانت العصبية القبلية في العصر الجاهلي سبب حروب ووقائع متصلة بين القبائل العربية ، وجاء الإسلام فأوجد رابطة روحية بين القبائل تسمو على الخصومات القبلية . ولكن القضاء على النزعة القبلية كان يتطلب وقتاً طويلاً ، يتم فيه اندماج القبائل بعضها ببعض واختلاط العرب بالأمم الأخرى . ولذلك ما كاد الرسول عليه الصلاة والسلام يلقى وجه ربه حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور فاختلف المهاجرون والأنصار على الخلافة ، وكانت حركة الردة صورة من صور العصبية القبلية إذ أن القبائل القوية أبت أن تعنو لسلطان قريش .

وفي العصر الأموي عادت الخصومات القبلية إلى الظهور بصورة أقوى وأعنف ، وارتبط النزاع القبلي في هذا العصر بالأحداث السياسية تارة والدينية تارة أخرى . ولما استوطن العرب الأقطار المفتوحة كخراسان والأندلس حملوا معهم عصبياتهم وخصوماتهم ولم يستطيعوا تناسي أحقادهم القبلية حتى في أشد الأوقات حرجاً ، وذلك حين كان عليهم أن يقفوا صفاً موحداً أمام أعدائهم من الأمم الأخرى التي كانت تتربص بهم شراً . ولا ريب أن هذه الخصومات كانت عائقاً عظيم الشأن في الحد من انتصارات العرب وفتوحاتهم في الشرق والغرب ، وكانت أخيراً من أسباب سقوط الدولة الأموية .

وقد وقف الخلفاء الأمويون من النزاع القبلي موقف الرضا والتشجيع أحياناً .

حين كانت المصلحة تقضي بذلك ، شأنهم في أول أمرهم في الشام حين ثارت العصبية بين كلب وقيس ، وبين قيس وتغلب ، وذلك ليشغلوا القبائل عن منازعة بني أمية سلطانهم . وكانوا ربما انحازوا إلى أحد الطرفين المتنازعين : مضر واليمن ، فيؤدي انحيازهم إلى سخط الجانب الآخر ، وأحياناً إلى ثورته على الخليفة . كان يزيد بن معاوية مقرباً لليمانية أنسبائه ، وقد عاملهم معاملة ممتازة أثارت عليه القيسية فانحاز هؤلاء إلى صف ابن الزبير . وفي زمن الوليد الأول كانت الكلمة الأولى لقيس ولما استخلف سليمان مال إلى اليمانية وبطش بالقيسية . وأما يزيد الثاني والوليد الثاني فقد مالا إلى القيسية . وجاء يزيد الثالث فقرب اليمانية الذين ظاهروه على الوليد بن يزيد فلم يكن في حاشيته قيسي واحد . وجاء مروان بن محمد أخيراً فاستظهر بالقيسية وأدى هذا إلى ثورة اليمانية عليه .

وكذلك لم يستطع أمراء بني أمية وعمالهم أن يتحرروا من أثر هذه العصبية فكان الوالي المضري يقرب إليه المضرية ويتعصب لها فتثور اليمانية ، ويأتي الوالي اليماني ويقرب اليمانية فيسخط عليه المضرية ، ويشب النزاع وتقوم الفتن بسبب هذه العصبيات التي فتت في عضد العرب وأوهنت قواهم . والوالي الوحيد الذي وقف محايداً من جميع القبائل هو زياد لأنه لم تكن له قبيلة ينتصر بها .

وكذلك كان الشعراء المتعصبون لقبائلهم يعملون بشعرهم على تأجيج نار العداوة القبلية وإغراء القبائل بعضها ببعض .

وبسبب هذه العداوة القبلية المتأصلة كانت أتفه الحوادث كافية لاشتعال نار فتنة قبلية تودي بالمئات والآلاف ، ولا تكاد الفتنة تذر بقرنها حتى يصبح الشغل الشاغل لكل من الجانبين المقتتلين الأخذ بثأر القتلى فتتوالى الوقائع وتتصل الحروب . وقد أثار رجل مضري فتنة بين المضرية واليمنية دامت سنتين ، فيما يذكرون ، لأنه انتزع بطيخة من حائط رجل يماني[1] .

---

(١) تاريخ أبي الفداء ٢/١٤ .

وسنتحدث هنا عن أبرز الفتن القبلية التي كان لها اثر في الأحداث السياسية أو كانت ناتجة عنها ، أما أثر العصبية القبلية في المجتمع العربي فموضعه في الفصل الخاص بالمؤثرات الاجتماعية .

ظهرت بوادر الفتن القبلية في الشام إثر وفاة يزيد . فإن قبيلة قيس التي أحنقها تقريب يزيد لأصهاره الكلبيين مالت إلى ابن الزبير ، وانتصر اليمانية لمروان بن الحكم ، وكانت موقعة مرج راهط انتصاراً لليمنية على القيسية . وارتدت قيس بعد هذه الهزيمة إلى ديارها في قنسرين وقرقيسياء وأراضي الجزيرة ، ولكنها أخذت تتحين الفرص للثأر لقتلى المرج تحت زعامة رئيسها زفر بن الحارث .

وقد بدأ زفر غاراته على الكلبيين ، بعد اختياره قرقيسياء مقرًّا له ، وتوالت الوقائع بين الجانبين . وما لبث أن انضم إلى زفر زعيم قيسي آخر هو عمير بن الحباب . وقد تظاهر عمير أول الأمر بالولاء لبني أمية وبايع مروان بن الحكم ، ولكنه في موقعة خازر انحاز إلى جيش ابن الأشتر بمن معه من قيس وهو ينادي : يا لثأرات المرج ، فدارت الدوائر على ابن زياد وقتل ، وانضم عمير بعدئذ إلى زفر خوفاً من بطش عبد الملك وأخذا يغيران على كلب .

وعقب إحدى الغارات عاد عمير فنزل بمن معه من قيس على الخابور ، مجاوراً لبني تغلب المسيحيين . وكانت منازل هؤلاء بين الخابور والفرات ودجلة . وكانت تغلب في أول أمرها عوناً لقيس في قتال كلب ، عدوهما المشترك ، فلما زاحمتهم قيس على أراضيهم واغتصبت عيراً لهم وقع الشر بينهما ، فقتل عمير يوم ما كسين جمعاً كبيراً من تغلب ومنهم زعيمها شعيث بن مليك ، واستطاعت تغلب أن تثأر لنفسها يوم الثرثار ، ثم التقوا مرة أخرى بالثرثار ، وقد شارك زفَر في هذه الغارة التي انهزمت فيها تغلب . واتصلت الوقائع بين الفريقين وتداولا النصر وفي يوم الحشاك انهزمت قيس وقتل عمير بن الحباب وارتد زفر إلى قرقيساء ، ثم ثأر لقيس يوم الكحيل وفتك ببني تغلب وبقر بطون نسائهم .

ولما أراد عبد الملك المسير إلى مصعب سار إلى قرقيساء أولا لحصر زُفر فيها

طويلا ولكنه لم يقدر على فتحها فصالح زفر وأمنه ، وهدأ النزاع مؤقتاً بين قيس وخصومها ثم عاد النزاع بين كلب وقيس ثانية حين توجه حميد بن حريث ، سيد كلب ، إلى قبيلة فزارة القيسية ، وكان مقرها البادية في شرق المدينة ، ومعه عهد من عبد الملك بجباية الصدقات . ولكنه انتهز الفرصة للانتقام من قيس وفتك ببني فزارة . وثأر الفزاريون لأنفسهم في موقعة « بنات قين » ، وتدخل عبد الملك لحقن الدماء .

وثارت الخصومة بين قيس وتغلب مرة أخرى حين توجه الجحاف بن حكيم السلمي إلى قبائل الجزيرة ، ومعه عهد مفتعل باسم عبد الملك يخوله جباية الصدقات . وكان الأخطل التغلبي قد أحفظه في مجلس عبد الملك ، فأراد أن يثأر لعمير فأغار على تغلب يوم البشر وفتك بهم فتكاً ذريعاً وأسر الأخطل في الموقعة ثم أطلق سراحه وقد حسبوه عبداً ، واضطر الجحاف أن يلجأ إلى بلاد الروم خوفاً من انتقام عبد الملك ثم شفع له أشراف قيس ومنهم الحجاج ، فعفا عنه عبد الملك .

وفي الوقت الذي ثار فيه النزاع القبلي في الجزيرة وبلاد الشام ، ثار نزاع قبلي آخر في العراق ، وفي البصرة خاصة .

وخبر هذه الفتنة مضطرب في المصادر التاريخية ، وتذكر إحدى الروايات المرجحة أن أهل البصرة ثاروا بعبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد وهموا به فاستجار بمسعود بن عمرو ، سيد الأزد ، فأجاره ثم لحق بالشام واستخلف مسعوداً على البصرة فلم ترض به تميم وقيس وسائر مضر واستطاع بنو تميم قتل مسعود وهو قائم يخطب في مسجد البصرة فثارت الفتنة بسببه بين الأزد ومعها حليفتها ربيعة وبين تميم وسائر مضر وكان بينهم قتال عنيف ثم اصطلحوا واتفقوا على تولية عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي أمرهم ، وصنع أهل الكوفة صنيعهم فخلعوا عمرو بن حُرَيث خليفة ابن زياد وولوا أمرهم قرشيـًا هو عامر بن مسعود ، للحيلولة دون قيام الفتن القبلية .

وقامت في الوقت نفسه فتنة مماثلة في خراسان ، وقد ذكرنا أن العرب حين نزلوا الأقطار المفتوحة حملوا معهم خصوماتهم القبلية ، فحين اضطربت الأحوال

بعد موت يزيد خلع القوم سلم بن زياد ففارقهم واستعمل على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ثم اضطر أن يقسم خراسان بين المهلب وبعض زعماء بكر بن وائل فلم يرض عبد الله بن خازم زعيم مضر خراسان عن صنيعه وانتزع منه عهداً بولاية خراسان كلها وأصبح لزاماً عليه أن يقاتل من ولاهم ابن زياد . أما المهلب فتخلى عن عمله دون قتال ، وأما بكر بن وائل فقاتلت ابن خازم فلحقت بها الهزيمة وقتل أشرافها وما لبث ابن خازم أن غلب على خراسان كلها . وقد ظاهرت قبيلة تميم ابن خازم – وهو من قيس – على قتال ربيعة في أول الأمر ، ثم وقع الجفاء بين ابن خازم وتميم ونشب القتال بينهما واستمر سنتين حسب رواية الطبري . ثم مل بنو تميم القتال وتفرقوا . ولما فرغ عبد الملك من قتال مصعب وجه إلى ابن خازم يدعوه إلى طاعته على أن يطعمه خراسان سبع سنوات فأبى ، فولى عبد الملك بكير بن وشاح التميمي خراسان ، وكان خليفة ابن خازم على مرو ، فخلع بكير طاعة ابن الزبير ودعا إلى عبد الملك ، واجتمع على قتال ابن خازم بكير بن وشاح وبحير بن ورقاء التميميان ، وظفر به بحير فقتله . وما لبث الخلاف أن دب بين بكير وبحير وانقسمت تميم على نفسها ، وخاف عبد الملك أن تؤدي الفتنة إلى ضياع خراسان فاختار لهم والياً قرشيًّا هو أمية بن عبد الله . فكذلك نجد القوم يلجؤون إبان الفتن القبلية إلى اختيار ولاة من قريش إطفاء للفتنة .

ولم تنته فتنة ابن خازم بقتله ، فإن ابنه موسى قد لجأ إلى مدينة الترمذ ، فاجتمع على قتاله الصغد والترك من جانب ، والعرب من جانب آخر ، وظل يناجز القوم اثني عشر عاماً بعد مقتل أبيه ، على رغم قلة أنصاره ، « وكان يقاتل العرب أول النهار ، والعجم آخر النهار » ، حتى قتل آخر الأمر في عهد ولاية المفضل بن المهلب على خراسان .

وقد وقعت بعدئذ طائفة من الفتن القبلية بخراسان ، وحين خلع قتيبة بن مسلم سليمان بن عبد الملك اتحدت جميع قبائل خراسان ضده ، ولم تستطع قبيلة باهلة المستضعفة أن تنصره فقتل . وكان أسد بن عبد الله شديد التعصب لليمانية ، فلما ولي خراسان اشتد على مضر وأهان أشرافها حتى أفسد الناس بعصبيته مما دعا هشاماً إلى عزله .

وكانت آخر هذه الفتن تلك التي ثارت بين اليمانية ويتزعمها جديع بن علي الكرماني ، والمضرية وعلى رأسها نصر بن سيار ، واستطاع الكرماني أن ينحي نصراً عن مرو بمعونة الحارث بن سريج ، ثم وقع الخلاف بينه وبين الحارث وانتهى الامر بقتل الحارث . وكان أبو مسلم الخراساني يراقب عن كثب القتال الدائر بين اليمن ومضر ، حتى إذا أوهنها القتال وكثر أنصاره أظهر للكرماني أنه في صفه ، وخاف نصر أن يجتمع عليه أبو مسلم والكرماني فدعا هذا إلى الموادعة ثم أنس منه غرة فوجه إليه من قتله . ولم يلبث أبو مسلم أن دخل مرو ، عاصمة خراسان ، وانضم اليه علي وعثمان ، ولدا الكرماني ، في قتال نصر . ولعب أبو مسلم دوره ببراعة في الإيقاع بين مضر واليمانية والحيلولة دون تحالف العرب ضده . ثم لما أيقن من افتراق كلمة العرب وضعفهم أخذ يبطش بزعمائهم واحداً تلو الآخر وكان ولدا الكرماني في طليعة من فتك بهم .

وفي الشام قامت فتنة قبلية أيضاً في عهد مروان بن محمد لأنه استظهر بالقيسية فثار عليه الكلبيون وسائر اليمن في حمص ودمشق وتدمر وغيرها ، ولم يستطع أن يقضي على ثوراتهم إلا بعد قتال شديد .

كان من أثر هذه الخصومات القبلية أنها أوهنت العرب وحدت من فتوحاتهم وأدت إلى ضعف الدولة الأموية ثم إلى انهيارها ، ومما يلاحظ أن الخصومات القبلية في عصر بني أمية كانت أعنف منها في العصر الجاهلي وتجلت فيها من مظاهر القسوة والوحشية ما لم يكن معروفاً من قبل كبقر بطون النساء . وقد ذكر ولهوزن أن هذه العادة الوحشية لم تعرف في جزيرة العرب وإنما كانت مألوفة في سورية (١) .

ثالثاً : الفتوح الخارجية زمن بني أمية وأثرها في الخطابة :

استطاع العرب أن يحققوا من الفتوحات العظيمة خلال قرن واحد ما لم تحققه الامبراطورية الرومانية في أوج قوتها ، وقد تمت الفتوحات العربية بسرعه لا نظير لها

---

(١) ولهوزن ص : ١٧١ .

في تاريخ الفتوح ، فإذا سلطانهم يمتد شرقاً حتى نهاية بـلاد السند ، ويرتقي في الشمال الشرقي متخطياً نهر جيحون حتى يستقر على ضفاف نهر سيحون ، ويتوغل في بلاد الروم حتى تصك حوافر خيول الغزاة العرب أسوار مدينة قسطنطين المنيعة ، وينطلق غرباً طاوياً البلاد حتى آخر حدود البر الافريقي وبلاد المغرب ، ثم يضيق به البر الرحيب فيجوز البحر إلى الأندلس ، ويقرع الفاتحون العرب أبواب بلاد الغال ، ولولا ما نشب بـين العرب من منازعات قبليـة ، ولولا الفتن الداخلية وثورات البربر لبلغت الفتوحات الاسلامية في العصر الأموي شأواً أبعد كثيراً مما بلغته ولملأت في سجل التاريخ صفحات أخرى تزيـد في تألق تاج الفخار والعزة على هامة الأمة العربية .

(أ) الفتوح في الشرق

لم يجاوز المسلمون زمن الخلفاء الراشدين ، في فتوحاتهم شرقاً ، بـلاد الفرس . وانصرف همهم إلى تثبيت أقدامهم في الأقاليم الإيرانية وإخضاع الثائرين عليهم فيها . وكانت السنوات الست الأولى من عهد عثمان حافلة بالغزوات والحملات الـتي انتهت بالسيطرة على جميع بلاد الفرس وقتل يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية .

وفي عهد الأسرة الأموية سار المسلمون شوطاً آخر في فتوحاتهم فقطعوا نهر جيحون في الشمال الشرقي وتوغلوا شرقاً في سجستان وبـلاد السند . وقد بدأت حملات ما وراء النهر منذ عهد معاوية فقد أمر زياد عامـله على خراسان الحكم بن عمرو الغفاري فغزا أهل جبل الأشل وعاد بغنائم وافرة ومنذ ذلك الحين أصبح من المألوف أن يقوم والي خراسان بغزو ماوراء النهر وإلا اعتبر غير أهل لتولي هذا المنصب . فقام الربيـع بن زياد الحارثي وسلم بن زياد بطائفة من الغزوات فـيما وراء النهر ، ثم شغل ولاة خراسان بعدئذ بالخصومات فتوقفت هذه الغزوات حـتى تولى المهلب بن أبي صفرة خراسان فاستأنفها وغزا الختل وكش ، وتابع ابنه يزيد الغزو ففتح قلعة نيزك بباذغيس .

ولم تنشط الفتوح ، سواء في الشرق أو في الغرب ، إلا زمن الوليد بن عبد الملك . ففي عهده ولى الحجاج قتيبة بن مسلم خراسان (٨٦ هـ) فقام بحملات عديدة غزا فيها السند والترك وقتل من لم يدن له من ملوك ماوراء النهر وأقر العرب بسمرقند عاصمة السغد ، وأخلاها من أهلها وحرق ما فيها من الأصنام . وذكر البلاذري أن قتيبة لما أحرق الأصنام ولم يهلك أسلم من السغد خلق كثير . وقد أشار كعب الأشقري إلى هذا الفتح بأبيات منها :

كلَّ يومٍ يَحوي قُتيبةُ نهباً ... ويزيد الأموال مالا جديداً
باهِليٌّ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مَفارقٌ كُنَّ سُودا
دوَّخ السغد بالكتائب حتى ... ترك السغد بالعراء قُعُوداً (١)

وامتدت غزوات قتيبة فيما وراء النهر حتى بلاد الشاش وفرغانة شمالا ، وحين غزا فرغانه أراد غزو كاشغر ، وهي أدنى مدائن الصين ، فأتاه موت الوليد فقفل ، وفي الطبري قصة طويلة تدور حول محاولة قتيبة غزو ملك الصين وقد لعب خيال الرواة فيها دوراً ظاهراً (٢) .

واستمرت غزوات ما وراء النهر في زمن ولاية يزيد بن المهلب الثانية على خراسان ، وكان يزيد يستعمل غاية القسوة والعنف مع أهالي البلاد المفتوحة ، فيقال إنه لما فتح دهستان قتل من الترك أربعة عشر ألفاً صبراً ، ولما ثارت به جرجان بعد فتحها أقسم ألا يرفع عن أهلها السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل ، فبر بقسمه وقتل من أهل جرجان أربعين ألفاً .

ولم تقع بعد ذلك غزوات ذات شأن فيما وراء النهر حتى كانت ولاية أسد بن عبد الله القسري فقام بجملة من الغزوات الموفقة وقتل خاقان الترك ، ولما آلت ولاية خراسان إلى نصر بن سيار غزاما وراء النهر ثلاث مرات في سنة واحدة

---

(١) الطبري ٥/٢٥٥ .

(٢) يرى مؤلفو كتاب «تاريخ العرب» أن فتح كاشغر وغزو الصين قد نسب خطأ الى قتيبة وان الذي قام بذلك هو نصر بن سيار (ج ٢/٢٧٥) .

(١٢١ هـ) وقتل في الثالثة كورصول ملك الترك ، ثم شغل بالفتن القبلية . وقد كان من نتيجة هذه الغزوات أن دخل كثير من أقوام ماوراء النهر في الإسلام وأصبحت هذه البلاد جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية .

أما في الشرق فقد وجه الحجاج ، بعد فراغه من أمر شبيب والأزارقة ، عبد الله بن أبي بكرة لغزو رتبيل صاحب سجستان ولكن الترك أوقعوا بجيشه بعد أن أوغل في بلادهم ، فوجه إليهم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث فاحتل جانباً من بلاد رتبيل ثم صالحه حين وقعت الحرب بينه وبين الحجاج .

واستطاع المسلمون بعد انتهاء ثورة ابن الأشعث إخضاع بلاد سجستان كلها ثم وجه الحجاج صهره محمد بن القاسم الثقفي (٩٤ هـ) في جيش من أهل الشأم فأخضع مكران ودخل بلاد الهند فاستولى على السند ودلتا نهر الهندوس والنيرون (حيدر آباد) ثم يتجه شمالا فيفتح ملتان في جنوب البنجاب . ولم يتم فتح الهند نهائياً إلا فيما بعد على يد الدولة الغزنوية .

(ب) الفتوح في الغرب

حين ثبت العرب أقدامهم في مصر وجهوا أنظارهم قبل إفريقية والمغرب واستطاع عقبة بن نافع ، في عهد معاوية ، أن يفتح برقة ثم ابتنى مدينة القيروان وجعلها قاعدة لحملاته وفتوحاته التي لم يوقفها إلا بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) . وفي زمن يزيد بن معاوية استشهد عقبة في معركة ضد البربر قرب تهوذا ، وكادت البلاد تخرج من يد العرب في عهد خلفه ، حتى كانت إمارة حسان بن النعمان الغساني الذي استطاع إخضاع البربر وطرد البيزنطيين من قرطجنة .

وحين ولي موسى بن نصير إفريقية أصبحت هذه الولاية مستقلة عن مصر ومرتبطة مباشرة بالخليفة في دمشق . وقد استطاع هذا القائد الماهر أن يخضع شمالي إفريقية كله للحكم الإسلامي ثم بعث مولاه طارق بن زياد لجاز البحر إلى اسبانيا (٩٢ هـ) في عهد الوليد بن عبد الملك ، على رأس جيش من العرب والبربر لحارب

القوط وهزمهم وقتل في الموقعة الحاسمة لذريق آخر ملوك القوط . ثم لحق موسى بمولاه وتوغلا في البلاد وتم لهما فتح إسبانيا كلها .

وتابع المسلمون فتوحاتهم في عهد هشام تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي واستطاع هذا القائد أن يخضع زعيم البربر الثائر منازه كما أخضع دون اكيتانيا وتقدم في اتجـاه نهر اللوار فالتقى بين تور وبواتيه بالفرنجة (١١٤ هـ) وعلى رأسهم شارل مارتل الذي استنجد به يوديس ، ودارت رحى موقعة استشهد فيها القائد عبد الرحمن الغافقي . ويقول المؤرخ جيبون Gibbon إن العرب لو كسبوا المعركة في بواتيه لكان القرآن يفسر في أكسفورد ولانتشر الدين الإسلامي في أرجاء أوربا[1] ، ولم يستطع العرب بعد ذلك أن يتوغلوا في بلاد الغال إلى أبعد من هذا الحد بسبب الفتن الداخلية التي ثارت إذ ذاك ، واضطر عقبة بن الحجاج أن يقفل راجعاً إلى إفريقية ليقضي على الثورة التي أشعلها البربر ، وقد أوهنت هذه الثورة من قوة الجيش العربي وأوقفت فتوحاته . وكان الدافع إلى هذه الثورة سوء معاملة العرب للبربر على الرغم من انضواء هؤلاء تحت راية الإسلام ومشاركتهم المجدية في فتوح إسبانيا . ولم يحاول هشام بن عبد الملك أن يتألفهم واستطاع الخوارج الصفرية أن يثيروا حفيظتهم على الدولة التي لاترعى حقوقهم فثاروا عليها وهزموا جيوشاً عديدة وجهت اليهم ثم اضطروا إلى الخضوع آخر الأمر .



تلك هي أبرز الأحداث السياسية التي جرت في عهد بني أمية والتي كان لها أثرها البين في خطابة ذلك العصر ، ومنها يتضح أن الطابع السياسي كان هو الغالب على الخطابة الأموية .

وقد لعبت الخطابة دوراً بارزاً إبان هذه الأحداث ، سواء في استمالة الأنصار أو في الحض على القتال والترغيب في الجهاد . ومن أشهر الخطب السياسية التي

---

(١) ولهوزن ص ٢٧٣ .

انتهت إلينا خطبة زياد البتراء [١]، وخطبة مصعب بن الزبير يوم ولاه أخوه البصـرة [٢] وقد جعلها كلها آيات قرآنية ، وخطبة الحجّاج يوم قدم الكوفة والياً عليهـا [٣] . وخطبة قتيبة بن مسلم حين خلع سليمان بن عبد الملك [٤] .

---

(١) البيان والتبيين ١/١٧٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/٥٥٨ .

(٣) العقد الفريد ٤/١١٩ . الكامل للمبرد ١/٢٢٣ .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١/٣٥٤ . تاريخ الطبري ٥/٢٧٥ .

٢

المؤثرات الدينية

على الرغم من غلبة الطابع السياسي على الخطابة في العصر الأموي فإن الأحداث السياسية لم تنفرد بالتأثير في حياة الفن الخطابي في هذا العصر . وتأتي المؤثرات الدينية في طليعة العوامل غير السياسية التي تركت طابعها الواضح في الخطابة الأموية .

على أن الفصل التام بين العوامل السياسية والدينية في عصر بني أمية يجانب الواقع التاريخي ، فإن نقاط التلاقي بينها كانت من الوفرة بحيث تجعل من العسير الفصل بينها ، ومنشأ هذا الارتباط الوثيق بينها أن اختلاف المسلمين سياسياً ودينياً كان سببه الأول واحداً وهو الخلافة ، فلهذا كان جل الأحزاب السياسية المناوئة لبني أمية يحمل أيضاً طابعاً دينياً ، حتى الحركات السياسية الخالصة لم تبرأ من الطابع الديني ، فثورة ابن الأشعث مثلا كانت في مبدئها صدى لنقمة العراقيين على بني أمية المستأثرين بالحكم ، ولكن ما لبث أن انضم إلى ابن الأشعث جميع الساخطين على بني أمية وبايعوه على « كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين » وكان في جيشه كتيبة كاملة من القراء أبلت خير بلاء في قتال الحجاج .

وقد رأينا في الفصل السابق أن محور اختلاف المسلمين بعد وفاة الرسول إنما هو قضية الخلافة ، وبسببها ظهرت الأحزاب السياسية منذ مقتل عثمان ، وكانت كلها تسعى إلى الظفر بها ، وقد ظلت هذه الأحزاب تصطرع حربياً ولسانياً طوال عصر بني أمية . والنزاع على الخلافة كان أيضاً السبب الأول في افتراق المسلمين فرقاً دينية شتى . ثم انضم إلى مسألة الخلافة بعد ذلك أمور أخرى شجر الخلاف حولها وثار الجدل بين المسلمين بشأنها . وكان كل اختلاف جزئي بين أتباع فرقة ما يؤدي ، على طريقة التوالد الذاتي ، إلى ظهور شعبة جديدة في هذه الفرقة . وكانت

نشأة الأحزاب السياسية سابقة على نشأة الفرق الدينية ، فإن الخلاف بين المسلمين لم يؤد أول الأمر إلا الى ظهور أحزاب سياسية ، ثم مالبث بعض هذه الأحزاب أن اتخذ طابعاً دينياً إلى طابعه السياسي ، وفيما بعد فقدت هذه الأحزاب طابعها السياسي واستحالت فرقاً دينية خالصة .

فالاختلاف الأول بين المسلمين إنما كان على الإمامة ، ويقول الشهرستاني إنهـا أعظم خلاف وقع بين الأمة ، « إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينيـة مثل ما سل على الإمامة في كل زمان [١] » ، وبسبب هذا الاختلاف ظهرت فرقتا : الشيعة ، والخوارج .

ثم وقع الاختلاف بين المسلمين على مايسميه أصحاب الكلام بـ « الأصول » أي الأمور الأساسية في العقيدة والتي تتصل بالمعرفة والتوحيد كالقضاء والقدر والجبر وحرية الاختيار وصفات الله وغيرها من الموضوعات المتصلة بعلم الكلام ، وتمخـض هذا الاختلاف عن ظهور فرق : المرجئة والقدرية ، والجَهمْية ، والمعتزلة .

على أننا سنقصر حديثنا هنا عن الفرق الدينية التي كان لها أثرها في الخطابة السياسية والتي كانت تجمع بين الطابعين الديني والسياسي .

وقد تناولت في الفصل السابق الجانب السياسي من هـذه الفرق وسأتناول في هذا الفصل الناحية الدينية الخالصة منها .

بدأ النزاع حول الخلافة منذ وفاة الرسول بين المهاجرين والأنصار وقد تم الأمر للمهاجرين واستطاع أبو بكر أن يفض النزاع بما رواه عن الرسول من أن « الائمة من قريش » . بيد أن هذه القبيلة نفسها مالبثت أن اختلفت بينها وتنازع الخلافة عدد من البارزين فيها ، ثم ظهرت جماعات ترفض أن تكون الإمامة من حق قريش وحدها ، وأخيراً تبلور الخلاف حول الإمامة في اتجـاهين : الأول يرى أن الإمامة تكون بالاتفاق والاختيار ، ومن مؤيدي هذا الاتجاه الأمويون ولكنهم

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/٣٠ .

يشترطون أن يكون الخليفة قرشياً ، ومنهم الخوارج وهم لا يشترطون كون الخليفة من قريش بل الخلافة حق للعربي والعجمي على السواء .

والاتجـــاه الثاني يرى أن الإمامـــة تثبت بالنص والتعيين ، وأنصاره هم الشيعة ـ ما عدا الزيدية ـ وأنا موجز القول في فرق الخوارج والشيعة والمرجئة .

(١) الخوارج

إن الصورة النهائية لعقيدة الخوارج لم تتبلور إلا بعد أن توقفوا عن مناهضـة من بيدهم السلطة وفرغوا للبحث النظري في عقائدهم . وقد رأينا أن الخوارج المتطرفين كادوا أن يستأصلوا في المواقع التي خاضوها إبان العصر الأموي ، ولا سيما الأزارقة منهم ، فمن الطبيعي أن يكون الفقه الخارجي المتبلور من عمل الفرق المسالمة التي قدر لها أن تبقى ، والإباضية منها بنوع خاص .

ونحن نلاحظ أنه منذ أن نادى الخوارج بشعار « لا حكم إلا الله » اكتسبت دعوتهم الطابع الديني ، إذ أنهم اضطروا أن يحكموا على عمل علي حين حكم الرجال في دين الله ، فقد عدوا عمله هذا إحدى الكبائر فحكموا بكفره وأرادوه على أن يشهد على نفسه بالكفر ، وجرهم هذا إلى أن يتناولوا مسألتين أساسيتين : الخلافة وشروطها ، ومرتكب الكبيرة وحكمه ، وهكذا نرى أن السياسة كانت الدافـع الأول لإثارة الجدل في المسائل الدينية .

وقد ذهب الخوارج إلى أن الخلافة حق مشاع لجميع المسلمين ، وليست وقفـاً على قريش ولا على العرب ، لأن الإسلام قد ساوى بين الجميع ، وهم شديـدو التمسك بحرفية النصوص القرآنية والتعاليم الإسلامية . فالذي يراه المسلمون أهـلا للخلافة ويختارونه لأنفسهم بمحـض إرادتهم يغدو خليفة شرعياً لهم ولو كان عبداً حبشياً . ولعل أكثر الخوارج لم ينصروا علياً في بادىء الأمر لكونـه من سلالة النبي وإنما لأنه كان في نظرهم أجدر الناس بالخلافة وقد أجمع الناس على اختياره ، ولذا اعتبروا الخارجين عليه آنذاك كفاراً كطلحة والزبير ، فلما حكم في دين الله

لم يعد جديراً بتولي الخلافة ووجب الخروج عليه . وهكذا نجدهم قد ربطوا بين سلوك الخليفة وعقيدته ، وقادهم هذا بعدئذ إلى التعميم حين بحثوا في شروط صحة الإيمان . ولما نظر الخوارج بهذا المنظار إلى حكم الأئمة السابقين أثبتوا صحة خلافة أبي بكر وعمر ، وعثمان في السنين الست الأولى من حكمه . وتبرأوا منه في السنين الست الأخرى وحكموا بكفره ، وحكموا بصحة خلافة علي قبل التحكيم وكفروه بعد ذلك .

والأصل الثاني الذي يقوم عليه المذهب الخارجي هو مسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وعندهم أن لا إيمان بلا عمل ، ونظروا بهذا المقياس إلى مرتكب الكبيرة فعدوه كافراً حكمه حكم المرتدين عن الدين . وقد ألجأ حكمهم المتطرف هذا سائر المسلمين إلى اتخاذ موقف محدد من هذه المسألة ، فالمرجئة لم يعدوا العمل جزءاً من الإيمان ولم يخرجوا مرتكب الكبيرة عن إيمانه . وقد وقف أهل السنة والمعتزلة موقفاً وسطاً في هذا الأمر بين الخوارج والمرجئة

وليس للخوارج نظرة موحدة إلى جميع المسائل الدينية التي تعرضوا لها ، إلا أنهم يتفقون في اعتبارهم الآيات القرآنية المعين الأول الذي يستقون منه عقائدهم ، وهم يتمسكون بحرفية هذه الآيات تمسكاً يشي أحياناً بما فطروا عليه من سذاجة مردها إلى نشأتهم البدوية وافتقارهم إلى الثقافة الفلسفية . وهم مع ذلك قد استخدموا القياس ليتاح لهم تعميم الأحكام المستمدة من النصوص القرآنية . وإذا تتبعنا مادار بين فرقهم المختلفة من جدل ومناظرات يتضح لنا مدى اعتمادهم الحرفي على النصوص القرآنية ، كما تتجلى لنا بساطة تفكيرهم وسذاجة منطقهم ، وقد استطاع علي وابن عباس إفحامهم ودحض حججهم أكثر من مرة . وقد أدى تمسكهم بحرفية النصوص القرآنية إلى مايشبه أن يكون تناقضاً في أحكامهم ، فعلى تشددهم في تكفير مرتكب الكبيرة ومغالاتهم في تقدير عقوبة الكاذب وقفوا موقفاً متساهلا من مقترف الزنى ولم يحكموا برجمه لعدم نص القرآن على ذلك ، كما أنهم عاملوا أهل الذمة بالحسنى عملا بوصية القرآن ، في حين أن المتطرفين منهم أحلوا دماء

مخالفيهم من المسلمين وذبحوا أطفالهم وبقروا بطون نسائهم . وقد حدثنا أن واصل ابن عطاء وقع وأصحاب له في قبضة جماعة من الخوارج فما نجاهم من القتل إلا ادعاؤهم أنهم من الذميين ، ثم لم يقنع واصل منهم بتخليته هو واصحابه بل حملهم على إبلاغهم مأمنهم اعتماداً على آية قرآنية أوردها لهم [١] . وكانوا يتورعون عن التقاط رطبة سقطت من شجرة نخل ثم لا يتورعون عن ذبح صاحب رسول الله التقي الورع عبد الله بن خبّاب [٢] .

ومع هذا لا يسع الباحث المنصف إلا ملاحظة ما في عقيدة الخوارج وحركتهم من نزعة مثالية تتضح سواء في الناحية الدينيــــة في توخيهم مراعاة أحكام الدين بمنتهى الدقة والحزم ، أو في الناحية السياسية في دعوتهم إلى قيام حكومة مثاليـة على النحو الذي يتصورونه ، أو في الناحية الخلقية ، مما دفعهم إلى إدراج بعض المسائل الأخلاقية في أحكام العبادات كالتبرؤ من الكاذب . وهذه المثالية الأخلاقية حملت بعض فرقهم على الزعم بأن سورة يوسف ليست من القرآن الكريم لأنه لا يجوز ان يكون في كتاب الله قصة عشق [٣] .

ولم يكن غريباً أن ينشق الخوارج على أنفسهم ويفترقوا إلى شعب متعددة وذلك لاختلافهم في تأويل الآيات القرآنية ولتشددهم في محاسبة زعمائهم ومغالاتهم في التمسك بالمبادىء التي اعتنقوها [٤] .

---

(١) الكامل للمبرد ١٠٦/٢ .

(٢) الخبر في الطبري ٦٠/٤ .

(٣) القائلون بهذا فرقة من الخوارج تعرف بالعجاردة : الملل والنحل ١١٥/١ .

(٤) تشير المصادر إلى أن أول انشقاق في حركة الخوارج قد حدث منصرف الشراة من الحجاز بعد أن شاركوا في الدفاع عن بيت الله الحرام الى جانب ابن الزبير (عام ٦٤ هـ) . ويروي الطبري أنه في هذا العام خالف نافع بن الأزرق مقالة أصحابه من الخوارج حين قال بتكفير القعد منهم . ولكن الخلاف بين الخوارج قد ظهر في الواقع بعيد مفارقتهم عليا وإن لم يؤد إلى ظهور فرق مستقلة . فالمبرد يذكر أن الصفرية خلعت معدان الإيادي لأنه تبرأ من القعد وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي (الكامل ١٠٦/٢) . وقد مر المؤرخون بهذا الخبر دون أن ينتبهوا إلى قيمته التاريخية ، فهو يدل بصراحة على أن الخوارج قد اتخذوا منذ أول =

ولا يعنيني في بحثي هذا أن أتحدث عن معتقـــدات كل من فرق الخوارج ، ولكني أرى من المفيد أن أشير إلى أبرز نقط الخلاف بين فرق الخوارج البارزة لصلتها بالمناظرات التي كانت تقع بين زعماء فرق الخوارج وفقهائهم . والذي تجمع عليه شتى فرقهم قولهم بأن العمل جزء من الإيمان ، وأن الخلافـة حق المسلمين كافة وأنها تتم عن طريق الاختيار الحر . وفيما عدا هذا لا نكاد نجد لهم رأيـاً يجتمعون عليه ، بل إن منهم من كان يرى أن لا حاجة إلى الإمام – وهو رأي النجدات وكان يقول به أكثر الخوارج في أول أمرهم – وعلى الناس أن يتناصفوا ويعملوا بكتاب الله ، فإن لم يتم لهم هذا إلا بوجود إمام فلا مانع من اختياره .

ومما وقع فيه الاختلاف مسألة الخروج والتقية . فأكثر الخوارج لا يكفرون القَعَدَ ولا يَبرأون منهم ، والتقيّة جائزة لقوله تعالى : « إلا أن تتّقوا منهم تُقاة »[1] ولقوله أيضاً : « وقال رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتمُ إيمانه[2] » إلا أن الجهاد إذا أمكن خير من القعود لقوله تعالى : « وفضّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً

= عهدهم موقفا محدداً من بعض المسائل كمسألة القعود عن القتال . وفي أخبار أبي بلال الخارجي أنه أنكر مسلك زحاف الطائي وقريب بن مرة اللذين ظهرا أيام زياد وأخذا يستعرضان النـــاس (الكامل ١٥٣/٢) وأنا أستظهر مما قرأته من أخبار الخوارج أن كلمة الصفرية كان يراد بها أول الأمر مطلق الخوارج أو المحكمة الأولى ، وهي ليست نسبة إلى عبـــد الله بن صفار أو زياد بن الاصفر ، وإلا لقيل لهم الصفارية أو الاصفرية . وقد ذكر المبرد أن أكثر المتكلمين يذكرون أنهم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم (الكامل ١٧٠/٢) . وهذا الرأي يؤيد ما ذهبت اليه من أن المراد بهم في أول الأمر مطلق الخوارج ثم لما خالف نافع بن الأزرق أصحابه تبعته طائفة من الخوارج هم الذين تكونت منهم فرقة الأزارقة ، ووقع حينئذ الخلاف بين الخوارج : فالذين ظلوا على رأي الخوارج الأوائل هم الصفرية، وتابعت طائفة أخرى أبا بيهس ، وكان رأيه وسطاً بين مذهب ابن الأزرق ومذهب سائر الخوارج . ولم يكن حينذاك ثمة خلاف كبير بين النجدات والإباضية والصفرية . وقد ذكر المبرد أن الصفرية والنجدية والإباضية كانوا في ذلك الوقت يقولون بقول ابن أباض ، وأنه أقرب الأقوال إلى السنة (الكامل ١٨٠/٢) ثم ظهرت بعد سائر فرق الخوارج التي ناهز عددها الخمس والعشرين ، على ما تذكره كتب الفرق .

(١) آل عمران آية ٢٨ .

(٢) سورة غافر آية/ ٢٨ .

عظيماً[١] » . والأزارقة يخالفون جمهور الخوارج في القعد والتقية ، فهم يكفرون القعد ويبرأون منهم ولا يجيزون التقية ، وقد احتجوا في تأييد ما ذهبوا إليه بآيات من القرآن أيضاً منها قوله تعالى : « يُجاهدون في سبيل اللهِ ولا يَخافون لومةَ لائم[٢] » . وقد كانت بين الأزارقة ومخالفيهم مناظرات وجدل بشأن الخروج ، وممن كان ينصر التقية عِمران بن حِطّان الشاعر الخطيب ، ويذكر المبرد أنه كان في وقته رئيس قعد الصفرية وشاعرهم ومفتيهم[٣] .

ومن نواحي الخلاف أيضاً موقف الخوارج ممن يخالفونهم في المذهب . فالأزارقة يتطرفون فيعدون مخالفيهم كفاراً كالمرتدين من العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، والدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه . وهم لا يحلون أكل ذبائح من خالفهم ولا الزواج فيهم ولا توارثهم ، وأباحوا استعراضهم وقتل أطفالهم ونسائهم واحتجوا بقوله تعالى : « قال نوح ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً . إنك إن تَذَرْهم يُضلّوا عبادك ولا يَلِدوا إلا فاجراً كفّاراً[٤] » . والبيهسية يتوسطون فيجيزون الإقامة في ديار مخالفيهم والتزوج منهم وتوارثهم مع اعتبار ديارهم ديار كفر واعتبار مخالفيهم منافقين يظهرون الإسلام ، وحكمهم عند الله حكم المشركين ولذلك أجازوا الاستعراض وقتل الأطفال . وموقف الإباضيين أكثر اعتدالا وأقرب إلى رأي أهل السنة ، فهم لم يعدوا مخالفيهم مشركين بل كفاراً بالنعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، ولذا لم يجيزوا استعراضهم ولا قتل أطفالهم ونسائهم . واعتبروا ديارهم دار توحيد ، ومناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حل طلق .

وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر عند وقوع الاختلاف بينهما ، ورسائل نافع إلى ابن الزبير وإلى خوارج البصرة ، من أقدم

---

(١) سورة النساء / ٩٥ .
(٢) سورة المائدة آية / ٥٤ .
(٣) الكامل للمبرد ٢/١٨٠ .
(٤) سورة نوح / ٢٧ .

الوثائق في الفقه الخارجي وفي بيان وجوه الخلاف بين فرق الخوارج الأولى وحجج كل فرقة[١] .

وحينما ظهرت الفرق الكلامية في العصر الأموي تسرب إلى عقائد الخوارج طرف من المباحث الكلامية ، كالكلام في الاستطاعة وخلق الأعمال ، على أنه ، بوجه عام ، ظلت العقائد الخارجية طوال العصر الأموي بمنأى عن التأثيرات الفلسفية والنظر العقلي المجرد .

(ب) الشيعة

أخطر الحركات الدينية التي ظهرت في العصر الأموي هي دون ريب حركة الشيعة وقد كان من شأنها انقسام المسلمين منذ ذلك الحين إلى فريقين متقابلين هما السنة والشيعة .

وكانت النواة الأولى لظهور فكرة التشيع لعلي قد وجدت منذ وفاة الرسول عليه السلام حين رأت طائفة من الصحابة أن علياً أولى الصحابة بتولي الخلافة ، وكان من هؤلاء سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي . والشيعة ينسبون إلى سلمان كثيراً من العقائد التي لم تظهر في الواقع إلا في عصر متأخر ، كما ينسبون إليه نبوءات كثيرة عن مصير العلويين ، حتى لقد حملت كثرة الأساطير المضافة إليه بعض الباحثين على الشك في وجوده[٢] .

وما لبث أنصار علي أن كثروا وقوي أمرهم ، ولا سيما في الحقبة الأخيرة من حكم عثمان . وقد أثبت حزب الشيعة وجوده منذ ذلك الحين في صورة حزب سياسي يناصر علياً ويسعى في أن تصير الخلافة إليه . ولعل فكرة توارث الخلافة في أبنائه لم تكن قد أصبحت آنئذ مبدأ مسلماً به عند جميع أنصاره ، إلا أن الكثرة من شيعته كانت تعتقد أن الخلافة حق لآل البيت دون سواهم ، وأن الإمامة ينبغي أن

---

(١) انظر هذه الرسائل في الكامل للمبرد ٢ / ١٧٦ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الفرنسية ٣٦٢/٤ .

تكون وراثية فيهم ، ومع ذلك فإن فكرة الإمام كانت ما تزال حتى ذلك الحين أدنى إلى الزعامة السياسية منها إلى الزعامة الدينية .

وقد كانت هناك محاولات ، منذ عهد علي ، ترمي إلى إحاطة على بهالة قدسية تبعده عن الصورة البشرية ، وتعزى هذه المحاولات إلى عبد الله بن سبأ وإلى أتباعه المعروفين بالسبئية .

وفي العصر الأموي تبلورت المعتقدات الشيعية وبرز الطابع الديني في حزب الشيعة حتى غلب على الطابع السياسي ، كما تطورت فكرة الإمام وأخذت الصورة السياسية تتقلص فيها ، على حين أخذ الجانب الديني يبرز ويقوى . وما لبث الإمام عند الشيعة أن أصبح يتمتع بسلطة روحية ودينية لم يعترف أهل السنة بمثلها لخلفائهم الشرعيين .

ومحور الخلاف الأساسي بين الشيعة ومخالفيهم من أهل السنة وغيرهم هو مسألة الخلافة أو الإمامة فثمة خلاف بين الفريقين في طريقة اختيار الإمام أولا ثم في الصورة التي يتمثلها كل منهما للامام وثمة خلاف ثالث في بعض العقائد .

فالخليفة عند أهل السنة هو من يقع عليه اتفاق المسلمين ويبايعونه مختارين لأن الرسول لم يحدد طريقة لاختيار الخلفاء من بعده ولم ينص على خلافة أحد . وقد اشترط أهل السنة أن يكون الخليفة قرشيًّا لأن قريش كانت أجدر قبائل العرب بتولي هذا الأمر ، وقد استعان بعضهم بأحاديث الرسول عليه السلام فحواها أن الناس تبع لقريش[1] . أما الشيعة فلا ترى أن الإمامة أمر دنيوي منوط باختيار العامة ، وإنما هي من أركان الدين الأصيلة التي لا يجوز تركها للعامة . فالرسول هو الذي نص على إمامة علي بعده . فهو وريث النبي ووصيّه ، والإمامة لا تخرج عن أولاده ، « وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده[2] » وللشيعة أقوال يستدلون بها على أن محمداً عليه السلام أوصى بالأمر بعده لعلي ، ومخالفوهم يشكون في صحة هذه الأحاديث . ولعل ابن سبأ هو أول من أشاع القول بالوصاية

---

(١) في تيسير الوصول ٢/٣٣ طائفة من هذه الأحاديث .

(٢) الملل والنحل ١/١٣١ .

لعلي ، وكانت أقواله سبباً في إثارة أهل الأمصار على عثمان ، ثم شاعت هذه الفكرة حتى أصبحت من أسس المذهب الشيعي .

والمعتدلون من الشيعة كانوا يرون ، استناداً إلى هذه العقيدة، أن علياً كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان . وذهب المتطرفون منهم إلى أنهم كانوا مغتصبين لحق علي الشرعي ، وكفروهم لإنكارهم الوصية ، واغتصابهم الخلافة . وشاعت كلمة الوصي للدلالة على علي حتى استغني بها عن ذكر الإسم ، وتداولها دعاة الشيعة وشعراؤهم وخطباؤهم حتى استقرت صحتها في أذهان الشيعة كافة .

والخليفة عند أهل السنة يختاره المسلمون ويبايعونه للسهر على شؤون الرعية ورعاية مصالحها وتنفيذ أحكام الشريعة وإقامة الحدود والذود عن حياض الإسلام والضرب على أيدي من يريد به شرًّا ، سواء أكان عدواً خارجياً أم كان من دعاة الفتن وأهل البدع والأهواء . وربما وجد الخليفة من واجبه تفقيه المسلمين بشئون دينهم ومن حقه أن يجتهد في أحكام الدين ، شأن عمر حين منع زواج المتعة مثلاً ، ولكن الخليفة لم يكن يرى لنفسه حق التشريع الديني ولم تكن له على رعيته سلطة روحية كسلطة البابا على أتباعه مثلا . ها هو ذا عمر يدل الناس على من يعتبرون أفقه المسلمين بأحكام الدين فيقول في خطبة له : « يا أيها الناس ، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيّ ابن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت مُعاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني..[١] » .

ومن المحقق أن منصب الخليفة لم يكن سياسيًّا خالصاً ، لأن مؤسس الدولة الإسلامية الأول لم يكن زعيماً سياسيًّا فحسب بل كان إلى ذلك نبيًّا يحمل رسالة دينية ، فمن الطبيعي أن يعتبر خلفاؤه أوصياء على هذا الدين وحماة له ، وهم الذين يؤمون المسلمين في صلواتهم . ولكن المسلمين لم يضعوهم قط في مرتبة الرسول ولم يمنحوهم حق التشريع الديني ولا أضفوا عليهم قداسة دينية ترفعهم عن مستوى البشر .

أما الإمامة عند الشيعة فتختلف اختلافاً جوهريًّا عن الخلافة السنية ، فالإمام

---

(١) العقد الفريد ٤/٦٢ .

عندهم وريث الرسول في رسالته وفي هداية المسلمين ، وهو عند جمهورهم ، واسطة بين الله وبين الخلق ، يتصل به لا عن طريق الرؤية وإنما من طريق الوحي المسموع ، وهو بهذا يختلف عن الرسول . والله قد أودع في الائمة علمه وحباهم من نوره وطهرهم من الأوزار وعصمهم من الذنوب . والإيمان بالإمام ركن أساسي في عقائد الشيعة ، ومعرفة الله عندهم إنما تقوم على الإيمان بالله ورسوله وموالاة علي والائتمام به وبالائمة من بعده ، والبراءة إلى الله من عدوهم .

وقد غالت بعض فرق الشيعة في تقديس علي والائمة من بعده فلم تكتف بالقول في أن في الائمة جزءاً إلهياً يتوارثونه منذ آدم ، بل ذهبت إلى حد القول بتجسد الالهية في علي والائمة من بعده .

والذي يعنينا هنا رصد التطور الذي ألم بالعقيدة الشيعية في عصر بني أمية . فإن شيعة علي ، شأنهم شأن الخوارج ، لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بوحدة كلمتهم ، فسرعان ما اختلفت نظراتهم واتجاهاتهم وتشعبت فرقهم ، فكان منهم المعتدلون والمتطرفون والغلاة ، وكان لكل من هذه الفرق منابع تستقي منها . وفي العصر الذي نتحدث عنه كانت التأثيرات الغالبة تنبع من الديانات اليهودية والنصرانية والزرادشتية ، ثم انضمت اليها في العصور التالية روافد أخرى من الديانة الهندوسية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة . وكانت حصيلة هذه المؤثرات ظهور بعض عقائد غريبة عن الاسلام في بعض طوائف الشيعة كالقول بالحلول والتناسخ والرجعة والتجسيم والبداء . مما باعد مباعدة كبيرة بين مذهب أهل السنة ومذاهب هذه الطوائف من غالبية الشيعة .

وقد ظهرت بوادر الانشقاق في جماعة الشيعة منذ زمن علي وبُعيد وفاته إذ أن جماعة من الشيعة غالوا في تقديس علي حتى ألهوه ، ويقترن ظهور هذه الجماعة الغالية باسم عبد الله بن سبأ ، وكان من يهود اليمن ثم أسلم ، وقد لعب دوراً خطيراً في إثارة الفتن وبث الأقوال المضلة . ويروون أن علياً أنكر مسلك هؤلاء

السبئية فأحرق طائفة منهم ونفي ابن سبأ إلى المدائن (١) . ولما قتل علي رفض ابن سبأ أن يصدق بموته ولو أتوه بدماغه ألف مرة ، لأن فيه الجزء الإلهي ، وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وسينزل إلى الأرض بعد حين ليملأها عدلا كما ملئت جوراً (٢) . وروى ابن سعد أنه قيل للحسن بن علي إن ناساً من الشيعة يزعمون أن عليًّا دابة الأرض ، وأنه سيبعث قبل القيامة ، فأنكر مسلكهم ورآهم أعداء لأبيه لاأنصاراً له (٣) . وربما كان ابن سبأ استمد قوله بالرجعة من العقيدة اليهودية التي تقول برجعة النبي إلياس ، وعلى أي حال يبدو أنه أول من أشاع القول برجعة الأئمة كما أنه أول من أظهر القول بالنص على إمامة علي ومنه انشعبت طوائف الغلاة (٤) . وقد أحرق خالد القسري عام (١١٩ هـ) طائفة من الغلاة كانوا يقولون بالـهية علي وتناسخها في الأئمة من بعده (٥) .

وكما أن مسألة الإمامة كانت أبرز مسائل الخلاف بين أهل السنة والشيعة فكذلك كانت السبب في انقسام الشيعة وتشعب طوائفهم منذ وقت مبكر ، فقد جنح جمهورهم إلى أن الامامة في أبناء فاطمة دون سواهم ، وأكثرهم على أنها في الحسين وأبنائه فحسب . وخالفت طائفة فقالت إن عليًّا قد أوصى لابنه محمد بن الحنفية بعد الحسن والحسين ، واشتهر بهذا القول المختار الثقفي وعرف أتباعه بالكيسانية (٦) . وقد ثار المختار على بني أمية ودعا لابن الحنفية زاعماً أنه المهدي المنتظر الذي جاء لينشر العدل ويرفع الظلم ، ونتبين هذا من خطبه وكتبه التي حفظتها المصادر التاريخية . روى الطبري أن المختار لما قدم الكوفة خطب في جماعة من الشيعة فقال : « إن

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٥ .

(٢) الملل والنحل ١/١٥٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٢٦ . وقولهم دابة الأرض مستمد من الآية القرآنية : « وإذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم » .

(٤) الملل والنحل ١/١٥٥ .

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/١٥٤ .

(٦) نسبة إلى كيسان ، وقد اختلف فيه فقال قوم إنه مولى علي بن أبي طالب وقال آخرون انه احد تلامذة ابن الحنفية وذهب بعضهم إلى أن المختار بن عبيد كان يعرف بكيسان .

المهديّ ابن الوصي محمد بن علي بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً . . . »[١]
وأظهر المختار القول بالبداء ، لأن الأحداث كانت ربما خالفت تكهناته وكان يقول : قد بدا لربكم . فلما مات ابن الحنفية (عام ٨١ هـ) زعم الكيسانية أنه لم يمت وأنه مقيم بجبل رضوى وأنه سيرجع بعد . وفيه يقول كثير ، وكان كيسانيًّا :

وسبطٌ لا يَذوقُ الموت حتى　　يقود الخيلَ يقدمها اللواءُ
تغيّب ، لا يرى فيهم زماناً　　برضوى عنده عسلٌ وماء

ويقول الشهرستاني إن هذا كان بدء القول بالغيبة ثم بالرجعة بعدها ، ثم صار بعدئذ ركناً من أركان التشيع عند أكثر طوائف الشيعة[٢] .

وأما جمهور الشيعة فكان حينئذ على رأي الإمامية الذين نشأت في كنفهم أبرز عقائد الشيعة ، وتشعبت عنهم أقوى طوائفهم وأكثرها عدداً وأبعدها أثراً . ويتفق هؤلاء على إثبات إمامة علي بعد النبي عليه السلام بالنص والتعيين ، من طريق التعريض تارة والتصريح تارة أخرى، وقد استعانوا لإثبات قولهم بأحاديث نسبوها إلى الرسول كقوله في علي : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ . . . » وهم يتفقون أيضاً في سوق الامامة ، بطريق النص والتعيين أيضاً من علي إلى الحسن فالحسين فعلي زين العابدين فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . ثم وقع الاختلاف فمنهم من قالوا إنها في ابنه موسى الكاظم ويسوقونها في أولاده حتى الامام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر الذي اختفى في حدود سنة ٢٦٠ هـ ، وهم الإثنا عشرية . ومنهم من قال إن الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل وهو رأس طائفة الاسماعيلية ، وهم يختمون سلسلة أئمتهم الظاهرين بالإمام السابع .

عنيت الإماميـة بإبراز فكرة الإمامة وبالالحاح على الاعتقاد بالإمام حتى جعلت الإيمان به ركناً من أركان العقيدة . ورأت أن من لم يوال عليًّا ويأتم به وبالأئمة من بعده لم يعرف الله . وأضفت على الامام صفات ما كان الأئمة الأولون يدعونها

(١) الطبري ٤٤٩/٤ .

(٢) الملل والنحل ١٣٣/١ .

لأنفسهم . من ذلك العصمة عن كبائر الذنوب وصغائرها ، فالأئمة لاتستهويهم الآثام ولا يقترفون الأوزار ، وكيف لايكونون معصومين وهم المكلفون بهداية البشر أو كيف يصدر عنهم الشر وقد حل فيهم الجزء الالـهي . ومن هنا كان اعتمادهم في التشريع على ما يأتي به أئمتهم لا على الإجماع الذي يعتبر أحد مبادىء التشريع الأصيلة عند أهل السنة .

والقول بخلود الإمام الأخير في طوائف الإمامية ثم برجعته في آخر الزمان لينشر العدل ويمحو الظلم كان من العقائد التي قدر لها أن تنال حظاً كبيراً من الذيوع في العصر الأموي والعصور التي تلته . وقد يكون مصدر تسرب هـذه العقيدة إلى الشيعة الديانتين اليهودية والنصرانية ، ولكن من المحقق أن الأحوال العامة في عصر بـني أمية كانت تشجع على انتشار هذه العقيدة في أوساط الشيعة . فقد نكل بنو أمية بالشيعة شر تنكيل ، وقمعوا حركاتهم أعنف قمع ، وأخذهم عمالهم بأقصى الشدة والقسوة ، وباءت ثوراتهم كلها بالخيبة والإخفاق . فكان من ذلك أن طوى الشيعة جوانحهم على المرارة والأسى ، وثابوا إلى الله لينجيهم من محنتهم وينتصر لهم من أعدائهم ، فكانت فكرة المهدي المنتظر الذي يأتي لينصف المظلوم وينشر العدل رجع أمانيهم الحبيسة وتعلة يهدهدون بها أحزانهم وينفسون بها عن صدورهم المكروبة المتشوفة إلى فرج من الله قريب ، ومالبثت أن أصبحت عقيدة راسخة من عقائدهم.

على أن عقيدة المهدي المنتظر لم تكن وقفاً على الشيعة في عصر بني أمية بل قال بها أيضاً بعض أبناء البيت الأموي فشاعت عندهـم فكرة « السفياني » المنتظر التي تقابل فكرة المهدي عند الشيعة ، وعزا بعض الباحثين خبر السفياني إلى الامير الاموي خالد بن يزيد الذي خابت آماله في بلوغ الخلافة (١) . وقد وضح غولد تسيهر أن لهذه العقيدة نظائرها في بيئات أخرى غير اسلامية (٢) .

---

(١) تفصيل الخبر في ضحى الاسلام ٣/٢٣٨ .

(٢) العقيدة والشريعة ص /١٩٢ .

أدى إذن الاضطهاد المتصل الذي تعرض له الشيعة طوال العصر الأموي ، والحنق المحتدم في صدورهم على الأمويين الذين سلبوهم تراثهم وامتهنوهم واضطهدوهم وسفكوا دم أئمتهم ، ثم شعورهم بالعجز عن النضال الحربي لاسترداد حقهم السليب ، أدى هذا كله إلى ظهور فكرة المهدي كما أدى إلى أمور أخرى غيرها وأبرزها جنوح الشيعة إلى الأخذ « بالتقية » . وقد رأينا أن بعض فرق الخوارج كان لا يرى ضيراً من اصطناع التقية عند تعذر الخروج . إلا أن التقية عند الإمامية لم تكن ضرورة يكرهون عليها وإنما أصبحت ركناً من تعاليمهم وأصلا من أصول مذهبهم . وقد أعطت التقية فرق الشيعة في العصور التي اضطهدوا فيها طابع جمعية سرية تعمل في الخفاء على بث دعوتها والترويج لأفكارها وإعداد العدة للثورة متى تهيأت أسبابها مع التظاهر بالولاء والطاعة لأولي السلطان اتقاء لبطشهم وانتقامهم . فعلى الشيعي أن يخفي عقيدته ويأخذ بالتقية رعاية لمصلحة جماعته وتغريراً بخصومه . ومن هنا اتجهت بعض طوائف الشيعة إلى كتمان عقائدها وإلى اصطناع ضروب من الرمز والكناية في مؤلفاتها . وقد أثر عن أئمة الشيعة أقوال كثيرة في تأييد التقية واعتبارها من أركان العقيدة وأصلا من أصول الدين (١) .

ومما أدى إليه اضطهاد الشيعة أيضاً اصطباغ أدبهم بصبغة الحزن والتشاؤم والبكاء وكثرة حديثهم عن المحن التي ابتلي بها آل البيت وشيعتهم ، حتى كانت أعياد الشيعة التي يحتفلون بها مآتم ومناسبات لتجديد ذكرى محنتهم ومصارع شهدائهم ، وسأفصل القول في هذه السمة الغالبة على أدب الشيعة حين أتصدى للكلام على خصائص الخطابة الاموية .

هذه هي أبرز عقائد الشيعة الإمامية التي ظهرت في العصر الأموي وقد كان الامام جعفر الصادق الذي عاش في الحقبة الأخيرة من العصر الأموي وصدر العصر العباسي اليد الطولى في تبلور جل المسائل التي يتناولها فقه الشيعة الامامية .

---

(١) في كتاب الكافي للكليني طائفة من هذه الأقوال .

وفي مستهل القرن الثاني للهجرة حدث تطور آخر في العقيدة الشيعية تجلى في ظهور فرقة جديدة هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين الذي ثار على الدولة الأموية وقتل (عام ١٢٢ هـ) ثم ثار بعده ابنه يحيى بخراسان وقتل أيضاً (عام ١٢٥ هـ) ، على مابينت في الفصل السابق .

وتعتبر فرقة الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة وأكثرها اعتدالا وأوفرها حظاً من النظر العقلي ، ونحن نستطيع أن نرد انحراف زيد وأتباعه عن مذهب الإمامية الى تتلمذه لشيخ المعتزلة واصل بن عطاء . وكان زيد حريصاً على التفقه في العلم والوقوف على الاصول والفروع فكان واصل أستاذه في الاصول ، فلما جهر زيد بتعاليمه التي يخالف بها تعاليم الإمامية لم يخف مابها من تأثر بأفكار المعتزلة ، حتى صار أصحاب زيد كلهم معتزلة . وقد روى الشهرستاني أن مناظرة جرت بين زيد وبين أخيه محمد الباقر ، وأن هذا قد أخذ على أخيه اقتباسه العلم عن واصل الذي جوز الخطأ على جده علي في قتاله الناكثين والمارقين ، كما أخذ عليه كلامه في القدر ، شأن المعتزلة ، واشتراطه الخروج في الإمام [1].

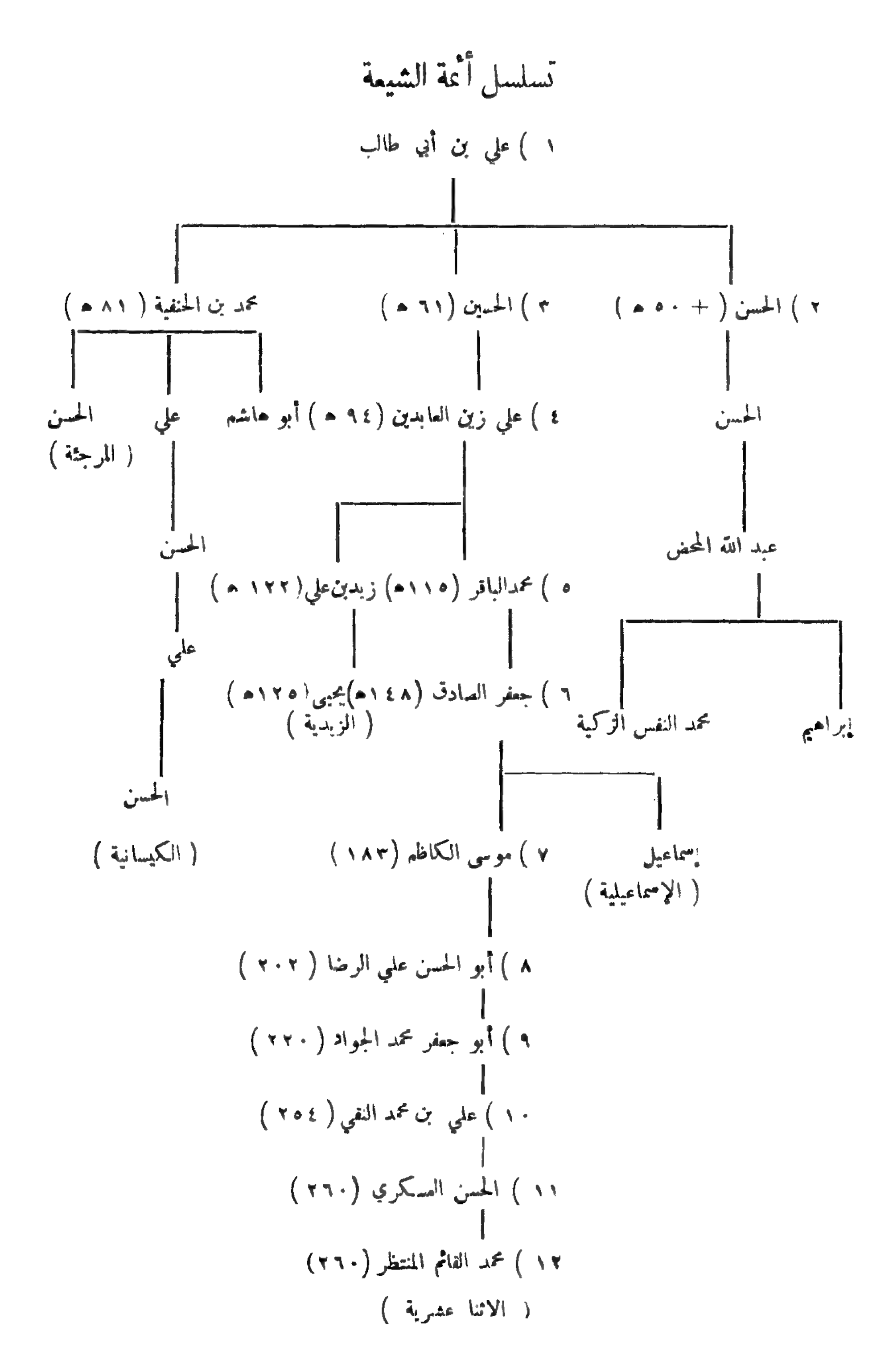
والذي ذهبت اليه عقائد الزيدية أن الإمامة وقف على أولاد فاطمة ، فلا يجيزون إمامة محمد بن الحنفية ، على أنهم لم يحصروها في أولاد الحسين بل قالوا إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يصلح أن يكون إماماً . فالإمامة عند زيد هي الإمامة الايجابية النشيطة المناضلة لا الامامية السلبية المسالمة ، واشتراطه الخروج في الامام هو مادفعه الى الثورة على بني أمية .

ومما فارق به زيد سائر الشيعة قوله بجواز إمامة المفضول مع قيام الافضل ولذلك لم يقف زيد من أبي بكر وعمر موقف غيره من الشيعة فلم يتبرأ منهما ولم يدع الى لعنهما ، ولهذا انفض عنه كثير من الشيعة حين دعا الى الثورة . كما أن الزيدية يخالفون الامامية في عدم قولهم بعصمة الأئمة وفي عدم جنوحهم الى التقية وفي إنكارهم رجعة الأئمة ، ومن هنا يتضح لنا غلبة النزعة العقلية على عقائد الزيدية واعتدال مذهبهم .

---

(١) الملل والنحل ١٣٨/١ .

تسلسل أئمة الشيعة



ولم يؤد إخفاق ثورة زيد وابنه الى انقراض فرقة الزيدية بل على نقيض هذا أتيح لهذه الفرقة أن يشتد أزرها ويكثر أنصارها في العصور التالية وما يزال لهذه الفرقة اليوم أتباع كثر منبثون في أماكن شتى من العالم الاسلامي .

المرجئة

لا تعطينا المصادر التي بين أيدينا صورة واضحة عن نشأة حركة المرجئـــة وتطور مذاهبهم . ولعل مَردّ هذا الغموض الذي يكتنف تاريخ حركتهم إلى فقدان المصادر التي تتحدث عن مذاهبهم وأخبارهم من جهة، ومن جهة أخرى إلى وقوفهم موقفاً محايداً في الغالب من الأحداث التي حفل بها عصر بني أمية . وكذلك كان مذهبهم الديني سلبيًّا لا ينطوي على حلول إيجابية كفيلة بأن تجعل منه مذهباً كلاميًّا يطاول الأيام ، فكانـت حركتهم قليلة الخطر ، قصيرة العمر ، فلم يعن المؤرخون بأخبارهم عنايتهم بأخبار الفرق القوية التي ناضلت سواء في ميادين القتال أو على صعيد الفكر .

وقد يبدو لأول وهلة أن مذهب الإرجاء مذهب ديني صرف لا علاقة له بالسياسة، فإن ما نجده في كتب الفرق عن المرجئة لا يسبغ على حركتهم أي لون سياسي . والواقع أن حركتهم كانت وليدة دوافع سياسية ودينية في آن واحد ، شأن فرقتي الشيعة والخوارج ، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مذهب ديني يبحث في المسائل التي ثار الجدل حولها في ذلك الحين ويحدد موقفه منها .

ونستخلص من إشارات عابرة نجدها في بعض المصادر أنه قد ظهرت حركتان للمرجئة عرفت أولاهما بحركة المرجئة الأولى . من ذلك ما يرويه ابن سعد من أن محارب بن دثار الذي توفي في ولاية خالد القسري كان من المرجئة الأولى الذين كانوا يرجئون عليًّا وعثمان ولا يشهدون بإيمان ولا كفر(١) . ويوضح ابن عساكر أمر هؤلاء المرجئة الأوائل فيقول إنهم الشكاك الذين عادوا من المغازي إثر مقتل عثمان فوجدوا الناس مختلفين والفتنة قائمة ، والقوم بين قائل بأن عثمان قتل مظلوماً

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢١٤ .

وقائل بأن عليًّا أولى بالأمر ، فقال هؤلاء : نحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما[١] .

فالذي يظهر أن المرجئة الأولى إنما قصد بهم هؤلاء الورعون الذين اعتزلوا الفتن التي ثارت بعد مقتل عثمان فلم يشاءوا الانضمام إلى صف علي ولا إلى جانب خصومه لأنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا على وجه اليقين إلى من ينحازون ومن هو المحق من الفريقين ، وهل لعلي يد في قتل عثمان كما يدعي خصومه . ومن ثم نجدهم يتورعون أيضاً عن المشاركة في القتال الذي دار بين علي ومعاوية ، وحين كان علي وأصحابه يدعونهم إلى مشاركتهم في القتال كانوا يستشهدون بأحاديث الرسول عليه السلام تدعو إلى اعتزال القوم إبان الفتنة[٢] . ومن هؤلاء عبد الله بن عمر ، وأبو بَكرة ، وأبو موسى الأشعري ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحارب بن دِثار ، ومُطَرِّف بن عبد الله ، ومُرّة الهمداني . وقد روى ابن سعد لأبي موسى الأشعري خطبة يدعو فيها إلى اعتزال الفتن ويقول فيها : « إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً والقاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : كونوا أحلاس البيوت[٣] » . ولعل هذا يفسر لنا موقف أبي موسى الأشعري من مسألة التحكيم ومحاولته إقناع عمرو بن العاص بخلع كل من علي ومعاوية وجعل الأمر لعبد الله بن عمر . فمن الناحية السياسية كان هؤلاء المرجئة يقفون موقفاً محايداً من الحزبين الشيعي والأموي ، ولكنهم كانوا ربما شاركوا في قتال الخوارج ليقينهم أنهم على ضلال وقد ذكر الجاحظ أن ابن عمر ، وهو زعيم الحلسية ، قد لبس السلاح لقتال نجدة الخارجي[٤] .

على أننا لا نعرف المرجئة الأولى هؤلاء مذهبًا دينياً يعرفون به ، وكل ما أثر

(١) فجر الإسلام ص ٢٧٩ .

(٢) انظر مثلاً ما رواه ابن سعد عن عديسة بنت اهبان بن صيفي ج ٨/٣٥٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ١/٢٢٥ . وأحلاس البيوت أي يلازمونها ولا يبرحونها .

(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٠ .

عنهم إرجاؤهم أمر علي وعثمان إلى الله ليحكم بينهما ، ولهذا — على الأغلب — سموا بالمرجئة . ولكن كلمة مرجئة لم تعد تدل فيما بعد إلا على الذين دانوا بمذهب الإرجاء وهم الذين نتحدث عنهم وعن مذهبهم .

ومن الطريف أن يكون مؤسس الإرجاء ، حين ظهر في صورته الدينية رجلا من أقطاب الحزب الشيعي ، مع ما بين المذهبين من تعارض صريح . فقد روى ابن سعد في أخبار الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب — ومحمد بن علي هو المعروف بابن الحنفية — أنه أول من تكلم بالإرجاء ، وأن ميسرة وزاذان دخلا عليه فلاماه في الكتاب الذي وضعه في الإرجاء ، فقال الحسن لزاذان : « يا أبا عمر ، لوددت أني كنت مت ولم أكتبه[1] » . والحسن هذا توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز . وهذا يدلنا على أن كتباً ألفت في بيان أصول هذا المذهب ، كما يدلنا على أن الموطن الأول لحركة الإرجاء هو الحجاز في حين أن جل الفرق الدينية الأخرى التي ظهرت في هذا العصر كان العراق موطنها الأول . وكذلك ذكر المقريزي أن الحسن هو أول من وضع الإرجاء وتكلم فيه وذكر أن المرجئة صارت بعده أربعة أنواع : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، ومرجئة الصالحية ، وقال إن الحسن كان يكتب كتبه إلى الأمصار يدعو إلى الإرجاء إلا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان . ثم ذكر المقريزي أن ابن قتيبة جعل أول من تكلم بالإرجاء بالبصرة حسان بن بلال المزني[2] .

وقد ظهر القول بالإرجاء حين احتدم النزاع بين الفرق الدينية وأخذ كل منها يكفر مخالفيه ، فوقف المرجئة موقفاً محايداً من جميع الفرق المتنازعة فلم يقولوا بتكفير أحد ولا جزموا بتخطئة فئة أو تصويبها ، بل تركوا أمرهم جميعاً إلى الله .

ثم جرهم موقفهم السياسي المحايد إلى موقف مماثل في المسائل الدينية المختلف عليها ، ولا سيما مسألة ارتباط الإيمان بالعمل . فعلى مذهبهم ليس العمل شرطاً من

---

(١) ابن سعد ٥/٢٤١ .
(٢) الخطط ٢/٣٤٩ .

شرائط الإيمان ، وما الإيمان إلا التصديق القلبي والمعرفة بالله ورسله . وهم بهذا إنما يخالفون الخوارج الذين جعلوا العمل جزءاً من الإيمان ، ومرتكب الكبيرة عندهم ليس كافراً ولا منافقاً وإنما هو مؤمن ، شريطة أن يكون مصدقاً بالله ورسله ، فلا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ومن الوثائق القيمة في إيضاح مذهب الإرجاء قصيدة الشاعر المرجىء ثابت قطنة ، وأنا أثبتها هنا لقيمتها التاريخية والدينية :

يا هنـد فاستمعي لي إنّ سيرتنا	أن نَعبدَ اللهَ لم نُشرِكْ به أحدا
نُرجي الأمور إذا كانت مشبهة	ونصدقُ القولَ فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلّهم ،	والمشركون أشتوا دينَهم قِدَدا[(١)]
ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحـداً	مالناسِ شركاً إذا ماوحدوا الصمدا
لا نسفِك الدم إلا أن يُراد بنـا	سفك الدماء طريقاً واحداً جَددا
من يَتّق الله في الدّنيـا فإنّ له	أجرَ التقي إذا وفّى الحساب غدا
وما قضى اللهُ من أمْرٍ فليسَ له	ردٌ ومايقضِ من شيءٍ يكُنْ رشَدا
كلُّ الخوارج مُخطٍ في مقالتـه	ولو تعبّـد فيما قال واجتهـدا (٢)
أمـا عليّ وعثمانٌ فإنهما	عبـــدان لم يُشركا بالله مذ عَبدا
وكان بينهما شغب وقـد شهـدا	شق العصـا وبعين الله ما شهدا
يُجزى عـليٌّ وعثمانُ بسعيهما	ولست أدري بحَقٍ أيةً وردا
اللهُ يعـلم ماذا يحضُران به	وكل عبد سيلقى اللهَ منفردا[(٣)]

★ ★ ★

وظاهر ما في مذهبهم من ميـل إلى التسامح والتساهل ، ولكن لا ينبغي لنـا أن نفهم من هذا أنهم كانوا يهونون من شأن الطاعات أو يدعون إلى الاستخفاف

---

(١) القدد جمع قدة : الفرقة من الناس أي هوى كل واحد على حدته .

(٢) يريد أن الخوارج مخطئون في تكفيرهم مخالفيهم .

(٣) الأغاني ٤٧١/٤ وخزانة الأدب ١٨٦/٤ .

في أداء الفرائض الدينية ، والمسألة في نظرهم لا تعدو كونها مسألة كلامية صرفاً تتعلق بتحديد مفهوم الإيمان ، وقد عرف أكثر رجال المرجئة بالورع والتقوى وحسبنا أن نجد منهم ، حسبما يذكر الشهرستاني ، الحسن بن محمد ، وطلق بن حبيب ، وعمر ابن ذر ، وسعيد بن جبير[١] . وكلهم من أعلام المحدثين المعروفين بصحة تدينهم ، بل إن الإمام أبا حنيفة نفسه قد عده بعضهم من المرجئة . وقد لاحظ كريمر اتفاقاً بين مذهب الإرجاء وتعاليم يوحنا الدمشقي الذي كان في دمشق في وقت ظهور هذا المذهب[٢] .

ومع ذلك فإن مذهب الإرجاء قد لقي خصومة عنيفة من بعض المتكلمين لأنهم خافوا أن يؤدي قول المرجئة بأن العمل ليس من شروط الإيمان إلى التهوين من شأن العمل والطاعات ، وقد وضع خصوم المرجئة أحاديث على لسان الرسول في ذم الإرجاء كحديث : « لُعنت المرجئة على لسان سبعين نبيًّا . قيل : من المرجئة يا رسول الله . قال الذين يقولون : الإيمان كلام[٣] » . كذلك لقي المرجئة معارضة قوية من الحزب الشيعي ، وقد كانت بين شعراء الفريقين مناظرات ومعارضات لا تخلو من طرافة . والسبب الأول في نقمة الشيعة على المرجئة — على ما يبدو — عدم قولهم بتكفير بني أمية وإرجاؤهم أمرهم إلى الله ، واعتبارهم مؤمنين لا محلين كافرين كما يراهم خصومهم من الشيعة وسواهم ، فاعتبر موقفهم هذا تأييداً سياسيًّا غير مباشر لسلطان بني أمية .

وقد يكون صحيحاً أن مذهب المرجئة كان يؤدي إلى عدم الثورة على بني أمية . بل لعله كان يدعو إلى طاعتهم لأنهم في نظرهم مؤمنون لا يصح الحكم عليهم بالكفر

---

(١) لم أجد في المصادر التي ترجمت لسعيد بن جبير ما يدل على أنه كان من المرجئة وابن سعد لم يشر قط إلى أنه كان على الإرجاء ، بل إن هناك ما يؤيد خصومته للارجاء ، ففي أخبار المرجئ طلق بن حبيب العنزي (ابن سعد ٧ ق ١ / ١٦٥) أن ابن جبير نهى بعضهم عن مجالسة طلق مما يدل على مخالفته للمرجئة .

(٢) الحضارة الإسلامية ص ٦٩ .

(٣) الفرق بين الفرق ١٩٠ .

ولكن أخبار هؤلاء المرجئة تدل بصراحة على أنهم لم يعتبروا أنفسهم أعواناً لبني أمية . وقد ثارت جماعة منهم على بغي الحجاج وجبروته في كتيبة القراء التي قاتلت الحجاج تحت راية ابن الأشعث وجدت فئة من المرجئة كطلق بن حبيب وذر بن عبد الله ، ولم يتورع ذر ، على إرجائه ، عن اتهام الحجاج بالكفر . ثم نجد طائفة من المرجئة يشاركون في ثورة يزيد بن المهلب على بنى أمية . روى الطبري أن رئيساً لطائفة من المرجئة يدعى أبا رؤبة كان مع يزيد بن المهلب ومعه جماعة من أنصاره ، على أنهم أبوا الاستمرار في القتال لأن بني أميـة قبلوا ما عرضوه عليهم من العمل بكتاب الله وسنة نبيه[1] ، فهم إنما يعملون إذن بوحي مبدئهم وعقيدتهم . ومن الجائز أن بني أمية كانوا راضين عن مذهب المرجئة لما فيه من تأييد غير مقصود لسلطانهم ، ولكنهم كانوا لا يترددون عن قمع حركاتهم وإعلان خلافهم لمبادئهم حين كانوا يأنسون منهم ميلا إلى المعارضة أو الثورة . وهذا يفسر موقف بني أمية من الحارث بن سريج التميمي المرجىء حين ثار عليهم بخراسان ، لأسباب قبلية ودينية ، فإنهم قاتلوه بعنف ورموه وجماعته بالشرك والمروق من الدين . ومن قصيدة طويلة لوالي خراسان نصر بن سيار ، خصم الحارث ، نقرأ هذه الأبيات مثلا :

فامنَع جهادَك من لم يرجُ آخرة ... وكُن عدوًّا لقوم لا يُصلُّونا
واقتُل مُواليهَم منّا وناصرهم ... حيناً تكفِّرهم والعَنْهمُ حينا
والعائبين علينـــا دينَنَا وهمُ ... شر العِباد ، إذا خابرتهم دينا
إرجاؤكم لزَّكم والشركَ في قَرَنٍ ... فأنتم أهلُ إشراكٍ ومُرجونا[2]

وإن ثورة الحارث بن سريج لتدل من جهة أخرى على أن المرجئـة لم يكونوا زاهدين في الحكم ، وعلى أنهم لم يكونوا دعاة مذهب ديني فحسب ، وإنما كانوا يصبون أيضاً إلى ما تصبو إليه سائر الأحزاب السياسية من تولي أمور المسلمين وإقامـة حكم

(١) الطبري ٥/٣٤٠
(٢) الطبري ٥/٤٣٣ .

يتمشى ومبادىء دعوتهم. على أن معارضتهم الحربية هـــذه لم تكن شيئاً ذا خطر وكانوا بوجه عام أميل إلى المسالمة والموادعة ، وقد أضفى فان فلوتن على ثورة الحارث ابن سريج وأصحابه لوناً إصلاحيًّا يرمي إلى المساواة بين العرب والموالي الذين اعتنقوا الإسلام ، وفسر ثورتهم بأنها ثورة على المظالم التي كانت تلحق بأولئك الذين اعتنقوا الإسلام من الترك والسند وغيرهم[١] .

وقد يبدو غريباً أن يكون من بين أنصار الحارث بن سريج المرجىء مؤسس فرقة الجبرية جهم بن صفوان. والحق أنه لا تعارض بين مبادىء الارجاء وبين عقائد القدرية أو الجبرية. ولذا وجدت طائفة من المرجئة تعتنق مذهب القدرية كغيلان وطائفـة أخرى تميل إلى رأي الجبرية ويتزعمهم جهم بن صفوان .



(١) السيادة العربية لفان فلوتن ص/٦٤ وما بعدها .

٣

المؤثرات الاجتماعية

لم يكن المؤثرات الاجتماعية من الشأن في حياة الفن الخطابي في عصر بني أمية ما كان للمؤثرات السياسية والدينية ، وذلك ناجم عن خطورة الأحداث السياسية والحركات الدينية التي تمخض عنها عصر بني أمية والتي ملأت على الناس حياتهم واستأثرت بتفكيرهم ونشاطهم واستفرغت مجهودهم . ولكن الخطابة الأموية أفسحت مع ذلك مكاناً للأغراض الاجتماعية التي لا يخلو منها عصر ما . والمؤثرات الاجتماعية منها ما هو اجتماعي صرف ، ومنها ما هو بسبب من السياسة والدين ، وثمة ظواهر لها وجهان أحدهما سياسي والآخر اجتماعي ، كالعصبية القبلية مثلا . وسأعرض في هذا الفصل لناحيتها الاجتماعية بعد أن عرضت لجانبها السياسي في الفصل السابق .

وليس هذا الفصل وقفاً على دراسة الحالة الاجتماعية في عصر بني أمية فلن أقف إلا عند الظواهر والأحداث التي كان لها أثر في ظهور لون من ألوان الخطابة أو بروز سمة من سماتها . فالخطابة — شأنها شأن الشعر — تعكس لنا بصورة صادقة أمينة أحداث العصر الذي يظلها وأحوال المجتمع فيه .

(أ) البيئة الحضرية والبيئة البدوية

من الأمور المجمع عليها أن الشعر الجاهلي الممتاز هو ذاك الذي أنبتته البادية ، وأن فحول شعراء الجاهلية وأجودهم قريضاً هم أولئك الذين لفحتهم شمس الصحراء المتوقدة وسفعتهم رمالها المحرقة . أما البيئات الحضرية فكان ما قيل فيها من الشعر يلي في قيمته الفنية وجودته شعر أهل الشيح والقيصوم وقطان بيوت الشعر والخيام .

وعلى الرغم من تدفق قبائل العرب على المراكز الحضرية في العصر الاسلامي

وظهور عدد وافر من الشعراء فيها ظل الشعراء المترعرعون في البادية يحملون لواء الزعامة الشعرية وظل الشعر المطبوع بطابع البادية يعتبر المثل الأعلى للشعر العربي الممتاز . ذلك أن الصفات التي كان النقاد ومتذوقو الشعر يلتمسونها في الشعر ويعتبرون الشاعر الموفق من عظم حظه منها ، هذه الصفات كانت في ذاتها وليدة البيئة البدوية التي فيها رأى الشعر العربي النور وفيها شب عن الطوق وأصبح يافعاً، فلم يكن بد من أن يتشربها الذوق العربي ويألفها حتى لم يعد يسيغ غيرها .

على أن شأن الخطابة غير شأن الشعر ، فالخطابة ظاهرة اجتماعية وليست ظاهرة فردية كالشعر ، وهي ترتقي وتنمو بارتقاء الحياة الاجتماعية ونموها . وليس من شك في أن الحياة الاجتماعية في البيئة الحضرية كانت في العصر الأموي أخصب وأنشط منها في البيئة البدوية . وقد أصبحت الحواضر في هذا العصر الموجه الأول للحياة العلمية والأدبية والفكرية والسياسية . فكذلك أصبحت الحواضر موطن النشاط الخطابي الخصب والموجه الأول لحياة الفن الخطابي في هذا العصر . ففي هذه المراكز الحضرية نشأ أشهر الخطباء وأفصحهم ، وفي مساجدها وحلقاتها ألقيت أروع الخطب وانعقدت مجالس المناظرة والجدل . فأدى تحضر العرب في هذا العصر واستقرارهم في البيئات المدنية الجديدة إلى ازدهار الحركة الخطابية وكثرة عدد الخطباء وإلى تعدد صور الخطابة وأنواعها .

على أنه كان للحياة الحضرية من جهة أخرى آثار في الخطابة لا تحمد ، ذلك أنها لم تكن البيئة الملائمة لتفتح السلائق الخطابية ولاكتساب المهارة البيانية ، ولاسيما بعد أن امتزج العرب بالأعاجم ذلك الامتزاج القوي الناجم عن حركة الفتح . وقد ظل الخطباء الذين نشأوا في البادية يفضلون خطباء الحواضر في فصاحة العبارة وقوة التركيب وجودة الأداء وسلامة اللغة ، وظلت البيئة البدوية موطن البيان الناصع المشرق البرىء من أوشاب العجمة وهجنة اللحن ، حتى كان من يحرص على سلامة اللغة يضطر أن ينفق جانباً من عمره في البادية ليأخذ عن أبنائها اللغة الناصعة السليمة وليعود لسانه النطق العربي الفصيح . ومما يمثل لنا الفصاحة الفطرية التي طبع عليها

أبناء البادية وفضلهم على أهل الحواضر ما رواه صاحب العقد عن رجل من منقر قال : « تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح لم يسمع الناس كلاماً قبله مثله ، وإذا بأعرابي في بَت[1] ما في رجليه حذاء ، فأجابه بكلام وددت أني مت قبـل أن أسمعه . فلما رأى خالد ما نزل به قال لي : ويحك ؛ كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أو كيف نسابقهم وإنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم . . »[2] .

وأشهر المراكز الحضرية التي ازدهرت فيها الخطابة : الكوفة والبصرة ودمشق ومرو والمدينة ومكة والفسطاط والمراكز الثلاثة الأولى تأتي في الطليعة ، ففيها ألقيت جل الخطب السياسية والدينية والاجتماعية في عصر بني أمية .

(ب) امتزاج العرب بالأمم الأخرى وأثره

أدت الفتوح الاسلامية إلى انضواء أمم كثيرة تحت لواء الحـكم العربي فدانت لسلطان بني أمية شعوب شتى فارسية وتركيـة وبربرية وهندية وغيرها ، وما لبث العرب أن ارتحلوا إلى البلاد المفتوحة واستقروا فيها وأنشأوا لهم فيها حواضر جديدة كانت في الأصل معسكرات لهم كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، وكان لا بد لهم من الاختلاط بسكان البـلاد الأصليين والامتزاج بهم ، وكان لهؤلاء حضارات سابقة وثقافات مزدهرة وديانات قديـمة ونظم سياسية واجتماعية ، ولم يكن بد من أن تتفاعل هذه الحضارات والثقافات جميعها لتتولد عن هذا التفاعل حضارة جديدة هي مزيج من جميع هذه الحضارات التي انصهرت في بوتقة الدولة العربية ، ولم يكن بـد أيضاً من نشوء مجتمع جديد لا هو بالعربي الخالص ولا بالعجمي الخالص وإنما هو خليط من هذا وذاك .

هذا المجتمع الجديد كان قوامـه عنصرين : الأول هو العنصر العربي ، وهو صاحب السيادة ، باعتباره العنصر الغالب ، وهو لذلك يتمتع بامتيازات لا يتمتع بها العنصر الثاني . والعنصر الآخر يضم جميع الامم غير العربيـة التي دانت لسيادة

---

(١) البت : كساء غليظ .

(٢) العقد الفريد ٣/٥١٧ .

العرب ، وهؤلاء منهم من احتفظ بديانته الأصلية ، نصرانياً كان أو يهودياً أو مجوسياً وقد أطلق عليهم لفظ « أهل الذمة » ، ومنهم من اعتنق الاسلام وهم الذين عرفوا بـ « الموالي » . وقد أباح الاسلام لأهالي البلاد المفتوحة ، من غير العرب ، أن يظلوا على ديانتهم على أن يؤدوا لحكامهم العرب الجزية لقاء قيامهم بحمايتهم والدفاع عنهم ، فهم في ذمة المسلمين وتحت حمايتهم . ومن أبى دفع الجزية عرض عليه الدخول في الاسلام فيكون حكمه حكم سائر المسلمين ، وإذا هاجر مع المسلمين وقاتل في صفوفهم أصابه ما أصابهم من الغنائم والفيء ، ومن أبى اعتناق الاسلام ورفض أداء الجزية قوتل . وفي هذه الحالة إذا وقع أسيراً ضرب عليه الرق ، وكذلك كان حكم سكان البلاد المفتوحة عنوة فإنهم يصيرون إلى الرق إلا إذا شاء الفاتحون إعفاءهم منه وفرض الجزية عليهم .

ولفظ الموالي في اصطلاح المؤرخين يقصد به كل من اعتنق الإسلام من غير العرب ، وهم على ضربين : رقيق أعتقه مالكه ، وحينئذ تبقى بين المولى وبين معتقه صلة « الولاء » . والضرب الثاني من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ثم دخل في ولاء إحدى قبائل العرب فيكون حليفاً لها ، وهي تتولى الدفاع عنه وحمايته .

كثر عدد هؤلاء الموالي كثرة هائلة في العصر الأموي نتيجة لاتساع نطاق الفتوح الإسلامية ودخول كثير من سكان البلاد المفتوحة في الاسلام ، وكان العنصر البارز منهم هو العنصر الفارسي ، وانتشرت هذه العناصر غير العربية في جميع الأمصار الاسلامية بل وفي البيئات البدوية أيضاً ، إذ كان موالي القبيلة وأرقاؤها يعيشون بين ظهرانيها . وإذ كان العرب يأنفون بطبيعتهم من مزاولة المهن والصناعات وكانوا يعتبرون الحرب مهنتهم الأولى فقد تولى الأعاجم هذه الأعمال فعمرت بهم الأمصار ونشطت الصناعة والتجارة واستثمرت الأراضي الزراعية . وقد كان لهؤلاء الأعاجم حضارات وثقافات سابقة فلما اعتنقوا الاسلام ساروا على المناهج التي ألفوها وفهموا العقيدة الجديدة فهماً يلائم عقليتهم وحضارتهم وأشاعوا في المجتمع الجديد عاداتهم التي ألفوها من قبل .

ولشعورهم باحتقار العرب لهم حاولوا أن ينالوا رفعة المنزلة من طريق العلم والمعرفة وسرعان مانبغ منهم علماء مشهورون في شتى ضروب العلم ولم ينقض وقت قصير حتى كان جل علماء المسلمين منهم وكان لهم أعظم الأثر في نشأة علم الكلام وظهور بعض الفرق الدينية .

اختلط العرب بالموالى اختلاطاً قوياً كان له نتائج شتى ليس من شأننا أن نتقصاها هنا ، وحسبنا أن نتعرف إلى أثر هذا الامتزاج في اللغة والادب . ومدى تأثر الخطابة ، من قريب أو من بعيد ، بحركة المزج هذه .

وأول ما نتبينه أن لغة التفاهم في هذه المجتمعات الخليطة لم تعد تلك اللغة العربية السليمة المعربة التي كانت تجري على ألسن العرب يوم كانوا يتوسدون رمال الجزيرة العربية ، فقد أفسد هذا الاختلاط السلائق اللغوية وأدى إلى نشوء لغة جديدة لاتلتزم فيها حركات الاعراب التزاماً صارماً ولا تراعى فيها قواعد التصريف وأصول التركيب العربي مراعاة دقيقة . وفي هذه اللغة لحن كثير وكلمات أعجمية وفرة . وكان لامفر من أن يتسرب هذا اللحن إلى اللغة الفصيحة نفسها ، لغة الشعر والنثر الأدبي التي كانت تجري على ألسن المتحضرين من الأدباء ، في حين ظلت لغة أهل البادية بمعزل ، نسبياً ، عن هذا الوباء الذي أصاب ألسن أهل الحضر فانحرف بها عن صورة المنطق السليم ذلك الانحراف المقيت . وحتى من عرفوا بالفصاحة والبلاغة في هذا العصر لم ينجوا من هجنة اللحن ، فعلى الرغم ، من شهادة رؤبة وأبي عمرو بن العلاء للحجاج والحسن البصري بالفصاحة بالقياس إلى أهل القرى ، أخذ عليهما ، فيما يذكرون ، بعض اللحن حتى في قراءة القرآن . فزعموا أن الحسن لحن في مواضع من القرآن كقوله : ماتنزّلت به الشياطون ، وزعموا أن الحجاج كان يقرأ : إنا من المجرمون منتقمون(١) . وأنكر عليه أحد الأعراب ضمه اللام من « لص » (٢) ، وكان الحجاج مع ذلك حريصاً على توقي اللحن في كلامه ،

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٠٤ .

وقد غضب حين صارحه يحيي بن يعمر بما يقع فيه من اللحن وتوعده بالقتل إن لم يرتحل عنه (١) . وممن عرف باللحن من أئمة الفصاحة في عصر بني أمية : خالد ابن صفوان ، وخالد بن عبد القسري ، وعبيد الله بن زياد (٢) . وحين أوفد زياد ابنه عبيد الله إلى معاوية وسمع كلامه كتب إلى أبيه أن يقوم لسانه . وقد علل الجاحظ لحن ابن زياد بأنه نشأ مع أمه مرجانة بالأساورة (٣) . وممن عرف باللحن من العلماء الامام أبو حنيفة (٤) .

ولم ينتشر اللحن في المدن والحواضر فحسب بل تسرب إلى البادية مع الموالي والإماء الذين احتضنتهم القبائل البدوية ، وقد حاول بعضهم تحديد مبدأ انتشار اللحن فزعموا أن أول لحن سمع بالبادية قولهم : هذه عصاتي ، كما أن أول لحن سمع بالعراق قولهم : حيِّ على الفلاح ، بكسر الياء (٥) . وقد روي أن أم نوح وبلال ابني جرير الشاعر كانت أعجمية ، فكانت إذا تكلمت لحنت وتصرفت بالكلمات تصرفاً يبعث على الضحك (٦) .

ومن المحقق أن القرآن الكريم قد حال دون شيوع اللحن على نطاق واسع وأعان على احتفاظ اللغة العربية بكثير من روائها وقوتها كما حمل المتدينين من الموالي على إتقان اللغة العربية . ولولاه لانتشر اللحن انتشاراً أوسع مدى ولما أتيح للغة العربية هذا الانتشار السريع القوي في الأقطار المفتوحة .

ولم يخف خلفاء بني أمية — وهم عرب متعصبون لعروبتهم ولغتهم — استياءهم من شيوع اللحن وفساد الألسن ، وقد وصف عبد الملك اللحن بأنه هجنة على الشريف ورآه أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه (٧) . وكان يحز في

(١) الكامل للمبرد ١/١٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٠ .
(٣) الأساورة قوم من الفرس كانوا ينزلون البصرة ومثلهم الأحامرة بالكوفة .
(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٢ .
(٥) المصدر السابق ٢/٢١٩ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٢١٣ .
(٧) العقد الفريد ٢/٤٧٨ .

نفسه ما عرف به ولداه الوليد ومحمد من اللحن وكان يقول : أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية[١] .

وقد حرص خلفاء بني أمية على توجيه أبنائهم إلى البادية ليلقفوا عن أهلها فصاحة اللسان وصحة الأداء وسلامة التعبير ، وهذا ينبئنا بمدى ما أصاب لغة أهل الحضر من الفساد والالتواء في هذا العصر . وكان الشعراء الذين أتيح لهم أن ينشأوا في البادية أفصح لغة وأقوى أداء من شعراء الحضر ، وعلى أن بشاراً كان من الموالي فإن إقامته في البادية ومشافهته الأعراب الخلص كان لهما أعظم الأثر في فصاحة لغته وجزالة أسلوبه وجريه على أساليب العرب في شعره مما أتاح له أن يتحدى بعض شعراء الرجز ، وهم أكثر الشعراء إغراقاً في البداوة[٢] .

وقد تجلى اللحن في صور متعددة منها الخطأ في حركات الاعراب ، وهو أكثرها شيوعاً ، كالذي أثر عن الوليد بن عبد الملك من قوله لأبيه : يا أمير المؤمنين ، قُتل أبي فديك[٣] . ومنها الخطأ الصرفي ، واستعمال الألفاظ في غير مواضعها . ومن مظاهر اللحن شيوع بعض الألفاظ الأعجمية مكان ألفاظ عربية تقابلها في الدلالة ، روى الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيها ناس من الفرس علقوا بطائفة من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ : الخِربز ، والسميط : الرزدق ، وكذلك أهل الكوفة يسمون المسحاة : بال ، وهي فارسية[٤] . وكذلك من مظاهر اللحن إبدال الحروف بعضها من بعض ، وذلك لأن الأعاجم لا يقدرون على نطق جميع الأحرف العربية فربما أبدلوا الحاء هاء كقول غلام لزياد : أهدوا لنا همار وهش ، يريد حمار وحش[٥] . وقد ظهرت هذه اللكنة في لغة عبيد الله بن زياد لما ذكرناه

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .
(٢) الأغاني ٣/١٧٤ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٠٤ .
(٤) المصدر السابق ١/١٩ .
(٥) البيان والتبيين ١/٧٣ .

من نشأته بالأساورة فروي عنه قوله لبعض الخوارج : أهروري هذا اليوم[١] .

وفي البيان والتبيين كلام كثير عن إبدال الحروف وعمن عرف به من الشعراء والبلغاء وغيرهم في العصر الأموي كزياد الأعجم وأبي مسلم الخراساني وغيرهما[٢] .

على أن اختلاط العرب بالأعاجم كانت له آثار أخرى غير انتشار اللحن وفساد اللغة . فقد حمل هؤلاء الأعاجم معهم أنماطاً جديدة في التفكير والنظر العقلي والجدل تجلى أثرها في الجدل الخطابي الذي ظهر في هذا العصر ، كما أن الخطابة الدينية أفادت من هؤلاء الموالي فائدة لا تنكر ، وقد لاحظنا قبل أن جل رؤساء المذاهب الكلامية ومتكلميها كانوا من الموالي .

(ح) العصبيات والمفاخرات

كانت التعاليم الاسلامية تهدف إلى إقامة مجتمع مثالي تظله روح التفاهم والمساواة والمحبة المتبادلة والرغبة في التعاون المثمر بين أفراد المجتمع . ولكن هذه الروح الاجتماعية المثالية لم تكد ترى النور حتى توارت وهي بعد غضة طرية العود . ولم تستطع العقيدة الجديدة أن تصقل نفوس معتنقيها جميعاً صقلا جديداً يستجيب لروح الدعوة الاسلامية ، فسرعان ماهدرت في دماء كثير من العرب نزعاتهم الجاهلية التي كانت الأحداث والأيام تزيدها رسوخاً وتأصلا ، وخلعت الروح القبلية قناعها الذي كان يخفي ملامحها إبان الحقبة الأولى من العصر الاسلامي ، وسفرت عن وجهها ليعود العرب سيرتهم الأولى من التفاخر بالانساب والتنابز بالألقاب والتنافس على الشرف والرياسة . وكان لا مفر من أن يستتبع ظهور العصبيات قيام الحروب والفتن القبلية التي كان لها ما كان من شأن خطير في ميزان الأحداث السياسية التي تمخض عنها العصر الأموي ، وقد أوجزنا الحديث في فصل سابق عن أبرز هذه الفتن القبلية .

وعلينا الآن أن ننظر مرة أخرى في هذه العصبيات على أنها ظاهرة اجتماعية خطيرة ، بل لعلها أخطر الظواهر الاجتماعية في العصر الأموي على الإطلاق ، وزاد في

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١٦١ .

(٢) البيان والتبيين ١/٧٠ وما بعدها .

خطورتها تجاور القبائل المتعادية في البلد الواحد ، واتصال أحيائهـا بعضها ببعض ، وكثرة المناسبات الداعية إلى وقوع الاختلاف بينها .

ولما هاجرت القبائل العربية من مواطنها إلى الأمصار واستقرت في الحواضر ظهرت عصبية أخرى جديدة هي عصبية أهل كل مصر لبلدهم . ويبدو أن العرب قد تشربت نفوسهم حب التعصب حتى بات كل افتراق بينهم على نحو ما يؤدي إلى عصبية تساوقه ، فأهل البادية يتعصبون لباديتهم وأهل الحضر لحواضرهم وأهـل الأمصار يتعصب كل منهم لمصره ، فـإذا ظهر في بلد مـا مذهب ديني أو لغـوي أو أدبي وجدنا أهله يتعصبون له أيضاً .

ثم كان من نتيجة الفتوح العربية واختلاط العرب بالأمم الأخرى أن شعر العرب بالآصرة التي تربط قبائلهم جميعاً وتوحد بينهم ، آصرة القوميـــة ، فنظروا إلى الأمم الأخرى نظرة السيد إلى المسود وتعصبوا لعروبتهم واحتقروا الموالي . واضطر هؤلاء الموالي أن يقابلوا عصبية العرب لقوميتهم بعصبية قوميـة مثلها وظهرت بوادر الحركة الشعوبية التي استفحل أمرها واشتد ساعدها في عصر بني العباس .

فإذا وجدنا بعد هذا أن المجتمع في العصر الأموي كان مجتمعاً لا تسوده روح الألفة والتـآخي ولا الشعور بالمساواة بـين طبقاته وهو لهـذا مجتمع غير منسجم ولا متآلف ، فعلى عاتق هذه العصبيات أولاً تقع تبعة هـذا الاضطراب الاجتماعي ، فقد كانت في طليعة العوامل التي أدت إلى فصم عرى الأواصر الاجتماعية وتقطيع الوشائج التي كان ينبغي أن تؤلف ما بين أفراد المجتمع الواحد ، كذلك كانت هذه من الناحية السياسية ، أمضى المعاول التي قوضت صرح الدولة الأموية .

★ ★ ★

كان نطاق العصبيات القبلية في العصر الأموي يتسع تارة ويضيق أخرى ، وهي في نطاقها الواسع قسمت العرب قسمين كبيرين : العدنانيين والقحطانيين ، وضمن هذين الإطارين الواسعـين كانت تصطرع عصبيـات أضيق نطاقاً ، ولا سيا داخل الفرع العدناني . وفي مناسبات شتى كانت تنفصل بعض القبائل من أحد المعسكرين الكبيرين

لتنضم إلى المعسكر الآخر ، كالذي حدث في فتن البصرة وخراسان إذ كانت ربيعة تنحاز في الغالب إلى جانب اليمن . وكانت الفتن والمنازعات التي تثور بسبب هذه العصبيات متصلة طوال عصر بني أمية ، شبيهة بخلية نحل دائبة الحركة . وعلى الرغم من أن المنازعات السياسية والخلافات الدينية قد استطاعت في أحيان كثيرة تحطيم الوحدة القبلية حتى كانت الوقائع تجري أحياناً بين قبيلة واحدة شطرتها الأهواء السياسية إلى فريقين متنازعين[1] على الرغم من هذا نجد أن الروح القبلية كانت هي السائدة في العصر الأموي وهي التي أعطت حكم بني أمية طابعاً قبليًّا سافراً ، ولم تنظر أكثر القبائل العربية إلى بني أمية إلا من الوجهة القبلية ، فقد رأت فيهم قبيلة قوية أتيحت لها السيادة على سائر القبائل العربية . ومثل هذه النظرة لم يكد يبقى لها أثر في عصر الدولة العباسية .

وكانت العصبية القبلية هي الدافع الأول لأكثر الأحداث التي ظهرت في عصر بني أمية ، وربما ارتدت أحياناً ثوباً سياسياً أو دينياً ، فحركة الخوارج مثلاً هي إلى حد كبير تعبير غير مباشر عن سخط القبائل العربية على قبيلة قريش المستأثرة بالحكم والسلطان . والنزاع بين علي ومعاوية إنما هو حلقة في سلسلة من المنازعات قامت منذ العصر الجاهلي بين الأسرتين الهاشمية والأموية ولم تنته إلا بانتصار البيت الهاشمي نهائياً بقيام الدولة العباسية . وثورة الرعية على الوليد بن يزيد لم يكن الدافع اليها ما عرف به من مجون وتهتك فحسب بل كان الحافز الأول لها نقمة اليمانية على الوليد ، وما قتله هؤلاء إلا بدافع العصبية . وقد رد ولهوزن جل الأحداث السياسية في عصر بني أمية إلى الخصومات القبلية .

ولا أجد في تصوير عنف الشعور القبلي وسيطرته على نفوس العرب أصدق من كلمة عبد الله بن خازم « إنّ ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ بعث الله النبي ﷺ

(١) مثال ذلك ما جاء في الكامل للمبرد ٢/٢٢٥ .

من مضر[١] » . وبلغ من حدة هذا الشعور أن رجلا من الأزد كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه ويأبى أن يدعو لأمه لأنها تميمية ، ومدح شاعر أسدي رجلاً يمانياً فافتداه بأهل اليمن قاطبة ولم يفتده بمضر لأن نفسه لم تطب أن يفتديه بعشيرته [٢] .

وكان الشعور القبلي يطغى أحياناً على الشعور الديني حتى عند الخوارج المعروفين بصدق تدينهم ، روى الطبري أن الازارقة لما قتلوا مقاتل بن مسمع ، وكان قد وجه لقتالهم ، أخذوا امرأته وأقاموها فيمن يزيد ، فغار أحد رؤوس الخوارج من عشيرتها وقتلها حمية وغيرة [٣] .

وكان مما زاد في حدة المنازعات القبلية الخصومات السياسية وضخامة الثروات المادية التي كان يجنيها ذوو النفوذ والسلطان ، فالنزاع بين قبائل خراسان كان من أقوى دواعيه الطمع في احتياز ما يجبى من الخراج والجزية ، وكذلك زاد في حدتها سياسة بعض الولاة المتحيزين لقبائلهم كأسد بن عبد الله مثلا . وسبب آخر هو عدم المزج بين القبائل التي هاجرت إلى الأمصار ، ومراعاة التوزيع القبلي سواء في الأمصار المنشأة ، أو في الأقاليم المفتوحة التي استوطنها العرب كخراسان .

وكان من جراء هذا التجاور في السكنى بين قبائل تأصل فيها الروح القبلي العدواني منذ أقدم العصور أن كان أدنى احتكاك بينها يؤدي إلى اشتعال نار حرب قبلية ضارية ، وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن الفتن التي كانت تثور بين قبائل الكوفة بسبب هذا التجاور [٤] .

وقد ظهرت هذه العصبية القبلية العنيفة عند بعض شعراء المذاهب الدينية ، فكان الكميت ، على تشيعه ، شديد التعصب لعدنان ، وكان الطرماح ، على خارجيته ،

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٢٤ .
(٢) الكامل للمبرد ١/١٩٨ .
(٣) الطبري ٥/١٦ .
(٤) شرح نهج البلاغة ٣/٢٣٩ .

شديد التعصب لقحطان (١) . وقد لعب الشعراء دوراً خطيراً في إغراء القبائل بعضها ببعض وتأريث نار العصبية القبلية .

ظهرت هذه الروح القبلية في العصر الأموي وقوي خطرها وعادت معها إلى الظهور تلك الروح الجاهلية القديمة التي حاربها الإسلام وسعى في القضاء عليها : روح التنابز بالألقاب والتفاخر بالأنساب والأحساب والاعتداد بمكارم الآباء ومآثر الأجداد . وكان مما يدعو إلى كثرة هذه المفاخرات أن تحظى قبيلة ما بنفوذ سياسي أو مغانم مادية وافرة أو مركز اجتماعي رفيع فتنظر إلى القبائل الأخرى نظرة ترفع واستعلاء تثير عليها حفيظة هذه القبائل فتتحداها وتفاخرها . وكثيراً ما كانت وفود القبائل تلتقي في مجالس الخلفاء والولاة فيقوم خطباؤها وشعراؤها فيفخر كل بقبيلته ويعدد مآثرها . وقد امتلأت كتب الأدب والتاريخ بأخبار هذه المفاخرات ، بل قد ألفت فيها كتب مستقلة ، وابن أبي الحديد يروي كثيراً منها نقلا عن كتاب في المفاخرات صنفه الزبير بن بكار (٢) ، وعلى الرغم من أن بعض المفاخرات كان يحمل في ظاهره طابعاً شخصياً ، أو قبلياً كالمفاخرات التي قامت بين ابن عباس وابن الزبير ، أو بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص ، أو بين ابن عباس ومعاوية ، فإننا نستطيع بيسر استشفاف ما يستتر وراءها من دوافع سياسية وخصومات حزبية ، وأشهر ما خلفه لنا العصر الأموي من هذه المفاخرات ما جرى منها بين بني أمية وبني هاشم ، وفي عهد معاوية خاصة . وقد كان هذان الفرعان الباسقان من فروع الدوحة القرشية يتنازعان الشرف والرئاسة وموارد الثروة منذ العصر الجاهلي ، وكان ظهور النبوة في أحد أبناء البيت الهاشمي مثار غيظ الفرع الأموي واستيائه ، فلما ولي عثمان اشرأب بنو أمية بأعناقهم وافترت ثغورهم عن ابتسامة نصر سرعان

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٦ .

(٢) نجد أخبار هذه المفاخرات في كتاب المقريزي « النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم » وفي شرح نهج البلاغة ٢/١٠١ وما بعدها و ٣/٤٨٩ وما بعدها في العقد الفريد ٣/ ٢٣ وما بعدها .

ما بددها مقتل عثمان وتولي علي الأمر . ثم لما آل الأمر إليهم أخيراً بعد صراع عنيف وتربع معاوية على كرسي الحكم اعتدوا هذا انتصاراً مظفراً لهم على بني هاشم ومفخرة تضاف إلى سلسلة مفاخرهم عليهم . وكانوا ينتهزون كل سانحة إبان حكمهم لتحدي الهاشميين ومفاخرتهم ، فلما أديل منهم للعباسيين كان هذا خاتمة الصراع بين الأسرتين ولم يتح الأمويين بعدئذ منازعة الهاشميين إلا في الأندلس .



القسم الثاني

الخطابة السياسية في عصر بني أمية

١

(١) ازدهار الخطابة السياسية في عصر بني أمية

أصابت الخطابة السياسية في عصر بني أمية حظاً بعيداً من الازدهـار والرقي واتبعت فيه خطاً صاعداً سواء في ناحية الكم أو في ناحية الكيف ، فكان عصر بني أمية لذلك العصر الذهبي للخطابة السياسية . وعلى الرغم من أن بواكير الخطابة السياسية قد وجدت منذ صدر الإسلام فإن براعمها لم تتفتح وأغصانهـا لم تورق إلا في العصر الأموي ، حتى ليمكن القول إن الخطابة السياسية فن أموي خالص ، ففي هذا العصر اكتملت لها أسباب النماء والازدهار والنضج حتى غدت فناً أدبيـاً راقياً يتحدى سائر الفنون الأدبية التي أظلها عصر الدولة الأموية .

اما دواعي هذا الازدهار فنوجزها فيما يلي :

١ ــ من المقرر أن الخطابة السياسية تنشط وتزدهر في البيئات التي لايتوافر فيها الاستقرار السياسي ، ذلك لأنها فن يتجه إلى مخاطبة الجماعات وإثارة مشاعر الجماهير وتحريك عواطفهم . فإن كانت أحوال البـلاد مستقرة وكان الناس راضين عن الحكومة التي تسوسهم والسلطة التي تتولى أمورهم فما حاجة القوم إلى الخطابة وفيم يتحدث الخطباء . أما حين تضطرب أحوال البلاد الداخلية ويسود التذمر والسخط على السلطان القائم لسوء سياسته فحينئذ تظهر المعارضة لهـذا السلطان وتكثر الفـتن والثورات ، ويقوم الخطباء فيحرضون القوم على الثورة ، داعين إلى حـكم أفضل وسياسة أقوم ، فتنشط الخطابة السياسية وتزدهر ويكثر الخطباء .

ولقد كانت الحالة السياسية في عصر الأمويين أبعد ما تكون عن الهدوء والاستقرار على نحو ما بينّا في فصل المؤثرات السياسية ، وطوال مدة حكمهم التي تناهز قرناً من الزمان لم تهدأ حركة المعارضة لحـكمهم : لسانية تارة وحربيـة تارة أخرى ،

فكان عهدهم حافلا بالأحداث الداخلية والفتن والثورات . والسبب الأول لظهور حركة المعارضة للحكم الأموي هو شيوع السخط والنقمة على سياسة بنى أمية وعمالهم ، أما مبعث هذا السخط لدى معارضي بني أمية فأمور شتى : جور في الأحكام ، وتعطيل للحدود ، وخروج عن أحكام الدين ، واحتجان للفيء ولأموال المسلمين واستئثار بالنفوذ والسلطان ، وإيثار المقربين والأنصار بالهبات ، وانتهاك لحرمة الأماكن المقدسة ، واغتصاب الحقوق من أصحابها ، إلى غير ذلك . وإن شئت أن تقف على جانب مما أخذه الساخطون على الحكام الأمويين فارجع مثلا إلى خطبة أبي حمزة الشاري التي قالها يوم دخل المدينة فإنك واجد فيها كثيراً من أسباب هذا السخط: « سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم : والله ما فيهم الذي يعدل ، أخذوا المال من غير حلّه فوضعوه في غير حقّه ، وجارُوا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفيئنا فجعلوه دولةً بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء .. إلخ [(١)] » ولولا هذا السخط لما ظهرت هذه الخطب السياسية المنيفة التي قالها الخطباء المعارضون للحكم الأموي ، ولما وجدت تبعاً لذلك خطب المؤيدين لبني أمية ، المناضلين عن سياستهم وحكمهم . ولم يكن ثمة وسيلة لنقد بني أمية وإعلان السخط على حكمهم أقوى من الخطابة وأبعد أثراً في النفوس منها ، إذ كان شأنها يومذاك شأن الصحافة في عصرنا : تعكس مشاعر الجماهير وتعبر عن الرأي العام في المجتمع ، فكذلك كانت الخطابة يومئذ الوسيلة المثلى لنقد الحاكمين وللتعبير عن السخط الجماعي وإثارة مشاعر الجماهير على من بيدهم السلطان .

على ان وفرة الفتن والأحداث الداخلية في عصر بنى أمية كان لها دوافع أخرى غير شيوع السخط على السلطان القائم ، ومن هذه الدوافع النزعة الفردية المتأصلة في نفس العربي ، وهي لاتساعد على الاستقرار السياسي واستتباب النظام وتنافي الخضوع المطلق لذوي السلطان ، فكل شريف مسود في قومه كان يرى نفسه أهلا لمنصب الخلافة أو الإمارة ، وهو لذلك ينتهز الفرص المواتية للثورة وإعلان

---

(١) العقد الفريد ١٤٦/٤ .

خلافه على القائمين بالأمر . وقد صور ابن خلدون نفسية العرب الصعبة الانقياد وخلص من ذلك إلى أن العرب بسبب هذه النزعة لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية : « والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فإن كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم[١] » .

ومن هذه الدوافع أيضاً النزاع على تولي الخلافة ، في سبيل الظفر بها انقسم المسلمون أحزاباً وفرقاً شتى كل منها يدعي أنه أولى من غيره بتولي أمور المسلمين . واحتدم الصراع بين هذه الأحزاب فكثرت الفتن والثورات والحروب الداخلية ، وكان الخطباء في طليعة مؤرثي هذه الفتن وموقدي نارها .

يضاف إلى هذه الدوافع كلها العصبية القبلية العنيفة التي عرف بها العرب والتي حدثت بسببها فتن قبلية لم تهدأ ثائرتها طوال عصر بني أمية .

هذه المنازعات والثورات والأحداث الداخلية تمخضت عنها حركة خطابية نشيطة وظهر بسببها عدد وفر من الخطباء ، وكان لكل من الفرق والقبائل المتنازعة خطباؤه الناطقون بلسانه .

٣ ــ ثم كانت وفرة الفتوح والمغازي سبباً آخر لازدهار الحركة الخطابيـة في هذا العصر ، وإن كلمة بليغة تلمس من نفس العربي موطن الحميـة والاباء لخليقة بأن تدفعه إلى خوض غمرات القتال واقتحام صفوف العدو غير هياب ينشد الظفر أو لقاء المنية . وهذه الاستجابة السريعة في نفس العربي لبليغ القول تفسر سبب اعتماد قادة الجيوش إبان الفتوح العربية على الخطباء والقصاص ، وتقفنا من ناحيـة أخرى على المنزلة الخطيرة التي احتلتها الخطابة في العصر الأموي .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥١ (التجارية) .

٣ — وثمة سبب ثالث لازدهار الخطابة السياسية متصل بالنظام السياسي الذي ساد في هذا العصر . فقد انتقل العرب من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحياة المتحضرة ، وكانوا قبائل متفرقة لا تخضع لقانون يوحد بينها فأصبحوا يخضعون كلهم لدولة واحدة ذات أوضاع سياسية منظمة ونظم إدارية مستقرة . ولم يكن بد في ظـــل هذا التنظيم السياسي من أن يتصل الحاكم برعيته ليطلعها على الخطـة التي سيسلكهـا أو ليوجهها ويرشدها ، أو ليسترشد برأيها في الخطوب والملمات . وكانت الخطابة عصرئذ أفضل وسيلة لاتصال الراعي برعيته والحاكم بالمحكومين ، فكان هـذا من دواعي كثرة الخطب السياسية وازدهارها .

٤ — وكان من عوامل ازدهارها أيضاً أن دعاة الأحزاب السياسية اتخذوها أداة لنشر الدعوة لأحزابهم واستمالة الأنصار إليهم ، وكان خطباء كل حزب يعرضون بواسطتها مبادىء حزبهم ونظراته السياسية وينقدون الأحزاب الأخرى ويعددون المآخذ عليها ، وربما عقدت مجالس للمناظرة بين الأحزاب السياسية يتبارى فيها الخطباء في الدفاع عن أحزابهم ونصرتها . وعلى الجملة كانت الخطابة السياسية تؤدي المهمة التي تتولاها اليوم الصحافة السياسية في نصرة الأحزاب السياسية والدعوة لها .

وقد كان قيام هـذه الأحزاب نفسها في عصر بني أمية من بواعث ازدهـار الخطابة السياسية فيه . ذلك أن الخطابة لكي تزدهر ، تفتقر إلى مايسميه علمـاء الاجتماع « الجماعة النفسية » ، وهي الجماعة ذات الروح المشتركة . ولا يكفي أن يجتمع عدد كبير من الناس لتكون لهم صفة الجماعة النفسية بل ثمة شروط لابد من توافرها لتكوين هذه الجماعة . والأحزاب السياسية هي ضرب من ضروب هـذه الجماعات النفسية ، وقد انتهى الباحثون إلى أن الأفراد يختلف تفكيرهم وروحهم حين يكونون جماعة منتظمة ، وهذه الروح المشتركة للجماعة هي التي تمهد السبيل أمام الدعاة والموجهين للتأثير في الجماهير واستمالتها إلى الفكرة أو الدعوة التي يعملون من أجلها . يقول غوستاف لوبون في كتابه « روح الجماعات » : « إن أبرز أمر

في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تتألف منهم ، مهما كانوا ومهما تماثلوا أو اختلفوا في طراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم ، إذا ماتحولوا إلى جماعة منحتهم هذه الجماعة ضرباً من الروح الجامعة . وهذه الروح تجعلهم يشعرون ويفكرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد . ومن الأفكار والمشاعر ما لا يظهر أو يتحول إلى أعمال إلا لدى الأفراد في الجماعة (١) » .

★ ★ ★

ومن المقرر أن الخطابة السياسية تزدهر في ظل النظم التي تبيح حرية الفكر والقول ، إذ أنها تتيح للخطيب أن يدلي برأيـــه بحرية وصراحة وتشعر الفرد بحقوقه وكرامته . والخطابة اليونانية إنما أصابت حظها الأوفى من الازدهار في الأطوار التي أبيحت فيها حرية الفكر ، ولاسيما في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد اللذين ظهر فيهما أبرع خطباء الإغريق وفي طليعتهم بريكليس Périclès وديموستـــين Démosthène . فهل توافرت حرية الفكر والقول هذه في العصر الأموي وهل كانت سبباً من أسباب ازدهار الخطابة السياسية فيه . الواقع أن الروح الديموقراطية التي كانت سائدة في عصر الراشدين قد توارت في العصر الأموي لتحل محلها إرادة فردية مطلقة لايرضيها أن يجهر لسان بمعارضتها ، ولم تكن حرية القول متاحة إلا لمن مشوا في ركاب أرباب السلطان ، أما من سولت له نفسه أن يجهر بالنقد والمعارضة فليس له إلا السيف ، وها هو ذا عبد الملك يقول من خطبة له : فإيّاي من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فإنما بيني وبينكم أن أسمع النغوة فأصمم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحنِقِ الموتور . وإنما هي المصافحةُ والمكافحة بظُبات السيوف وأسنة الرماح (٢) » .

---

(١) روح الجماعات لجوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ص ٣٠ .
(٢) صبح الأعشى ٢١٨/١ ، المطرور : المشحوذ .

ولعل هذا مايفسر لنا قلة خطب المعارضين للحكم الأموي بالقياس إلى خطب المؤيدين . ولو أن حرية القول والنقد كانت متاحة للجميع لامتلأت الكتب بخطب الخطباء من حملة لواء المعارضة . فالحرية السياسية في عصر بني أمية لم تكن متاحة إلا للخطابة المؤيدة للحكم الأموي وسلطان بني أمية .

٥ — وثمة أسباب تفسر لنا ما حظيت به الخطابة الأموية عامة في هذا العصر من رقي في الناحية الفنية .

(ا) فالخطابة في هذا العصر مدينة بارتقائها الفني أولا إلى كتابنا الأدبي الأول الذي استمد من معينه الخطباء والشعراء والكتاب كافة . فالقرآن الكريم هو الذي حفظ للغة العربية رواءها ورونقها ، وهو الذي رفد بلغاء العرب بفيض من سحر بيانه لاينضب . وسنتقصى أثر القرآن الكريم في الخطابة ؛ لغة وأسلوباً وأفكاراً ، حينما نتحدث عن خصائص الخطابة السياسية .

(ب) وهي مدينة ثانياً إلى التراث الخطابي القيم الذي خلفه لنا عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت خطب الرسول عليه السلام وخلفائه ـ ولا سيما خطب علي ـ نموذجاً وضعه خطباء العصر الأموي نصب أعينهم واهتدوا بهديه .

(حـ) ولا ينبغي لنا أن نغفل عاملا خطيراً من عوامل نهضة الخطابة في هذا العصر . فعلى الرغم من أن اختلاط العرب بالأعاجم كان له آثار لاتحمد في اللغة والأدب ، نجد أن الفصاحة العربية الفطرية لم تخمد جذوتها في هذا العصر ولم ينطفىء وميض البيان العربي الناصع . وذلك لقرب عهد العرب بالعصر الجاهلي ، عصر الفصاحة والسليقة الخطابية ، ولتردد الفصحاء على البادية ومشافهتهم الأعراب الخلص ، فظلت لغة الخطابة بوجه عام سليمة ناصعة لا تشوبها شوائب العجمة واللحن والركاكة ، وظل أسلوب الخطابة يحكي أساليب فصحاء الجاهلية وصدر الإسلام في جزالة التعبير ومتانة التأليف وقوة الأداء . ولقد أدى اختلاط العرب بالأعاجم وامتزاج العناصر العربية بالعناصر العجمية ذلك الامتزاج الوثيق في العصر العباسي

والعصور التي تلته إلى فساد السلائق الخطابية واللغوية وكان ذلك من أبرز الدواعي لانحطاط فن الخطابة في تلك العصور .

(د) ومن جانب آخر استطاعت الخطابة أن تخطو خطوة واسعة في مضمار الرقي الفكري في هذا العصر بفضل هذا الانقلاب الفكري الخطير الذي أحدثه ظهور الإسلام في الأمة العربية ، إذ كانت في عصرها الجاهلي تعيش في حالة أدنى إلى الجدب الفكري ، فلما جاء الإسلام ملأ جانباً من هذا الفراغ بما حمله من أفكار جديدة ملأت على العرب حياتهم . ثم اتصل العرب بسكان البلاد المفتوحة ووقفوا على تراثها الثقافي فتفتحت أمام الفكر العربي نوافذ جديدة واتسعت آفاقه ، وانعكس صدى هذا الغنى الفكري إلى حد ما في الخطابة الأموية ، ولا سيما الدينية منها ، بيد أنها لم تستوعب كل التيارات الفكرية التي ظهرت في ذلك العصر لأن مجالها محدود ، فهي تتجه إلى عامة الجماهير لا إلى الطبقة المختارة منها وهي لذلك تظل في مستواها الفكرى بعيدة عن العمق والتعقيد لتكون في مستوى الجماعات التي توجه إليها .

هذه العوامل المتعددة التي ذكرناها أدت إلى نشاط الخطابة السياسية في عصر بني مروان وإلى النهوض بهذا الفن فكرياً وفنياً . وكان من مظاهر ازدهار الخطابة السياسية وفرة خطباء السياسة الذين ظهروا في هذا العصر ، على ما سنبين فيما بعد ونبوغ طائفة من ألمع خطباء السياسة الذين عرفهم تاريخنا الأدبي في جميع عصوره . وكان من مظاهره كذلك تعدد أقسام الخطابة السياسية فهناك الخطب السياسية الخالصة ، والمناظرات ، والمشاورات ، والخطب الحربية ، والوصايا السياسية والحربية .

★ ★ ★

(٢) موضوعها ، أقسامها

تتناول الخطابة السياسية كل ماله صلة بأحوال الدولة وشؤونها العامة ، داخلية كانت أو خارجية . ومدارها الأول على الحكم وما يتصل به ، فهي تتعرض للكلام عمن هو صاحب الحق في تولي أمور القوم ، والكفاءات التي ينبغي أن يتحلى بها الحاكم ، والسياسة التي ينبغي اتباعها في الحكم ، وواجبات كل من الرعية والراعي وحقوقها ، والتشريعات الواجب إصدارها ، ووسائل الإصلاح التي ينبغي الأخذ بها . وحين يدهم القوم خطب جلل ، كأن تكون البلاد عرضة لوباء جارف ، أو فتنة عمياء ، أو غزو يتهدد كيان الدولة ، وتدعو الضرورة إلى الخوض في هذه الأمور ، فإن هذه الموضوعات كلها تقع كذلك في نطاق الخطابة السياسية . وكذلك حين تتهيأ الدولة لغزو أمة أخرى وفتح بلادها ، ويقوم الخطباء فيحثون الجند المتجهين إلى ساح الوغى على الاستبسال في القتال ، فإن الخطب المتصلة بالحرب والفتح تندرج أيضاً ضمن موضوعات الخطابة السياسية بمدلولها الواسع . ومما يلحق بالخطابة السياسية تلك الوصايا الحربية التي يزود بها الحاكم قائد جيشه حين يوجهه إلى لقاء العدو ، ذائداً عن بلاده أو قاصداً الفتح والغزو .

وقد أدرج أرسطو الخطابة السياسية في تقسيمه الزمني للخطابة ، ضمن الخطابة الاستشارية ، وهي التي تتجه إلى المستقبل ، ويتوجه فيها الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو التحذير (١) .

ونستطيع أن نقسم الخطابة السياسية في العصر الأموي إلى الأنواع التالية :

١ — الخطب السياسية الخالصة .
٢ — المناظرات السياسية .
٣ — المشاورات السياسية .
٤ — الخطب الحربية .
٥ — الوصايا السياسية والحربية .

* * *

(١) خطابة أرسطو ، ترجمة إبراهيم سلامة ص ١١٢ .

(٣) خصائصها

لا تتفق أقسام الخطابة السياسية الأموية كلها في خصائصها الفكرية والنفسية ، فخطب الفتوح مثلا تختلف في أفكارها عن المناظرات السياسية ، بل إن الخطب السياسية الخالصة ليست لها خصائص فكرية واحدة ، فخطب أنصار بني أمية تختلف عن خطب معارضيهم ، ولذلك سندرس خصائص كل من هذه الأقسام على حدة ، ثم نذكر المميزات الفنية التي تشترك فيها جميع الأقسام .

أولا — الخطب السياسية الخالصة

(أ) خطب الأمويين وأنصارهم

ثمة أفكار تتردد في جل خطب الأمويين وأنصارهم ، ونجد مع ذلك اختلافاً بين أفكار كل من هؤلاء الخطباء مرجعه إلى شخصية الخطيب وإلى مايلقاه من تأييد الأنصار وعداوة المعارضين ، وإلى مناسبة الخطبة . وأبرز الأفكار التي نجد خطباء الحزب الأموي يتكئون عليها هي التالية :

١ — الاحتجاج لحق بني أمية في الحكم

كان بنو أمية يرون أنهم حكام المسلمين الشرعيون الذين انعقد عليهم إجماع الأمة ، لكنهم كانوا لا يجهلون مع ذلك أنهم إنما ظفروا بالخلافة عن طريق القوة والحيلة ، فلم يحمل جمهرة المسلمين على مبايعتهم إلا الخوف أو المال . ولم يكونوا قادرين على إثبات حقهم في تولي أمور المسلمين بالحجة الدامغة والبرهان القاطع ، فكانوا لذلك قلما يتعرضون في خطبهم هم وأنصارهم لهذا الأمر ،وإذا تعرضوا له سلكوا سبيل المداورة والمغالطة ، وربما صرحوا باضطرارهم إلى سلوك سبيل القوة والقتال لانتزاع حقهم من الطامعين فيه . اقرأ مثلاً خطبة عمرو بن سعيد الأشدق حين ولاه أبوه مكة ، فهو يقول فيها : « ... ثم شَجر أمرٌ بين أمرين ، فقَـتَلنا وقُتِلنا ، فوالله ما نَزَعنا وما نُزِع عنا حتى شَرب الدم دماً ، وأكل اللحمُ لحماً ، وقرع العظم عظماً ، وعاد

الحرامُ حلالاً ، وأُسكت كل ذي حِسٍّ عن ضرب مُهَنَّد ، عركاً عركاً ، وعسفاً عسفاً ، وخزاً ونهساً ، حتى طابوا عن حقنا نفساً »[1] .. ويقول معاوية في خطبته بالمدينة عام الجماعة : « أما بعدُ ، فإني والله ما وليتها بمحبة منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً[2] » .

فالحق الذي يدعونه إذن حق القوة ، وهذه هي حجتهم الدامغة التي يأتون بها ، وربما زعموا أحياناً أن سلطانهم مستمد من الله ، على أن فكرة الحق الإلهي هذه لم تكن واضحة بعد لا في أذهان الحاكمين ولا في أذهان المحكومين ، فزياد يقول في البتراء : « يا أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادةً ، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودُ عنكم بفيء الله الذي خوّلنا[3] » .. بيد أن خطباء بني أمية لم يلحوا على هذه الناحية ، وإنما تعرض لها أنصارهم من الشعراء ، والشعراء يباح لهم من الجنوح إلى المبالغة والكذب ما لا يباح مثله للخطباء .

وفي أحيان قليلة كان خطباء بني أمية يتعرضون لمسألة توارث الملك في البيت الأموي ، وهي قضية لا يسهل الاحتجاج لها . وربما نجدها في المناظرات أكثر وروداً منها في الخطب ، ولما أراد معاوية أخذ البيعة ليزيد كانت حجته في ذلك أن أسلافه في الحكم اتبع كل منهم طريقة تخالف طريقة صاحبه في الاستخلاف ، وأنه إنما اختار هذه الطريقة حقناً لدماء المسلمين لما هم عليه من اختلاف الكلمة : « فلذلك رأيت أن أبايعَ ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الإنصاف[4] » .

٢ ـ مطالبة الرعية بالطاعة

أما وقد نال بنو أمية الخلافة طوعاً أو كرهاً ، وأصبح لحكمهم طابعه الشرعي بمبايعة المسلمين لهم ، فقد وجب على الرعية طاعتهم ، وعدم الخروج عليهم . ومن هنا

(١) العقد الفريد ٤/١٣٣ شرح هنا بمعنى فرق .
(٢) المصدر السابق ٤/٨١ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٦١ .
(٤) العقد الفريد ٤/٣٦٨ .

كانت خطب بني أمية وأنصارهم تلح على مطالبة الرعية بالطاعة ، والتحذير من الفتنة والمعصية . وعلى الأغلب نجدهم يضعون لقاء الطاعة الواجبة على الرعية ، العدل المفروض على الراعي ، وهذه الفكرة تتكرر في جل خطبهم ، نجدها مثلا في خطبة لعتبة بن أبي سفيان بمصر : « فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ ، ولكم علينا العدلُ ، فأيّنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه[١] » . وفي خطبة يزيد الناقص بعد قتله الوليد بن يزيد نجده يقول : « فإن أنا وفيتُ لكم ، فعليكم السمعُ والطاعة ، وحسنُ المؤازرة والمكانفة . وإن لم أوف لكم ، فلكم أن تخلعوني[٢] .. » . على أننا نجدهم أحياناً يكتفون بطلب الطاعة دون أن يوجبوا على أنفسهم لقاءها عدلا أو وفاء بعهد ، وإنما هو الخضوع المطلق أو السيف ، شأن الحجاج في جل خطبه ، وكقول خالد القسري من خطبة له بمكة : « فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلاّ صلبتُه في الحرَم[٣] » .

أما عمر بن عبد العزيز فكان يلح على رعيته أن تطيعه ما أطاع الله ، فإن لم يطعه حلت لهم معصيته ، من ذلك قوله في خطبته حين بايعه الناس : « ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيتُ الله فلا طاعةَ لي عليكم ..[٤] »

٣ ـ بيان خطة الحكم

كما تتقدم الوزارات اليوم ببيانها الوزاري الذي توضح فيه الخطة التي ستجري عليها في الحكم ، كان الخليفة الأموي يعلن للرعية عند توليه الأمر خطته في الحكم والمبادىء التي سيتخذها شعاراً له . وربما عمد الوالي إلى إيضاح خطته أيضاً في مستهل ولايته . والخطبة البتراء خير ما يمثل لنا هذا اللون من الخطب ، وفيها يعلن زياد لأهل

---

(١) العقد الفريد ٤/١٤٠ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٤١ .
(٣) تاريخ الطبري ٥/٢٤٣ .
(٤) جمهرة خطب العرب ٢/١٩١ .

البصرة خطبته فيقول : « إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضَعف ، وشدّة في غير عُنف ، وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالمَولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، إلخ .. » وفي الغالب نجد خطبة الحاكم متفقة وشخصيته ، فهي تصور لنا أسلوبه في الحكم ، كما تعكس لنا نفسه وسلوكه وطريقة تفكيره . وكان الخلفاء والولاة حراصاً على إبراز حكمهم في إطار مغر يجتذب القلوب ، فهم يعدون الرعية بالعدل وحسن السيرة وعدم تأخير العطاء وعدم تجمير البعوث ، واستيحاء كتاب الله وسنة نبيه في أحكامهم ، وتجتمع هذه الأفكار في خطبة يزيد بن الوليد التي قالها إثر مقتل الوليد الثاني ومنها يقول : « إن لكم عليّ إن وليت أموركم ألا أضع لبنةً على لَبنة ، ولا حجراً على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى أسدّ ثَغره ، وأقيم مصالحه ، مما تحتاجون إليه ، وتقوون به . فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه ، وهو من أحوج البلدان إليه ، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء . ولا أجمركم في بعوثكم . فتفتتنوا وتفتتن أهاليكم[١] » .

٤ ــ التهديد والوعيد

ما كان بنو أمية يجهلون أنهم إنما ظفروا بالحكم عن طريق القوة وأن جل أهل الأمصار ما دانوا لحكمهم إلا مكرهين وأن أعداءهم – وإن تظاهروا أحياناً بالطاعة وأخلدوا للسكينة – يتربصون بهم الدوائر ويتحينون الفرص للثورة عليهم فكان خطباء الحزب الأموي لذلك يعمدون في خطبهم إلى تهديد من تحدثه نفسه بالثورة والعصيان بالويل والثبور ويتوعدون الخارجين عليهم بالنكال وسوء المصير ، وينفرون القوم من الفتنة ويحذرونهم مغبتها ففي نهاية خطبة لمعاوية نسمعه يقول : « وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة[٢] » . ويقول عبد الملك في خطبة له : « فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا[٣] » . ويقول عتبة بن أبي سفيان في مطلع إحدى خطبه : « يا أهلَ مصر

(١) العقد الفريد ٤/٩٥ .
(٢) العقدالفريد ٤/٨١ .
(٣) المصدر السابق ٤/١٠٤ .

إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً[١] » . ويصطنع زياد أسلوب الوعيد في خطبتـه البتراء فيختمها بقوله : « وايمُ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرةً فليحذرَ كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي[٢] » . وخطب الحجاج مليئة كذلك بالوعيد والتهديد ولعله أكثر خطباء بني أمية اعتماداً على هذا الأسلوب وربما أتى به في قالب تصويري ليكون أبلغ تأثيراً في النفوس : « إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبهـا وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى[٣] » .

وهذا التهديد منصب فقط على من يجهرون بمعارضتهم لبني أمية قولاً أو فعلا ، أما من تظاهر بالولاء لهم تقية وطوى جوانحه على بغضهم والنقمة عليهم فإنهم ما كانوا يحفلون به ، حسبهم أنه لا يدعو إلى الفتنة ولا يؤلب عليهم الأعداء . وبنو أمية كثيراً ما يشيرون في خطبهم إلى أن هذا كل ما يبتغونه من الناس وهم لا يطمعون منهم بالولاء الصادق والمودة الخالصة فمعاوية يخاطب أهل المدينة فيقول : « والله لا أحمل السيف على من لا سيفَ له وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي[٤] » . ويقول الحجاج في نهاية خطبة له قالها لما مات عبد الملك : « فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غماً[٥] . » وكذلك نجد هذه الفكرة في نهاية خطبة قالها الوليد بن عبد الملك يوم توفي أبوه : « واعلموا أنه من أبدى لنا ذاتَ نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه[٦] » .

٥ ـ الترغيب بالعطايا والهبات

لم تكن خطب الحزب الأموي تنطوي على التهديد والوعيد فحسب . وإنما كانت تجمع بين الترهيب والترغيب ، وهي الطريقة الخطابية المثلى للتأثير في النفوس واستمالة

(١) العقد الفريد ٤/١٣٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٦١ .
(٣) الكامل للمبرد ١/٢٢٤ .
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٥) المصدر السابق ٤/١٢٢ .
(٦) المصدر السابق ٤/٩١ .

الناس . فإلى جانب التهديد بمعاقبة الساعين في الفتن أبلغ عقوبة ، نجد الأمويين يغدقون الوعود المغرية على المسالمين الموادعين . وقد كان منع العطاء أو بذله سلاحاً في يد بني أمية يجيدون استخدامه ، فانظر إلى عبد الملك يعقب التهديد والوعيد بتذكير الناس بنعمه عليهم وعطاياه لهم ، وذلك بعد قتله عمراً الأشدق ، فيقول : « . . . واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيسِ زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدَّعة ، وآجلِ الجزاء والمَثُوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونَزْغه ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه . انهضوا رحمكم الله ، إلى قبض أعطياتكم غيرَ مقطوعةٍ عنكم ولا مكدرةٍ عليكم[1] » . ومثل هذا الإغراء المادي نجده في كثير من خطب الأمويين.

٦ ــ تحدي الأعداء وشتم المعارضين

لم يكن موقف خطباء الحزب الأموي من معارضيهم والناقمين عليهم رفيقاً ليناً، وإنما كانوا يسلكون إزاءهم سبيل التحدي السافر ، ويلوحون بقبضاتهم متوعدين ، ولا يتورعون عن شتم مناهضيهم أقبح شتم ، وإلصاق النعوت والألقاب المستقبحة بهم ، وتحقيرهم ما شاء لهم التحقير ، وإظهار الاستخفاف بهم ، والتهوين من شأنهم . وأكثر ما نجد هذا في خطب الحجاج وعتبة بن أبي سفيان ، ولا تكاد تخلو خطبة لهما من الشتم والتحدي والتحقير ، فإذا خاطب الحجاج أهل العراق فبمثل قوله : « يا أهلَ العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، وبني اللكيعة، وعبيدَ العصا ، وأولادَ الإماء .. إلخ[2] » ، وإذا خاطب عتبة أهل مصر صب في أسماعهم شتائم من كل لون : « يا حاملي ألأمَ أنوف ركبت بينَ أعين . . . » وهذا الأسلوب في خطاب المناهضين والمعارضين شائع في خطب الأمويين .

٧ ــ الفخر والمباهاة والاعتداد بالقوة

كانت خطب الأمويين تفسح مجالا لظهور روح التفاخر والتعالي المتأصلة في نفس العربي ، فقلما كان الخطيب يغفل عن التنويه بمزاياه ومناقبه ، ولكن فخر

---

(١) صبح الأعشى ٢١٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١٣٧/٢ . واللكيعة : اللئيمة .

الخطيب بذاته ليس القصد منه هذا المفاخرة والمباهاة ، وإنما الغاية منه إرهاب المخاطبين وإلقاء الروع في نفوسهم وتحديهم ، ومن هنا كان الخطيب يحرص على إبراز صفات القوة والبطش والشدة التي يتسم بها ، كما كان يحرص على إظهار الحزب الأموي بمظهر الحزب القوي الصعب المراس الذي يبطش بعدوه بلا هوادة ، فالفخر بالقوة في هذه الخطب غايته إذن إرهاب المعارضين وحمل الناس على الإذعان المطلق لسلطان بني أمية ، وربما أدى فخر الخطيب بقوته إلى طعنه لا بأعدائه فحسب وإنما برجال حزبه أيضاً ، صنيع عبد الملك حين وقف خطيباً بمكة فقال : « أيها الناس ، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا [١] » . وحين بطش عبد الملك بمصعب ابن الزبير وقف يفخر على أهل العراق بقوة بني أمية وكثرة ما خاضوا من حروب : « أيها الناس ، إن الحربَ صعبة مُرّة ، وإن السلم أمنٌ ومسرة ، وقد زَبنتنا الحرب وزبنَّاها ، فعرفناها وألِفناها ، فنحن بنوها ، وهي أمنا [٢] . . » . وفي خطبة لعمرو الأشدق نجـده يفخر بالشباب والقوة : « فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبَل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حليمٌ حديد ، ليّن شديد ، رقيقٌ كثيف ، رفيق عنيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهرَ ببصره ، واستقبله بأشره . فهو إن عضّ نهس ، وإن سطا فرس ، لا يُقلقَل له بالحصى ، ولا تقرعُ له العصا ، ولا يمشي السمّهى [٣] » . وحين كان الضحاك بن قيس في صف الأمويين وقف

(١) العقد الفريد ٤/٤٠١ . وأراد بالخليفة المستضعف عثمان بن عفان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وقد علق النظام على خطبته هذه بقوله : أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق ، والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ولا بوصية . (العقد ٤/٩٠) .

(٢) أمالي القالي ١٢/١ . زبنه : دفعه ، أراد أن الحرب قد عركتهم وعجمت عودهم .

(٣) العقد الفريد ٤/١٣٢ . فرس الفريسة : دق عنقها . السمهى : الباطل ، يقال : جرى فلان السمهى أي جرى إلى أمر لا يعرفه .

يتهدد أهل الكوفة ويفخر بقوته وغزواتـه ومشيئته التي لا مرد لها : « أما إني لصاحبكم الذي أغرتُ على بلادكم ، فكنت أولَ من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية ومن شاطىء الفرات . أعاقب من شئت ، وأعفو عمن شئت . لقد ذَعرتُ المُخَدَّرات في خدورهن ، وإنْ كانت المرأةُ ليبكي ابنها فلا تُرهبه ولا تُسكته إلا بذكر اسمي[1] » .

٨ ــ الاعتراف بعدم الكمال

وبنو أمية ، على فخرهم بأنفسهم وتعاليهم ، ما كانوا يذهبون إلى حـد ادعاء الكمال لأنفسهم والزعم بأنهم خير الناس طرّاً ، وإنمـا كانوا يرون أنفسهم أصلح القوم لتولي أمور المسلمين ، وهم لذلك يطلبون إلى النـاس أن يقبلوهم على ما هم عليه ، فمن الخير المسلمين أن يحكمهم بنو أمية من أن يحكمهم سواهم ، إذ أن لهم من المزايا ما ليس لغيرهم . وهذا معاوية يقول في خطبته بالمدينة : « . . فإن لم تجدوني خيركم ، فإني خيرٌ لـكم ولايةً . » ويقول في خطبـة أخرى : « فاقبلونا بما فينا ، فإنّ ما وراءنا شرٌّ لـكم[2] . » ، وهذه الفكرة تتردد كثيراً في خطب عمر بن عبد العزيز التقي المتواضع ، من ذلك قوله في كلمـة له : « ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم . غيرَ أن الله جعلني أثقلـكم حِملا[3] » .

٩ ــ استغلال مقتل عثمان

لا يفوت خطباء الحزب الأموي أن يشيروا ، كلمـا اقتضى الأمر ، إلى مقتل عثمان ، متخذين ذلك ذريعة للانتقام ممن كان لهم يد في قتله والتنكيل بهم ، وانتهاج سبيل القوة والشدة في الحـكم . وقــــد جعل عبد الملك ، في خطبة له بالمدينة ، مقتل عثمان سبباً لانطواء نفوس بني أمية على الكره الدائم المقيم لأهل

---

(١) شرح نهج البلاغة ١/١٥٥ .

(٢) العقد الفريد ٤/٨٢ .

(٣) جمهرة خطب العرب ٢/١٩٢ .

المدينة : « .. فنحن نعلم يا معشرَ قريش أنكم لا تحبّوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكُر قتل عثمان (١) . » ، وخاطب عمرو الأشدق أهل المدينة بمثل هذه اللهجة المنيفة فقال في خطبة له : « أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتمْ ثائرنا منا رفيقاً ، قد فني غضبُه ، وبقي حلمُه (٢) . » فقد كان مقتل عثمان ، من بعض الوجوه ، ورقة رابحة في يد بني أمية ، يلوحون بها في اللحظة المناسبة .

١٠ ـ مزج السياسة بالوعظ

ما ذكرناه قبل من اجتماع الصفتين الدنيوية والدينية في الخليفة جعله يرى من واجبه إرجاء الموعظة لرعيته ، سواء في خطب وعظية مستقلة أو ضمن الخطب السياسية . كذلك كان يصنع ولاة الأمويين في بعض خطبهم السياسية والوعظ في هذه الخطب يدور حول التزهيد في الدنيا الغرور ، والترغيب فيما عند الله من الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، والدعوة إلى عصيان أهواء النفس ونوازع الشيطان ونحو ذلك من الأفكار الوعظية مثال هذا ما نجده في صدر خطبة زياد البتراء من تأنيبه أهل البصرة لسلوكهم سبل الغواية وتنكبهم طرق الرشاد : « ... كأنكم لم تقرؤوا كتابَ الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمديّ الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهواتُ ، واختار الفانيةَ على الباقية .. إلخ .. »

* * *

تلك هي أبرز الأفكار التي تشتمل عليها خطب الحزب الأموي السياسية ، ومن البين أنها تنسجم مع النظام السياسي الفردي الذي كان سائداً في عصر بني

---

(١) مروج الذهب ١٢٩/٢ .

(٢) العقد الفريد ١٣٢/٤ . الثائر : الآخذ بالثأر .

أمية ، فهي بمجملها تأييد لسلطان مطلق لا يفسح مجالا للنقد الحر ، ولا يرحب بحرية الفكر ، ولا يعطي للمعارضين من الحقوق مثل ما يحظون به عادة في ظل النظم الديموقراطية . والمحور الذي تدور حوله جل هذه الخطب هو وجوب الطاعة المطلقة لمن بيدهم الأمر ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بالثورة وإذكاء نار الفتنة .

أما من حيث نفسية الخطيب فإننا نقرأ خطب بني أمية وأنصارهم فيستشف لنا ما كانت تنطوي عليه نفوس قائليها ، بصورة عامة ، من تعال وترفع واستكبار ، ومن ثقة بقوتهم وكفاءاتهم وإيمان بحقهم في تولي أمور المسلمين وحكمهم ، ويتجلى لنا ما كانوا يشعرون به من نقمة وسخط على من كانوا ينازعونهم السلطان ويوقدون نار الفتنة ، وكأن حقهم في الحكم صريح واضح لا يفتقر في إثباته إلى برهان ، فهم لذلك يملكهم العجب والدهشة ممن ينازعونهم الأمر . وإن خطبهم لتنضح بالزهو والتحدي والاستخفاف المسرف بالمخاطبين ، ومرد ذلك إلى طابع الحكم الفردي المطلق الذي كان يملي عليهم أن ينظروا إلى الرعية نظرتهم إلى سائمة تساق بالعصا، ففي حين أن النظام القائم على حرية الفكر والقول يرفع كثيراً من شأن المخاطبين ويحمل الخطيب على التزلف إليهم والتماس مواطن الرضا من نفوسهم ، نجد أن خطباء بني أمية كانوا لا يحفلون بالتزلف إلا لأنصارهم ، أما معارضوهم فما كانوا يحرصون كثيراً على استمالتهم إليهم بمحض إرادتهم وإنمـــا حسبهم أن يحملوهم على الطاعة والخضوع ولا يعنيهم بعدُ أأحبهم الناس أم كرهوهم . بل كثيراً ما وجدناهم يصارحون المخاطبين بما يضمرون لهم من كراهية وبغض ، صنيع الحجاج في مخاطبته أهل العراق ، وعتبة في مخاطبته أهل مصر ، ومعاوية في مخاطبتـــه أهل المدينة .

ولا ينبغي أن نغفل عما تنطوي عليه بعض خطب المؤيدين لبني أمية من نفاق ورياء ، شأن أكثر الخطب التي قيلت بصدد جعل ولاية العهد ليزيد مثلا ، فما

دفع جل هؤلاء المؤيدين للسير في ركاب بني أمية إلا المال والرغبة في الجاه والمغنم، ولذلك خلت خطبهم من صدق الشعور وإخلاص العاطفة .



(ب) خطب الخوارج

١ ــ لم يكن بُدٌّ لخطباء الخوارج ، في سبيل تأييد دعوتهم ، من بيان الأسس التي يقوم عليها مذهبهم ، والمبادىء التي يدعون إليها ، والدفاع عنها والاحتجاج لها ، ولا سيما أن خطباء الخوارج هم في الأغلب من رؤساء فرقهم . وكانوا كثيراً ما يمهدون لشرح مبادىء دعوتهم بنبذة تاريخية يصورون فيها حالة المسلمين منذ عهد الرسول حتى زمن بني أمية ، ثم يجملون من فساد الأمور في عهد بني أمية مسوغاً لخروجهم وثوراتهم ، ثم يأخذون في بيان مبادىء دعوتهم والدفاع عنها . وقد اتبع خطيب الخوارج الأول ، أبو حمزة ، هذه الخطة في خطبته المطولة بالمدينة . ونجد توضيحاً لمذهب الخوارج كذلك في خطبة عبد الله بن يحيى طالب الحق التي قالها إثر استيلائه على بلاد اليمن ، وقد جاء فيها : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله ، وسُنّة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما . الإسلامُ ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآنُ إمامُنا .. . من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكّ في أنه كافر فهو كافر ، إلخ[1] » .

٢ ــ كان حزب الخوارج أقوى الأحزاب المعارضة للحكم الأموي ، وأشدها اجتراءاً على مناوءته ومناهضته ، وكان هذا الحزب يقيم دعائم مذهبه على أسس عقدية وسياسية ، وكان لا بد لخطباء الخوارج من تسديد حراب النقد النافذة إلى خصومهم وتعداد مآخذهم ومطاعنهم عليهم ، من تعطيل لحدود الله ، وجور في الأحكام واستئثار بالفيء ، ونحو ذلك . وهم بهذا يسوغون ثورتهم على الحكم الأموي ، ويثيرون حفيظة ذوي العقيدة المخلصة على من بيدهم السلطان . وها هو ذا أبو حمزة الخارجي يعدد

---

(١) الأغاني ٢٠/٩٨ .

ما أخذه أهل المدينة أنفسهم على بني أمية فيقول: «يا أهلَ المدينة، سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدِل، أخذوا المال من غير حلّه فوضعوه في غيرِ حقه، وجارُوا في الحكم فحكموا بغيرِ ما أنزل الله، واستأثروا بفيئنا فجعلوه دُولةً بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء[1]..». ويقول في خطبة أخرى له: «وأما بنو أمية، ففرقة ضلالة، بطشُهم بطش جبرية، يأخذون بالظِّنّة، ويقضُون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها[2]».

٣ — ولم يكن خطباء الخوارج يكتفون بذكر مطاعنهم على خصومهم ومآخذهم على سياستهم، بل كانوا يجاوزون هذا إلى شتم بني أمية ومن يلوذون بهم والخاطبين في حبلهم شتماً صريحاً يشي بطبيعتهم البدوية الصريحة، وينبيء بشدة سخطهم على حكم بني أمية وأعوانهم. وفي خطبة أبي حمزة السابقة نسمعه يقول: «.. ثم ولي بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور، ويزيد الصقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القرود، الفاسق في بطنه، .. لعنه الله».

وكما كان بنو أمية وعمالهم يشتمون أحياناً من يستمعون إلى خطبهم بدلا من أن يتزلفوا إليهم، كذلك نجد الخوارج المطبوعين على الصراحة والجرأة يسلكون هذا المسلك في مخاطبة من يأبون الانضمام إلى مذهبهم، أو يؤيدون بني أمية، صنيع أبي حمزة في خطبته السابقة حين وقف يقرع أهل المدينة ويشتمهم لقتالهم الخوارج وإبائهم الانضمام إليهم في حرب بني أمية: «استعبدتكم الدنيا فأذلتكم، والأماني فأضلّتكم. فتح اللهُ لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه.

---

(١) العقد الفريد ١٤٦/٤.

(٢) البيان والتبيين ١٢٤/٢ والأغاني ١٠٦/٢٠. والجاحظ يذكر أن أبا حمزة قال هذه الخطبة بمكة، وتذكر مصادر أخرى أنه قالها بالمدينة. ويلاحظ اضطراب في رواية خطب أبي حمزة في المصادر المختلفة. فإن خطبته الطويلة بالمدينة مثلا تجعلها بعض الروايات خطباً متعددة.

سراعٌ إلى الفتنة ، بطاء عن السنة ، عمي عن البرهان ، صمّ عن العرفان ، عبيد الطمع ، حلفاء الجزع . . »

٤ ــ كان خطباء الخوارج يسلكون في خطبهم أيضاً طريقة الترهيب والترغيب التي وجدناها في خطب الحزب الأموي ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون تهديد مخالفيهم بالقتل أو السجن ، صنيع خطباء بني أمية ، فكانوا يلجؤون إلى تهديدهم بما سيلقونه من عذاب الله ونكاله لتنكبهم سبيل المهتدين ، من ذلك قول أبي حمزة في خطبة قالها إثر وقعة قديد : « وأنتمْ يا أهل المدينة إن تنصرُوا مَروان وآل مروان يسحتكم الله بعذابٍ من عنده ، أو بأيدينا ، ويشفِ صدورَ قوم مؤمنين[1] . » وإذا سلكوا سبيل الترغيب لم يلجؤوا إلى إغراء الناس بالعطايا والهبات ، شأن بني أمية ، وإنما أغروهم بما سيلقونه عند الله من ثواب عظيم ونعيم سرمد ، ويعدونهم ، إن أظهرهم الله على أعدائهم ، بالعمل بكتاب الله ، وسنة الرسول ، والعدل في الأحكام ، وقسم الأموال بالسوية . وفي الخطبة السابقة لأبي حمزة نجد مثالاً لهذا الترغيب : « ندعو إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، والقَسم بالسويّة ، والعدل في الرعية ، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها » .

٥ ــ وكثيراً ما نجد خطباء الخوارج يحاولون استمالة الناس إلى مذهبهم وإثارة العطف على جماعتهم من طريق آخر غير طريق الجدل والإقناع ، هو طريق تصوير حياة الخوارج وما يقاسونه في سبيل الدفاع عن عقيدتهم . فهؤلاء الشراة ينفقون حياتهم في العبادة والصلاة إذا أمسوا ، وفي مجاهدة أعدائهم وقتال المحلين إذا أصبحوا . فلا غرو أن يبدوا أنضاء عبادة ، مقرحي الأعين ، وهم مع ذلك يجدون لذة ما بعدها لذة في حياتهم هذه الشاقة المضنية ، لما يتوقعونه بعد هذا العناء من ثواب الله ونعيمه . وأبو حمزة خير من صور حياة الخوارج في خطبه ، وإليك قوله من خطبة له بمكة : « نعمَ الشبابُ مكتهلين ، عميةٌ عن الشر أعينهم ، بطيئةٌ عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم في آناء

(١) الأغاني ٢٠/١٠٣ . أسحته : أهلكه واستأصله .

الليل ، منثنية أصلابهم بمثاني القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه ، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، أنضاء عبادة ، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام[١] » .

وليس في هذا الوصف مبالغة أو مغايرة الواقع فإن حياة الخوارج كانت حقاً كما وصفها أبو حمزة . وقد سأل زياد مولى عروة بن أدية بعد أن قتله أن يصف له حياة مولاه فلخصها له بقوله : « ما أتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشاً بليل قط[٢] » .

٦ – ومن الأفكار التي تدور عليها خطب الخوارج إظهارهم الاستخفاف بأعدائهم والاستهانة بما يعدونه لهم من جيوش وكتائب . وما عساه يخيفهم من أمرهم وهم إنما خرجوا ينشدون الموت طمعاً فيما وراءه ، وإن قوماً يتعجلون لقاء المنية ويستعذبون كأس الردى ويرون غاية أمنيتهم الانتقال إلى دار الخلد ، إن قوماً هذا شأنهم لخليقون أن يستخفوا بأعدائهم مهما حشدوا لهم من جند وأعدوا لهم من قوة . وهذا هو سر استبسال الخوارج في قتالهم عدوهم وتغلب العدد القليل منهم على الكتائب الكثيرة من عدوهم ، وكان منهم من طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله وهو يقول : « وعجلت إليك رب لترضى[٣] » . فمن الطبيعي أن نجد خطباء الخوارج يتناولون هذه الفكرة ويلحون عليها ، ففي خطبة أبي حمزة السابقة نجده يقول : « إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ، ورماحه قد أشرعت ، وسيوفه قد انتضيت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله . »

٧ – والزهد في الدنيا ومتاعها من الأفكار الشائعة في خطب الخوارج ، وهذه الفكرة وثيقة الصلة بما سبق أن ذكرناه من استهانة الخوارج بأعدائهم إذ الاستخفاف بالموت والترحيب بلقائه ناجم عن الزهد في الحياة الدنيا واحتقار لذاتها والانصراف عن متاعها

---

(١) العقد الفريد ٤/١٤٤ .
(٢) الكامل للمبرد ٢/١١٦ .
(٣) الكامل للمبرد ٢/١٣٩ .

الباطل . وهم لذلك يتعجلون النقلة من دار الفناء إلى دار البقاء ، وما يتوخى الشراة إلا ما أعلنه المستورد بن عُلّفة في قوله : « وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود[١] » . وفي قوله أيضاً من خطبة أخرى : « إني والله ما خرجتُ التمس الدنيا ، ولا ذكرَها ولا فخرها ، ولا البقاء ، وما أحب أنها لي بحذافيرها ، وأضعاف ما يتنافس منها بقبال نعلي ، وما خرجت إلا التماس الشهادة[٢] . . . »

٨ ـ ونلاحظ أخيراً في خطب الخوارج ما لاحظناه في خطب بعض خطباء الحزب الأموي من مزج السياسة بالوعظ ، وذلك فضلا عن الخطب الخالصة للوعظ والهداية . وقد استهل أبو حمزة خطبته التي قالها بالمدينة إثر وقعة قديد بقوله : « أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه ، وسنة نبيه ﷺ ، وصلة الرَّحم وتعظيم ما صغَّرت الجبابرة من حق الله ، وتصغير ما عظمت من الباطل ، إلخ . . . » وليس ورود الوعظ في خطب الخوارج بمستنكر لما نعلمه من صدق تدينهم وشدة تقواهم وقوة عقيدتهم .

★ ★ ★

ومما تقدم يتضح لنا ما في خطب الخوارج من الصراحة والجرأة على المجاهرة بآرائهم ومعتقداتهم ، فهم يعلنون مبادئهم في غير مواربة ، ويجاهرون بني أمية بالعداوة في غير مداورة ولا مداهنة ، ويعددون مثالبهم ومطاعنهم التي دعتهم إلى الخروج عليهم ، ويدعون المسلمين إلى تأييدهم ونصرة مذهبهم ، وهم لا يشكون في أنهم وحدهم على الحق ، وفي أن مخالفيهم على ضلال ، وهم لذلك خليقون بأن يظهروا على أعدائهم ويتم لهم النصر الذي وعدهم به الله في كتابه المنزل .

وخطب الخوارج تعكس لنا تأثرهم العميق بالقرآن الكريم وبأحكام الدين الإسلامي ، وقوة عقيدتهم وشدة تمسكهم بمبادىء مذهبهم ، وصدق شعورهم الديني

---

(١) تاريخ الطبري ١٣٣/٤ .

(٢) الطبري ١٤٧/٤ .

وتعلقهم بالمثل العليا التي نادى بها الإسلام كما تصور لنا صراحتهم وشجاعتهم وجرأتهم على مجاهرة أعدائهم الأقوياء بكرههم لهم وسخطهم عليهم واستخفافهم بهم ، وهذه الخطب تصور لنا خير تصوير نفسية هـذه الجماعة المتطرفة في عقيدتها ، الحريصة على تطبيق أحكام الدين تطبيقاً مثاليًّا ، الساخطة على عداتها الباغين المستأثرين بالفيء والمعطلين لحدود الله، الناقمة على جميع مخالفيها الذين يأبون مشاركتها في قتال من يدعونهم المحلين الفاسقين . ونحن نستشف بيسر ما يكمن وراء هذه الخطب من حزن صادق مصدره صيرورة أمور المسلمين إلى هذه الحال السيئة المؤلمة وعدم استطاعة الخوارج إصلاح الأمر ، وعدم استجابة القوم لدعوتهم ومبادئهم ، كما نستشف ما فيها من نزعـة صوفية زاهدة تنظر إلى الدنيا وما فيها من لذات على أنها عرض زائل ، ومتاع باطل خليق بالاحتقار والازدراء ، وترنو إلى حياة أخلد ، ولذة أبقى ، وعالم أمثل .



ج ـ خطب الشيعة

١ ـ غير خاف أنّ الحجة القوية التي كان الحزب الشيعي يقيم دعوته عليها إنما هي الانتساب إلى البيت النبوي الهاشمي ، فالقرابة من الرسول عليه السلام هي حجر الزاوية في بناء الدعوة العلوية . فكان من الطبيعي أن يلح خطباء الشيعة على هذه الفكرة في جل خطبهم ، ومن الطبيعي أيضاً أن نجد زعماء الشيعة من آل البيت يفخرون دائماً بانتسابهم إلى الدوحة الهاشمية وبقرابتهم للرسول . وفي أول خطبـة للحسن بن علي قالها بعد مقتل أبيه نسمعه يقول مفتخراً : « أيهـا الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ . أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابنُ الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرجسَ وطهّرهم تطهيراً [١] . . . » . وحين أوشك القتال أن يقع بين الحسين وأنصاره القلائل ، وبين الجيش الذي أنفذه إليـه ابن

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/١١ .

زياد خطب فقال في مستهل خطبته : «أما بعد ، فانسبوني فانظروا من أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاكُ حرمتي . ألستُ ابنَ نبيكم ﷺ وابن وصيه وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند الله . أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ أو ليس جعفرُ الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي ؟ إلخ (١) ..»

٢ ـ وهذه النسبة إلى آل البيت ، وما كان لهم من المآثر والمناقب في نصرة رسول الله ودعوته ، هذه الأمور كلها كان خطباء الشيعة يتخذونها ذريعة للمطالبة بصيرورة الأمر إليهم ، فهم أحق المسلمين بتولي الخلافة ، وبنو أمية باغون مغتصبون ، قد انتزعوا منهم تراثهم وسلبوهم حقهم الصراح . وحين قدم الحسين العراق ولقيه جيش ابن زياد حاول إقناع القوم بحقه في الخلافة ، ليتخلوا عن نصرة بني أمية ، فمضى يخاطبهم بقوله : «أما بعد ، أيها الناس ، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أرضى لله ، ونحن ـ أهلَ البيت ـ أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعـين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان (٢) » . وهذه الفكرة كثيرة التردد في خطب الشيعة ، إلا أننا نجدها في المناظرات التي جرت بين الشيعة والأمويين أكثر شيوعاً .

٣ ـ وإذ كان حق الشيعة في تولي الأمر صريحاً واضحاً ، فقد وجب على المسلمين جميعاً نصرتهم ، والدفاع عن حقهم ، والمطالبة بتراثهم ، وهذا ما كان يدعو إليه خطباء الشيعة ويلحون عليه ، كقول زهير بن القَين يوم كان يقاتل في صف الحسين مخاطباً أهل الكوفة : «إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخذلان الطاغية عبيد الله ابن زياد (٣) ..» ، وكقول عبيد الله بن عبد الله المُرّي : «.. فهل خلق ربكم في الأولين

---

(١) تاريخ الطبري ٣٢٢/٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٣٠٣/٤ .
(٣) المصدر السابق ٤٣٢/٤ .

والآخرين أعظمَ حقـًا على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذريةُ أحـــد من النبيِّين والمرسلين أو غيرهم أعظمُ حقـًا على هذه الأمة من ذريّة رسولها . لا والله ، ما كان ولا يكون (١) » . . .

٤ – والدعوة إلى نصرة آل البيت ربمـا اقترنت بتقريع خاذليهم ولوم الذين تخلوا عن نصرتهم وأسلموهم إلى جلاديهم ، وإنذارهم بعذاب من الله شديد . ولما قتل الحسين وقفت أخته أم كلثوم تقرع أهل الكوفة أعنف تقريع فتقول : « يا أهلَ الكوفة يا أهل الخَتر والخَذَل ، لا فلا رقأت العَبْرة ، ولا هدأت الرّنة . إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . تتخذون أيمانكم دَخلا بينكم . ألا وهل فيكم إلا الصَّلَف والشَّنَف ، ومَلَق الإماء ، وغَمز الأعداء إلخ(٢) » . . ولما أجمع التوابون على الأخذ بثأر الحسين أخذ خطباؤهم ينحون باللائمة على أنفسهم لخذلانهم حسيناً ، ووقف زعيمهم سليمان بن صرد يقول : « إنا كنا نمدّ أعناقنا إلى قُدوم آل نبينا ، ونُمَنّيهم النصر ، ونحثهم على القدوم . فلما قَدِموا وَنينا وعجزنا ، وأدْهنّا وتربّصْنا ، وانتظرنا ما يكون ، حتى قُتِل فينا ، ولَدَينا ، ولدُ نبينا وسلالته(٣) » .

٥ – وقد شن خطباء الحزب الشيعي حملة عنيفة على بني أمية خاصة وعلى سائر الأحزاب المناوئة لهم عامة ، وعنوا بتتبع مثالب بني أمية ، وما يؤخـــذ عليهم من مطاعن ، وربما تناولوهم بالشتم والقذف . وكانوا يشاركون الخوارج وغيرهم من المعارضين في اتهام بني أمية بالجور والاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود ونحو ذلك من المآخذ . وها هو ذا الحسين يعدد مساوىء بني أمية فيقول : « ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلّوا حرامَ الله ، وحرّموا حلاله(٤) » . وقد اجترأ أحد خطبـاء آل

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٢ .

(٢) جمهرة ٢/١٢٤ . الختر : الغدر . رقأت العبرة : جفت . الشنف : النظر بمؤخرة العين . الملق: اللين ، ولا يبعد أن يكون الملق ، بفتح اللام .

(٣) الطبري ٤/٤٢٨ . والإدهان : الخداع والمخاتلة .

(٤) الطبرى ٤/٣٠٤ .

صوحان ، فيما يروون ، وهم من أنصار الحزب الشيعي ، على أن يقطع على عبد الملك ابن مروان خطبته ليقول له : « أنقتدي بسيرة الظلَمة الفسَقة ، الجَوَرة الخوَنة ، الذين اتخذوا مال الله دُوَلا ، وعبيده خوَلا(١) » .

٦ — ولا يقتصر خطباء الشيعة على تعداد مطاعن بني أمية ومساوئهم ، بل إنهم كانوا يدعون القوم إلى الثورة على حكمهم ويحرضونهم على مجاهدتهم انتصاراً للحق ، وابتغاء ثواب الله ومرضاته . وها هو ذا سليمان بن صُرَد رأس التوابين يحث جماعته على الخروج ومجاهدة بني أمية فيقول : « ألا انهضوا فقد سخِط ربكم ، ولا ترجِعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا مَن قتله — أي الحسين — أو تَبيروا(٢) » .

٧ — وفي سبيل تحريض القوم على الثورة وحثهم على الخروج واستمالة الأنصار إلى حزب الشيعة من طريق الإثارة العاطفية ، كان خطباء الشيعة يكثرون من التحدث عن محن آل البيت ومصارع رجال الشيعة وزعمائهم ويفتنون في تصوير ما ألم بأنصار الحزب الشيعي من اضطهاد وتنكيل . والجماعات تشعر دائماً بالعطف على الفئات المضطهدة المظلومة وبالميل إليها ، ولا سيما إذا اعتقدت أنها على حق وأن مضطهديها على ضلال . ولذلك كان الحديث عن محن آل البيت من أنجع السبل في استمالة الناس إلى الحزب الشيعي . وقد اتفق رأي المؤرخين على أن مقتل الحسين كان من أقوى العوامل في تكاثر أنصار الحزب الشيعي وإثارة النقمة الشاملة على بني أمية ، ومن هنا نجد خطباء الشيعة يحرصون على التذكير دوماً بمصرع الحسين ، مع العناية بتفصيل مقتله تفصيلا مؤثراً . صنيع عبيد الله بن عبد الله المري في خطبته التي جاء فيها : « .. ألم ترَوا وَيبلغكم ما اجترُم إلى ابن بنت نبيكم . أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته ، واستضعافهم وحدَته ، وترميلهم إياه بالدم ، وتجرارهموه على الأرض . لم يراقبوا فيه ربهم ، ولا قرابته من الرسول ﷺ . اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزرا(٣) » .

---

(١) نهاية الأرب ٧/٢٤٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/٤٢٨ . تبيروا : تهلكوا .

(٣) تاريخ الطبري ٤/٤٣٢ .

٨ — وهذا التحريض على الثورة مقترن بطلب الثأر لقتلى آل البيت . ومنذ مقتل الحسين كان طلب الثأر له شعاراً ينادي به خطباء الشيعة ودعاتهم . ثم توالت مصارع الطالبيين وكثر الطلب بدمائهم في خطب أشياعهم ، حتى إن الدعوة العباسية حين قامت كانت تدعو إلى الثأر للحسين وزيد وابنه يحيى . وكان التوابون أشد الداعين إلى الطلب بدم الحسين ، وقد وجدنا سليمان بن صرد وعبيد الله المري يحرضان جماعتهما على الثأر له في جميع خطبهما ، وفي خطبة لأحد زعماء التوابين ، هو المسيب بن نجبة ، نجد أيضاً هذه الدعوة فهو يقول ، بعد أن لام جماعته ولام نفسه لخذلانهم حسيناً : « .. فما عذرُنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا ﷺ ، وقد قتل فينا ولدُه وحبيبه وذرّيته ونسله . لا والله لا عُذرَ لنا دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك[١] » . وحين وفد جماعة من شيعة أهل الكوفة على محمد بن الحنفية ، ليتحققوا من أمر المختار ، جاء في خطبته التي وجهها إليهم : « .. وأما ما ذكرتم من دُعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه »[٢] .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن نقطة الارتكاز في خطب الشيعة هي ادعاؤهم أن الخلافة حقهم وحدهم دون سائر الأحزاب المطالبة بها ، وذلك لانتمائهم إلى البيت النبوي ، وما يدعونه من أن الرسول أوصى بالأمر لعلي بعده ، ثم حديثهم عن حق آل البيت وتحريضهم على الطلب بدماء من قتل منهم .

ومن خلال الخطب التي تركها لنا الشيعة نستجلي مدى نقمتهم وسخطهم على بني أمية الذين سلبوهم تراثهم وغصبوهم حقهم وسفكوا دماء آل البيت ، ونكلوا بزعماء الشيعة وبطشوا بوجوههم ورؤسائهم . فمن الطبيعي إذن أن تملىء صدورهم سخطاً ونقمة عليهم وعلى أعوانهم ، وأن يمتد سخطهم هذا فيطوي كل من تخلى عن نصرتهم وخذلهم وأبى أن يكون يداً معهم على أعدائهم . ومع ذلك السخط وهذه النقمة يتجلى الأسى والحزن والألم ، ومرد هذا كله إلى شعورهم بالعجز عن استرداد ما يعتقدون أنه حق لهم قد انتزع منهم كرهاً ، وإلى شعورهم بما

---

(١) الطبري ٤/٤٢٦ .

(٢) المصدر السابق ٤/٤٩٢ .

يشبه اليأس من رجوع هذا الحق إليهم ، ومرده أيضاً إلى كثرة المحن التي حلت بهم على يد أعدائهم . وقد انتهت بهم هذه المحن المتصلة إلى ضرب من الإذعان لقضاء الله والتسليم لمشيئته ، على أنه إذعان يمازجه الاعتقاد بأن الله سينتقم لهم من أعدائهم المستأثرين بالأمر دونهم ، وأن هذا الأمر سيؤول إليهم أخيراً وسيعود الحق إلى نصابه .

(د) خطب سائر المناهضين لبني أمية

١ — إن المحور الذي تدور حوله خطب سائر الثائرين على بني أمية والمعارضين لحكمهم هو أن بني أمية ليسوا أهلاً لتولي شؤون المسلمين ، وذلك للمآخذ الكثيرة التي تؤخذ عليهم ، وهي التي تحدث عنها خطباء الخوارج والشيعة أيضاً ، من جور في الأحكام ، وتعطيل لحدود الله ، واستئثار بالفيء وخروج على كتاب الله وسنة نبيه ، ونحو ذلك من المطاعن التي يجدون فيها مسوغاً لخلعهم طاعة بني مروان والثورة عليهم . ومن نقطة الارتكاز هذه ينتقلون إلى تأليب القوم على الأمويين وأعوانهم ويدعون إلى خلعهم ، ويطلبون إلى ذوي الحمية والغيرة على الدين أن يمدوهم بتأييدهم وينصروهم ليقوضوا صرح البغي والجور والطغيان . هذا مانجده مثلا في خطبة عامر بن واثلة الكناني حين وقف يدعو جيش أهل العراق لخلع الحجاج والانضمام إلى ابن الأشعث : « إن الحجاج والله ما يُبالي أنْ يُخاطر بكم ، فيُقحمكم بلاداً كثيرةَ اللهوب واللصُوب ، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه . وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يُبالي عنتهم ، ولا يبقي عليهم . اخلعوا عدوَّ الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإني أشهدكم أني أول خالع [١] . » ، ثم قام عبد المؤمن بن شبث بن ربعي تخوف القوم من التجمير [٢] ، ولم يكن شيء أشد على نفس الجند منه : « عبادَ

---

(١) تاريخ الطبري ١٤٦/٥ . اللهوب ج لهب : المهواة بين الجبلين . اللصوب ج لصب : الشعب في الجبل .

(٢) تجمير الجيش : حبسه في أرض العدو وعدم إقفاله .

الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم مابقيتم ، وجَمَّركم تجميرَ فرعون الجنودَ ، فإنه بلغني أنه أول من جمر البُعوث ، ولن تعاينوا الأحبةَ فيما أرى أو يموتَ أكثركم . بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم (١) » .

وكان زعماء المعارضة الداعون إلى الثورة على الحكم الأموي يعدون الناس بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله وبإزالة أسباب الشكوى التي كانت تدعو القوم إلى الثورة على بني أمية . وقد بايع ابن الأشعث أنصاره على « كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين » ، وكان يزيد بن المهلب يدعو أهل البصرة إلى كتاب الله وسنة نبيه ويحث على جهاد أهل الشام زاعماً أنه أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم (٢) .

٢ — ولم يكن الخطباء يكتفون بإثارة القوم على بني أمية والدعوة إلى خلع طاعتهم وتعداد مثالبهم ، بل كانوا يجاوزون هذا كله إلى الذم والشتم والقذف ، مع إظهار الاستخفاف بهم والاستهانة بقوتهم والنيل من أعوانهم ، نجد هذا مثلا في خطبة ليزيد بن المهلب حين ثار على يزيد بن عبد الملك : « أيها الناس ، إني أسمع قولَ الرَّعاع : قد جاء العباس ، وقد جاء مَسلمة ، وقد جاء أهل الشام ، وما أهلُ الشأم إلا تسعةُ أسياف ، منها سبعة معي واثنان عليّ ، وما مَسلمة إلا جرادةٌ صفراءُ ، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس أتاكم في برابرة ، وصقالبة ، وجرامقة ، وجَراجمة ، واقباط ، وأنباط ، وأخلاط من الناس ، إنما أقبل إليكم الفلاحون الأوباش كأشلاء اللجُم (٣) » .

---

(١) الطبري ٥/١٤٧ .

(٢) الطبري ٥/٣٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٩٢ . كان مسلمة بن عبد الملك يلقب بالجرادة الصفراء لصفرة لونه . أراد بنسطوس بن نسطوس الإشارة إلى أمه الرومية النصرانية . الجرامقة : قوم من العجم نزلوا الموصل . الجراجمة : نبط الشام . أشلاء اللجام : سيوره ، أراد أنهم متقطعون لا قوة فيهم .

٣ ــ ونجد في هذه الخطب أيضاً ما وجدناه في خطب الخوارج والشيعة من ذم لمن تخلوا عن نصرة الثائرين وتقريع لمن خذلوهم وغدروا بهم . وكانت تهمة الخذلان تقع أكثر ماتقع على عاتق أهل العراق . لما قتل مصعب بن الزبير خطب عبد الله أخوه خطبة نال فيها من أهل العراق الذين خذلوه ومنهـا يقول : « . . . أسلمه الطغام ، الصُلْم الآذان ، أهـلُ العراق ، وباعوه بأقـلَ من الثمن الذي كانوا يأخذونه منه (١) .. » ولما ثار ابن المهلب وأخذ الحسن البصري يثبط القوم عن نصرته خطب مروان بن المهلب خطبة نال فيها من الحسن ولقبه بالشيخ الضال المرائي (٢). وكذلك حين ثار قتيبة بن مسلم على سليمان بن عبد الملك وخلعه ودعا قبائل خراسان إلى خلعه فلم تجبه قال خطبته المشهورة التي ملأها ذماً وشتماً لسليمان والقبائـل العرب بخراسان التي تخلت عن نصرته ، وهاك طرفاً منها : « لا أعز الله من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عَنز ماكسرتم قَرنها . يا أهلَ السافلة ، ولا أقول أهل العالية . يا أوباشَ الصدقة ، جمعتكم كما تُجمع إبل الصدَقة من كل أوب . يامعشرَ بكر بن وائل، يا أهل النفج والكذب والبخل ، بأي يوميكم تفخرون ، بيوم حربكم أم بيوم سلمكم ، فوالله لأنا أعزُ منكم . يا أصحاب مسيلمة ، يابني ذميم ولا أقول تميم ، إلخ (٣) .. »

ولقاء ذم الخاذلين والمثبطين نجد زعماء الثورات يتألفون أنصارهم ويتملقونهـم بالثناء والإطراء ، صنيع ابن المهلب حين دعا أهل العراق إلى نصرته وحرضهم على قتال أهل الشأم فخاطبهم بقوله : « يا أهل العراق ، يا أهل السبق والسباق ، ومكارم الأخلاق . إن أهل الشأم في أفواههم لُقمة دَسِمـة ، قد زَبَبت لها الأشداق ، وقاموا لها على ساق ، وهم غيرُ تاركيهـا لكم بالمِـراء والجدال ، فالبسوا لهم جلد النمُور (٤) » .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤١٢ الصلم ج الأصلم : المقطوع الأذن .

(٢) الطبري ٥/٣٤١ .

(٣) الطبري ٥/٢٧٥ . أهل العالية : من أخماس البصرة وهم قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعـم وقيس عيلان ومزينة . ولما احتل أهل البصرة خراسان جروا أيضاً على طريقة الأخماس .

(٤) البيان والتبيين ١/٤١٠ وزببت الأشداق : اجتمع الريق في جوانبها وتحلب . لبس له جـلد النمر : أظهر له العداوة .

٤ وقد يشتمل بعض هذه الخطب على شيء من المفاخرة لبني أمية ، ولا سيما إذا كان الخطيب الداعي إلى الثورة عليهم عريقاً في نسبه وحسبه ، شأن ابن الزبير مثلا ، فقد كان يرى نفسه أحق بالخلافة من بني أمية ، فمن الطبيعي أن نجده في بعض خطبه يلجأ إلى التحدي والمفاخرة ، كقوله في خطبته يوم بلغه قتل مصعب : « .. وإن قتل لقد قتل أبوه وعمه وأخوه ، وكانوا الخيار الصالحين . وإنا والله ما نموت حتف آنافنا ، ما نموت إلا قتلاً قتلاً ، وقعصاً قعصاً ، بين قصد الرماح ، وتحت ظلال السيوف ، وليس كما تموتُ بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجلٌ في جاهلية ولا إسلام » .

وتتجلى في هذه الخطب عاطفة السخط والنقمة على بني أمية المستأثرين بالسلطان والنفوذ والمال ، ويمتد هذا السخط فيشمل جميع المناصرين لبني أمية والحاطبين في حبلهم ، كما يتناول أولئك الذين أعرضوا عن نصرة الثائرين وخذلوهم ، وخلوا بينهم وبين عدوهم يبطش بهم وينتقم منهم . ومع أن هؤلاء المعارضين للحكم الأموي كانوا يظهرون الغيرة على الدين الذي استبيحت محرماته وانتهكت شرائعه ، فإنهم لم يكونوا في حميتهم للدين وانتصارهم له مخلصين إخلاص الخوارج ولا صادقي العقيدة مثلهم ، والحق أن هؤلاء لم يثوروا غضباً لله ودينه وإنما طلباً للدنيا ورغبة في نيل الخلافة وطمعاً فيما وراءها من مغانم وجاه وترف ، ولهذا لم تخل خطبهم من النفاق والتملق الكاذب والرياء . وفي خطب الخوارج والشيعة من الغنى في العواطف والسمو في المشاعر والصدق والإخلاص ما لا نجده في خطب غيرهما من المناهضين لبني أمية والثائرين على سلطانهم .

ويشترك الخطباء السياسيون في العصر الأموي في أنهم جميعاً كانوا يهدفون إلى تملق المخاطبين وإرضاء غرورهم بامتداحهم وإطراء شجاعتهم وإخلاصهم ومناقبهم ، وليس أنفذ إلى قلب المرء من التملق والثناء ، ولو كان كاذباً . ثم نجد خطباء الحزب الأموي يتجهون إلى طريقة الترهيب والترغيب ، فيثيرون في نفوس المخاطبين عواطف

الخوف والرهبة من بطش الأمويين وعمالهم ، ويثيرون في الوقت عينه عواطف الرغبة والطمع في العطاء والهبات .

أما خطباء المعارضة فكانوا يرمون إلى إثارة العطف عليهم لما ينالهم من الاضطهاد والأذى ممن بيدهم السلطان والقوة ، والجماهير تميل بطبيعتها إلى العطف على العناصر المضطهدة ولو لم تكن على حق ، كما كانوا يحاولون إثارة الشعور بالحزن والرثاء لحالهم ، وذلك عن طريق ذكر المحن التي حلت بهم وتصوير الخطوب التي ألمت بهم وتعداد مصارع رجالهم واللجوء إلى ذكر التفاصيل الدامية التي تهز المشاعر وتحرك النفوس . كما كان هؤلاء الخطباء يعملون على إثارة الشعور بالنقمة والسخط على بني أمية بتعداد مساوئهم ومطاعنهم الكثيرة . وكانوا يلجؤون أحيانا إلى تحريك الشعور الديني في نفوس الجماهير التي كان يسخطها انتهاك الأمويين للمحارم والمقدسات وخروجها على أحكام الدين ، ومن هنا كان الخطباء يكثرون من ترداد بعض الألفاظ التي تؤدي هذه الغاية لقوة إيحائها وتأثيرها كلفظ « المحلين » مثلا .

ثانياً : المناظرات السياسية

كان ظهور الفرق والأحزاب السياسية في عصر بني أمية داعياً لازدهار لون من الخطابة يعتمد على الجدل وقرع الحجة بالحجة ، فضلا عن المهارة البيانية ، وهو تلك المناظرات التي كانت تقوم بين خطباء الأحزاب السياسية ، كل منهم يحاول إيراد الأدلة على صواب خطته وسلامة مبادئه وعلى أنه أحق الأحزاب بتولي أمور المسلمين .

ويمكن أن نعتبر خطب السقيفة الصورة الأولى لهذا المناظرات ، ثم وجدت بصورة أجلى وأقوى في خلافة علي حين احتدم النزاع بينه وبين الخوارج . وكان علي وابن عباس بارعين في رد دعاوي الخوارج ودحض حججهم . ثم اتسع نطاق هذه المناظرات في العصر الأموي لاشتداد النزاع حول الخلافة بين الأحزاب المختلفة .

ويعنينا هنا أن نتتبع الأفكار التي كان المتناظرون في عصر بني أمية يعتمدون عليها ويوردونها في سياق الجدل والمناظرة ، وأن نبين هل كان جدلهم مبنيًا على معرفة بالمنطق اليوناني وأصول الجدل كما وضحها أرسطو ، أو أنه كان جدلا عفويًا مستمدًا من طبيعة تفكيرهم ومن ثقافتهم العربية الخالصة .

١ — أشهر هذه المناظرات تلك التي قامت بين بني أمية وانصارهم من جانب ، وبين بني هاشم وأنصارهم من جانب آخر . ونحن نلاحظ أن هذه المناظرات على الرغم من اشتمالها على مفاخرات كثيرة لم يكن الدافع إليها العصبية العنيفة التي كانت متأصلة بين هذين الفرعين النبيلين من قريش والتي تمتد جذورها إلى العصر الجاهلي فحسب ، وإنما كان الدافع القوي إليها تلك الخصومة السياسية العنيفة التي نشبت بين هاتين الأسرتين بسبب التنازع على الحكم . ويلاحظ أن أكثرها يرجع إلى عهد معاوية ، إذ أن الخصومة بين الحزبين كانت على أشدها في هذه الحقبة .

وأود أن أسجل هنا ما سبق أن ذكرته في صدر البحث وهو أنني لا اطمئن كل الاطمئنان إلى صحة كثير من هذه المناظرات التي حفظتها لنا المصادر الأدبية والتاريخية ، ولا سيما أن جلها ينتهي بتغلب بني هاشم وظهور حجتهم على بني أمية ، وأغلب الظن أن كثيراً منها قد افتعل منذ أن تمت الغلبة لبني هاشم بقيام الدولة العباسية . وهذا ما يحملنا على التزام الحذر والاحتراس في حديثنا عنها وتتبعنا للأفكار الواردة فيها ، وعلى استبعاد ما يرجح افتعاله منها .

وحين ننظر في هذه المناظرات وغيرها نجد جلها يخرج عن الجدل السياسي المحض إلى التهاتر وذكر المثالب والمطاعن والتفاخر بالأنساب والأحساب فهي لذلك ليست مناظرات سياسية خالصة .

والفكرة الرئيسية التي تدور حولها أغلب المناظرات بين بني أمية وبني هاشم هي ادعاء كل منهما أنه أحق بالخلافة من خصمه ، ويسوق كل من الفريقين المتنازعين حججه التي تدعم دعواه . ولابد لبني أمية من الإشارة إلى مقتل عثمان ، والمن على بني هاشم بعفو معاوية عنهم وكان في وسعه أن يقتلهم أخذاً بثأر عثمان ،

والمن عليهم أيضاً بتقريب الأمويين لهم ، ولا سيما معاوية ، ووصلهم بالمال والعطاء . ولابـــد لكل من الفريقين من الفخر بالأنساب وذكر مناقب أسرته وأيامها التي انتصرت فيها وتعداد مثالب الجانب الآخر ، وقد يبلغ الأمر حد نهش الأعراض وذكر العورات وتناول الخصم بالشتم والقذف وقبيح الهجاء . ونمثل لهذا الضرب من المناظرات بمناظرة جرت بين معاوية وابن عباس ، فقد وجه معاوية القول لجماعة من بني هاشم كانوا في مجلسه فقال : « يابني هاشم ، والله إنّ خيري لكم لممنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علة ، ولا يوصد بابي دونكم مسالةٌ . ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً : إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاءُ حقكم قلتم : أعطانا دون حقنا ، وقصر بنا عن قدرنا . فصرت كالمسلوب ، والمسلوبُ لاحمدَ له . وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم » . وأجابه ابن عباس : « والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك للهُ أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك . وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين . ولنا في كتاب الله حقان : حقٌ في الغنيمة ، وحق في الفيء ، فالغنيمة ما غَلبنا عليها ، والفيء ما اجتبيناه . ولولا حقنا في هـذا المال لم يأتك منـا زائر ، يحمله خفٌ ولا حافر » (١) .

٢ — وفي الحقبة الأولى من عصر بني أمية ، وزمن معاوية خاصة ، قامت مناظرات كثيرة بين الحزب الزبيري والأحزاب الأخرى ، ونجد أن الناطق بلسان الحزب الزبيري منها هو زعيمه عبد الله بن الزبير ، وكان له من حضور بديهته وفصاحة لسانه وقوة حجته ما أتاح له أن يكون نداً لأعلام البيان وأئمة اللسن من الأحزاب الثلاثة الأخرى : الحزب الأموي والشيعة والخوارج . وفي هذه المناظرات أيضاً نجد التهاتر والتفاخر وذكر المطاعن والمثالب الشخصية وادعاء كل فريق بأنه أحق بالأمر من ســـواه ، فهي لذلك تخرج عن نطاق المناظرة السياسية بمعناها الدقيق . وفي

---

(١) العقد الفريد ٤/١١ .

مناظرة جرت بين بني هاشم وابن الزبير يعترف هذا بخروج المناظرة عن حدودها فيقول : « لم يبق يا بني هاشم غير المشاتمة والمضاربة[١] » . وفي مناظرة ابن الزبير لبني هاشم نجده يلح على تفضيل أبي بكر وعمر على علي ، كقوله من مناظرة له مع ابن عباس : « إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وفلتة ومُغالبةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أثبتَ إيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنةُ الله إلخ » . فيجيبُه ابنُ عباس مفضلا عليًّا : « على رسلك أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً إلا وصاحبنا خيرٌ مما نالا إلخ[٢] » . .

وفي حين نجد معاوية يتألف بني هاشم ويصطنعهم ويلاطفهم في القول نجده يوسع ابن الزبير زجراً وتعنيفاً وشتماً ، ويصارحه بالمقت والكراهية ويصغر من شأنه في مجالسه ، ويحط من قدره ، ويخاطبه بمثل قوله : قاتلك الله يابن الزبير ، ما أعياك وأبغاك[٣] » .

والمناظرة التي جرت بين ابن الزبير والخوارج هي نموذج المناظرات السياسية الممتازة لعدم خروجها عن نطاق المناظرة إلى المهاترة والمفاخرة ، ولاعتمادها على المبادىء السياسية والاحتجاج لها والدفاع عنها . فقد عرض الخوارج على ابن الزبير أن يوافقهم في أقوالهم التي تدعو إلى التبرؤ من عثمان في سنيه الست الأخيرة ، والتبرؤ من علي الذي حكم الرجال في دين الله ، وتكفير أبيه الزبير وصاحبه طلحة اللذين خرجا على علي وهو يومئذ إمام لم يظهر منه كفر بعد ، فإن فعل دخلوا في جماعته وبايعوه . وكان ابن الزبير لبقاً في مناظرته إياهم ورده عليهم ، فأخذ عليهم

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢/٥٠١ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤/٤٩٠ .

(٣) العقد الفريد ٤/١٦ .

تعريضهم بأبيه وبطلحة هذا التعريض المنيف مع أن الله تعالى أمر بمخاطبة فرعون بالقول اللين ، ثم استأنف الرد عليهم بالمشية فدافع عن عثمان وانتصر له وصارحهم بأنه « ولي وليه وعدو عدوه » ، كما دافع ابن الزبير عن أبيه وعن طلحة واتهم المتبرئين من عائشة بالمروق من الدين . أما علي فقد تحاشى أن يتحدث عنه بخير أو شر[١]. وتعتبر هذه المناظرات من أجود المناظرات السياسية التي خلفها لنا عصر بني أمية .

٣ — ومن المحقق أن مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج هي من خير ما وصلنا من المناظرات الأموية ، وهي مزيج من السياسة والدين ، وقد اعتمد الفريقان المتناظران فيها على الجدل والحجاج ، وترفعا عن التهاتر والتشاتم . كان عمر ولعاً بمجادلة أصحاب المذاهب فلما بلغه خروج شوذب وجماعة من الخوارج كتب إليه : « بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ، فهلمّ إليّ أناظرْك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس . وإن كان في يدك نظرنا في أمرك . » فبعث إليه شَوذَب رجلين من الخوارج يناظرانه ، وقد استهل هذان المناظرة بسؤال عمر عمن ولاه الأمر ، وهل كان ذلك عن رضا من الناس ومشورة ، وهو سؤال لا يخلو من إحراج . وأجابهما عمر أن رضا الناس عن حكمه بمثابة الشورى . فإن جار وخالف الحق فلا طاعة له على الناس . ثم حاول الخارجيان إحراجه ثانية بأن طلبا منه التبرؤ من أهل بيته الذي خالف خطتهم وسلك غير سبيلهم ، فرد عليهم رداً رفيقاً واكتفى بأن سمى أعمال من سبقوه « مظالم » ولم يرض بلعنهم ، ثم مضى ينقض أقوالهم ويظهرهم على ضلال دعوتهم بالحجة والبرهان ، وانتهت المناظرة بظهور حجة عمر واعتراف الخارجيين بأن الحق في جانبه[٢] . ومع أن عمر قد ربح الجولة الأخيرة فإنهما استطاعا إحراجه في نقطة واحدة هي إقراره ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك مع علمه بأنه ليس أهلا لذلك . وتذكر بعض

---

(١) نص المناظرة في الكامل للمبرد ٢/١٧٢ .

(٢) خبر المناظرة في العقد الفريد ٢/٤٠١ .

المصادر أن عمر قد فكر فعلا في خلع يزيد من ولاية العهد ، وأن بني أمية احتالوا لذلك في دس السم لعمر ، فلم يلبث ثلاثاً حتى مرض ومات[١] .

وكان الخوارج بارعين في الجدل والمناظرة والدفاع عن مبادئهم ، وقد أقر لهم مناظروهم بهذه البراعة ، وقد روى المبرد أن أحد الخوارج ناظر عبد الملك بن مروان وأخذ يزين له من مذهب الخوارج ودعوتهم بلسان طلق وألفاظ بينة ، مما حمل عبد الملك على القول : « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأني أولى بالجهاد منهم[٢] » .

إن اعتماد المناظرات السياسية على الجدل والإقناع بالحجة والبرهان قد يوهم أن المنطق اليوناني كان له أثره في هذه المناظرات وأن المتناظرين كانوا يعتمدون على أصول علم الجدل Dialectique كما وضحها أرسطو ، وبهذا تكون الخطابة العربية مدينة للثقافة اليونانية بهذا الفضل . والواقع أن المناظرات السياسية الأموية بريئة من أي تأثير أجنبي ، وهي فن عربي خالص . وربما ظهر بعض الأثر الأجنبي في الجدل الذي قام بين أصحاب العقائد والمذاهب الدينية ، أما في المناظرات السياسية فكان اعتماد المتناظرين على سليقتهم الفطرية ، وعلى ثقافتهم العربية ، وعلى طبيعتهم في التفكير والجدل . ولم يكن منطق أرسطو قد عرف في ذلك الحين ، إذ أن كتب الفلسفة والمنطق لم تكن قد ترجمت بعد . وإذا كان للأثر الأجنبي أن يظهر فمن طريق الخطباء الذين هم من أصل غير عربي ، فنمط تفكيرهم قد يغاير نمط تفكير العرب الخلص ، على أن العناصر غير العربية لم تكن لها مشاركة جادة في الخطابة السياسية ، فكان أكثر الخطباء السياسيين عرباً ، وكان أسلوبهم في التفكير والمناظرة لذلك عربيًّا لا عجميًّا ، وكانت ثقافتهم عربية تستمد من القرآن الكريم والشعر العربي وخطب أسلافهم وأقوالهم . وليس عجيباً أن يلجأ الخطباء المتناظرون إلى اصطناع المنطق وأسلوب الجدل والاحتجاج ، إذا أردنا بهما مدلولهما اللغوي البسيط لا مدلولهما الفلسفي

(١) تاريخ الطبري ٣١١/٥ .

(٢) الكامل للمبرد ١٤٦/٢ .

المعقد ، فإن أي خطيب نير الذهن متوسط الثقافة قادر على ترتيب أفكاره وإيضاحها والدفاع عنها ، يحسن استخدام الأسلوب المنطقي الجدلي بمدلوله البسيط ، وهذا ما نجده في المناظرات السياسية التي انتهت إلينا ، ونحن لا نجد فيها طريقة خطباء اليونان الجدلية الفلسفية ، وهذا ما يفضي بنا إلى تأكيد ما ذهبنا إليه من أن المناظرات السياسية فن عربي خالص .

* * *

ثالثاً : المشاورات السياسية

كانت الأحوال السياسية في عصر بني أمية كثيراً ما تدعو إلى عقد مجالس للتشاور وتبادل الآراء ، وفي هذه المجالس كان يتكلم من عرف من القوم برجاحة الفكر وصواب الرأي وبعد النظر ، كل يدلي برأيه ويشير باتخاذ موقف ما إزاء الحدث السياسي الخطير الذي أوجب اجتماع القوم لتبادل الرأي والمشورة . وفي هذه المجالس الشورية كانت تتجلى براعة الخطباء السياسيين في استمالة القوم إلى آرائهم وإقناعهم بصواب نظرتهم . وهذه المداولات شبيهة بالمجالس التي كانت تعقدها القبيلة في العصر الجاهلي للتشاور فيما يلم بها من أحداث وخطوب . وهي ظاهرة لها شأنها في دلالتها على تشبع العربي بالروح الديموقراطية التي تنافي الاستبداد بالرأي والانقياد الأعمى للموجهين والزعماء .

١ — من مجالس المناظرة المشهورة في عصر بني أميـــة ، تلك التي عقدها الخوارج للتشاور بشأن الخروج على سلطان بني أمية ، وأكثرها كان في زمن معاوية ابن أبي سفيان . وقد تكلم في هذه المجالس بعض أعلام الخوارج كالمستورد بن علفة ، وَحيَّان بن ظبيان ، ومُعاذ بن جوين ، ومما قاله ابن جوين في حض جماعته على الخوارج: « يا أهل الإسلام ، إنا والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة ، وإنكار الجَور ، كان لنا به عند الله عذر ، لكان تركه أيسرَ علينا ، وأخف من ركوبه . ولكنا قد علمنا واستيقنّا أنه لا عُذرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع حتى نُنكر الظلم ،

ونُغَيِّر الجور ، ونُجاهد الظالمين[١] » . والأفكار التي نجدها في هـــذه الخطب الثورية لا تخرج عما وجدناه في خطب الخوارج عامة من مسوغات الخروج والثورة على سلطان بني أمية .

٢ — ولما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد قبيل وفاته لم يشأ أن يبت بالأمر قبل أن يستشير ذوي الرأي ومن لهم مطمع في تولي الخلافـة بعده ، ليستوثق من رضى القوم بيزيد ومبايعتهم إياه ، ويعرف المعارضين للفكرة ومن يتوقع منازعتهم يزيـد الأمر ليحذر جانبهم . وقد وجدنا معاوية في وصيته ليزيد يحـذره أمر هؤلاء الذين ثبت له خلافهم ومعارضتهم ، ويرشده إلى الخطة التي ينبغي له سلوكها إزاءهم . وقـد روى المدائني أنه لما مات زياد سنة ثلاث وخمسين « أظهر معاوية عهداً مفتعلا فقرأه على النـاس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويعطي الأقارب ويداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس[٢] » .

وبعد أن قام معاوية بسبر نفوس طائفة كبيرة من المؤيدين والمعارضين وصح عزمه على تولية يزيد عهده كتب إلى وفود الأمصار أن يقدموا عليه ، وأظهر أنه يريد أن يستشيرهم في أمر ولاية يزيد ، وأوعز إلى أصحابه أن يخطبوا في تأييد هذا الأمر . وكان من الخطباء المؤيدين يومئذ الضحاك بن قيس وعمرو بن سعيد الأشدق ويزيـد بن المقنع وعبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، وأكثر هذه الخطب مداره على أن الزمن العصيب الذي هم فيه يفتقر إلى خليفة حازم أريب ينهض بالأمر بعد معاوية ، وأن ليس ثمة أصلح للأمر من يزيد لما يتمتع به من مزايا ليست لأحد غيره . إلا أن يزيـد بن المقنع سلك في خطبته غير هذا المسلك ، فهو لم يتوخ الإقناع والاستمالة وإنمـا اعتمد على الترهيب فحسب واكتفى بهذه الخطبة المسرفة في إيجازها : « أمير المؤمنين هذا — وأشـار

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٢٩ .

(٢) العقد الفريد ٤/٣٦٨ .

إلى معاوية — ، فإن هلك فهذا — وأشار إلى يزيد فمن أبى فهذا — وأشار إلى سيفه . » وقد أعجب معاوية بكلمته هذه فجعله سيد الخطباء[١] .

وممن عارض في الأمر يومئذ الأحنف بن قيس ، سيد تميم البصرة ، وقد ذكر صاحب العقد أن الناس تفرقوا ولم يذكروا إلا كلام الأحنف . وفي مجلس آخر كان ممن عارض في ولاية يزيد الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وكان اعتراضهم منصبًّا على أن في المسلمين من هو أجدر من يزيد بتولي الخلافة ، وأن الأولى ترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم[٢] .

٣ — ولما هم الحسين بالتوجه إلى الكوفة تلبية لدعوة أهلها أشار عليه أخوه محمد ابن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عباس وغيرهما بالعدول عن هذا الأمر خوفاً من أن يغدر به أهل الكوفة ويخذلوه خذلانهم أباه بالأمس . وقد أشار عليه ابن عباس ألا يأتيهم إلا إذا نفوا عدوهم عن بلدهم ، وكان مما قاله في معرض النصح : « إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم . أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك ، كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم[٣] » . ولكن الحسين يأبى إلا المضي إلى الكوفة . ثم لما تحقق من خذلان القوم إياه وأنه لا محالة هالك استشار صحبه في الأمر ، وأشار على أنصاره القلائل بأن يفارقوه ، فهم في حل من عهدهم له : « ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حِلّ ، ليس عليكم مني ذِمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخِذُوه جَملا[٤] » . . ولكن أنصاره وأهل بيته أبوا فراقه وتكلم عدد منهم وأظهروا أنهم على العهد وأنهم ليسوا بمسلميه حتى يهلكوا معه . وكان من أبلغ المتكلمين من جماعته يومئذ زهير بن القين .

---

(١) العقد الفريد ٤/٣٧٠ .
(٢) العقد الفريد ٤/٣٧١ .
(٣) تاريخ الطبري ٤/٢٨٨
(٤) المصدر السابق ٤/٣١٧ .

٤ — وبعد مقتل الحسين تداعى الشيعة بالكوفة وتلاوموا لخذلانهم حسيناً وتابوا إلى الله مما فرط منهم، واجتمعوا في منزل رئيسهم سليمان بن صرد ليتشاوروا فيما يصنعونه. وفي هذا المجلس خطب عدد من رؤساء التوابين منهم المسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وسليمان بن صرد، وقد اتفقت كلمتهم في هذه الخطب على أنهم أتوا حوباً عظيماً بخذلانهم الحسين والتخلي عن نصرته، وأن لا شيء يمحو ذنبهم إلا الأخذ بثأره والطلب بدمه. ثم بايعوا شيخهم سليمان بن صرد واتمدوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام. ولما علم أمير حرب الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن يزيد بأمرهم جمع الناس في المسجد وقام فخطبهم داعياً الشيعة إلى أن يثأروا للحسين من أهل الشام القادمين نحوهم بقيادة ابن زياد وأنه ومن معه لهم ظهير ونصير: «والذي قتل من تثأرون بدمه قد جاءكم، فاستقبلوه بحَدّكم وشوكتكم، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم. إني لم آلكم نصحاً، جمع الله لنا كلمتنا، وأصلح لنا أئمتنا[1]». وقد تكلم في هذا المجلس أيضاً طائفة من الخطباء، كل يدلي برأيه، واجتمعت كلمة التوابين على الخروج وحدهم للقاء جيوش أهل الشام.



رابعاً: الخطب الحربية

كثرة الفتوح الخارجية والحروب الداخلية في عصر بني أمية استدعت ازدهار الخطابة الحربية في هذا العصر، وهي الخطب التي تحض على قتال العدو وتذكي الحماسة في نفوس المقاتلين وتحملهم على الاستبسال والاستشهاد. والخبير بنفس العربي السريعة الانفعال والتأثر، السريعة الاستجابة للكلام الرائع والبيان الناصع، يقدر المنزلة الخطيرة التي احتلتها الخطابة الحربية في العصر الأموي، ومدى انتفاع قادة الجيوش وزعماء الثائرين بالخطباء والقصاص، ومن هنا كان حرصهم على اصطحاب عدد منهم في كل موقعة يخوضونها، وما كان يغنيهم عنهم وفرة الأبطال والسلاح. وحين كان عتاب بن ورقاء يقاتل شبيبا الخارجي أراد أن يستعين بالقصاص في

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٥.

استنهاض عزيمة رجاله وإذكاء حماستهم فنادى ، أين القصاص . فلم يجبه أحد ، فأسقط في يده وأيقن أنه هالك لا محالة(١) .

وكنا نتوقع أن تكون الخطب الحربية الأموية التي انتهت الينا متناسبة في وفرتها مع كثرة الفتوح والحروب الداخلية في هذا العصر ، ولكن ما وصلنا من هذه الخطب قليل جدًّا بالقياس إلى عدد الغزوات والمعارك التي جرت في العصر الاموي . ومما يلفت النظر أننا لا نجد خطبة واحدة قيلت إبان غزوات العرب لبلاد الروم ، ومن المحقق أن خطباً عديدة قيلت في هذه الفتوح وغيرها ولكنها فقدت فيما فقد من خطب العصر الأموي .

وتنقسم الخطب الحربية الأموية إلى الأقسام الثلاثة التالية :

١ — خطب الفتوح والمغازي .
٢ — خطب الحروب الداخلية .
٣ — القصص .

وسأوجز القول في الأفكار التي يشتمل عليها كل منها .

١ — في خطب الفتوح والمغازي يعمد الخطيب ، وهو في الغالب قائد الجيش ، إلى ترغيب الجند في الجهاد ابتغاء ثواب الله ، وطمعاً في الغنيمة والكسب ، وإعلاء لكلمة الدين وراية الإسلام . وهو يذكرهم بالآيات القرآنية التي تعد المجاهدين بالنصر والفلاح والثواب العظيم ، ويزين لهم الاستشهاد في سبيل الله ، ويطري شجاعتهم وإقدامهم وبلاءهم في الحروب ، ويهون من شأن الأعداء ويستخف بقوتهم وعددهم ، ويحذرهم غدرهم وبياتهم ، ويخوفهم الهزيمة والفرار وما وراءهما من خزي وعار يلصقان بهم أبد الدهر . وهذه خطبة قصيرة لقتيبة بن مسلم حين بلغه مسير جيوش الشاش وفرغانة نحوه ، وهي نموذج للخطابة الحربية : « إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييدهَ إياكم في مُزاحفتكم ومكاثرتكم ، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم ، فأجمعوا

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٨٩ .

على أن يحتالوا غرّتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم . وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد فضّلكم الله بدينه ، فأبلُوا الله بلاء حسنا تستوجبون به الثواب مع الذب عن أحسابكم[١] » .

وربما عمد الخطيب إلى تيئيس الجند من إمكان الفرار ، وتخييرهم بين الاستبسال في مناجزة العدو وبين الهلاك المحقق بأيديهم ، صنيع طارق بن زياد في خطبته المشهورة بالأندلس : « أيها الناس ، أين المفرّ . البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، فإنهما لا يُغلَبان وهما جندان منصوران ، ولا تضر معهما قلة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعُجْب كثرة[٢] » . . . وفي رواية أخرى لهذه الخطبة نجد طارقاً يلجأ إلى أسلوب الإغراء فيصف لجنده ما تزخر به الجزيرة من الحور العين ، والجواهر النفيسة ، والغنائم الوفرة : « وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمَرجان ، والحُلَل المنسوجة بالعِقيان ، إلخ[٣] . . » .

٢ — وفي خطب الفتن والثورات نجد خطباء كل فرقة يحضون جماعتهم على القتال ، مدعين أنهم إنما يجاهدون الكفار والمراق ، وأن الله لذلك معهم ، وهو ناصرهم على عدوهم ، وأن من قتل منهم فهو شهيد مصيره جنة الخلد . وربما استعان الخطيب ببعض الآيات القرآنية لشد العزائم وإذكاء الحماسة والترغيب بالقتال ، ولا بد له من إطراء شجاعة أنصاره وحسن بلائهم ، ومن تحقير أعدائهم وإظهار الاستخفاف بهم ، وتخويف القوم من سوء العاقبة إذا ما منوا بالهزيمة ولم يذبوا عن أعراضهم وأحسابهم . وها هو ذا المهلب بن أبي صفرة يحض جنده على قتال الأزارقة فيقول : « يأيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج . وأنهم

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٢٥٢ . البيات : مهاجمة العدو ليلا . الدهاقين ج دهقان : الرئيس من العجم .

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢/١١٧ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/١٧٧ .

إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم . . . . فالقـوم بجـد وحد فإنما هم مِهَنَتُكم وعبيدكم ، وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاءِ على فَيئكم ، ويَطؤوا حريمكم [١] . وربما ضمن القائــــد خطبته الخطة الواجب اتباعها في مقاتلة العدو ، وتحذير جماعته من البيات والغرة ، وتذكيرهم بوجوب الاحتراس والحذر . نجد مثلا المستورد بن علفة يقول من خطبة له يشرح فيها لجماعته من الخوارج خطته في لقاء العدو : « إني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت ألا أقيم لهم حتى يقدموا ، وهم جامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أمعن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبددوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل [٢] » .

وقد يجنح الخطيب إلى التعنيف والتقريع ، والإنـذار والوعيد ، إذا آنس من رجاله الوهن والعجز ، والتراخي في قراع الأعداء . فعل مسلم بن عقبة حين وقف يحرض أهل الشام على قتال أهل المدينة في موقعة الحرة ويقول : « يا أهل الشام ، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يعزوا بـه نصر إمامهم . قبَح الله قتالكم منذ اليوم ، ماأوجعَه لقلبي ، وأغيَظه لنفسي . أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرَموا العطاء ، وأن تجمّروا في أقاصي الثغور . شدّوا مع هذه الراية ، ترّح الله وجُوهكم إن لم تُعتِبوا » [٣] .

٣ ــ تحـدثت في فصل المؤثرات الدينية عن نشأة القصص الديني في الإسلام ، وكان القصاص يتولون تفسير آيات الكريم مستعينين بقصص مستمـدة من مصادر شتى ، ومن هنا أطلق لفظ « القصص » على هـذا الضرب من الوعظ الديني والتفسير القرآني .

ثم رئي الاستعانة بالقصاص في تحريض القوم على القتال ، ويبدو مما أوردناه

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١٩٢ . المهنة : العبيد والخدم .

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٤٧ .

(٣) الطبري ٤/٣٧٥ . أعتبه : أرضاه .

قبل من كلام عتاب بن ورقاء أن الاعتماد على القصاص في الحروب والمغازي أصبح شيئاً مألوفاً في عصر بني أمية . ويذكر الطبري أن ابن الأشعث اصطحب معه حين ثار على الحجاج ، ذرا القاص وكساه وأعطاه[١] . وكانت خطب القصاص عمتزج فيها الوعظ بالحض على القتال والترغيب في الجهاد ، وكان القاص يحرص على التمثل بآيات من القرآن الكريم تؤدي الغرض المقصود من إثارة حماسة المقاتلين وترغيبهم في القتال وحثهم على الاستشهاد في سبيل الله ، وربما عمد إلى تفسير هـذه الآيات وشرحها مستعيناً بقصص الأنبياء وأحاديث الأمم الغـابرة . ويختلف القصص عن الخطب الحربية الخالصة بأنه أكثر اتكاء على المعاني الدينية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وبامتزاجه بالوعظ والتزهيد في الدنيا ، وبأن عنصر الترغيب فيه معنوي لا مادي ، فالقاص لا يرغب في نيل المغانم الحربية وإنمـا يرغب في نيل ثواب الله ودخول جنته والتمتع فيها بما وعد الله عباده الصالحين . ومن القصص الذي وصلنا بعض قصص صالح بن مسرح ، أحد رؤوس الصفرية ، فمن قصصه قوله في خاتمة خطبـة له بدأها بالوعظ والتزهيد في الدنيا وتحدث فيها عن حكم رسول الله وخلفائه من بعده : « .. فتيسروا رَحِمَكم اللهُ ، لجهاد هذه الأحزاب المتحزِّبة ، وأئمةِ الضلال الظلـَمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحـاقِ بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماسَ رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعوا من القتل ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم ، غير ما ترجُم الظنون ، فمفرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم ، وحلائلكم ودنياكم ، وإن اشتد لذلك كرهكم وجزعكم . ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم ، تدخُلوا الجنة آمنين ، وتُعانقوا الحور العين[٢] » .

خامساً : الوصايا السياسية والحربية

من ضروب الخطابة السياسية هذه الوصايا التي كان الخلفاء وأقطاب الساسة يوصون بها ذويهم أو عمالهم أو قادتهم ، يرشدونهم فيها إلى الطريق التي ينبغي لهم أن يسلكوها ،

(١) الطبري ٥/١٤٧ .
(٢) الطبري ٥/٥٠ .

والسياسة التي يتبعونها، والخطة التي ينتهجونها. وربما صدرت الوصية عمن عرف بالخبرة السياسية أو المهارة الحربية والدهاء وبعد النظر، ولو لم يكن من رجال الحكم وأرباب السلطة. وهذه الوصايا منها ما هو سياسي خالص يتناول أسلوب الحكم وطريقة معاملة الرعية ونحو ذلك، ومنها ما هو حربي يتناول خطة القتال وفن الحرب.

١ — الوصايا السياسية تعكس ما يتحلى به الموصي من دهاء وبعد نظر وحنكة سياسية وخبرة بنفوس الرعية وطريقة معاملتها، وهذه الصفات كانت متوافرة في أكثر خلفاء بني أمية ولا سيما في معاوية وعبد الملك. ومن هنا كان حرصهم أن يوصوا أولياء عهدهم وأبناءهم وذويهم بما ينبغي عليهم اتباعه بعدهم، وتزويدهم بثمرة تجاربهم السياسية، ووصية معاوية لابنه يزيد من خير الوصايا السياسية التي خلفها لنا العصر الأموي، فهي تكشف عن حنكة سياسية لا تتوافر إلا لأفذاذ الساسة وعباقرة الحكام، ونقف منها على صورة حقيقية لخلائق أهل كل مصر: « .. انظر أهلَ الحِجاز، فهم عصابتك وعِتْرَتُك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهَّدْه، وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزلَ عامل في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم. ثم انظر أهلَ الشام، فاجعلهم الشِّعار دون الدثار، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم، فإن أظفرك الله فاردُد أهل الشام إلى بلادهم، لا يُقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير آدابهم. لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي. فأما عبد الله بن عمر، فرجل قد وقذَه الوَرع. وأما الحسين، فأرجو أن يَكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه. وأما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضَبٌّ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إربا[1] ». ولمعاوية أيضاً وصايا أخرى تنم عن مهارته السياسية، منها وصيته للمغيرة بن شعبة حين ولاه الكوفة وأمره فيها بشتم علي والترحم على عثمان[2].

---

(١) العقد الفريد ٨٧/٤. عترة الرجل: رهطه الأدنون. الشعار: ما يلي الجسد من الثياب. والدثار ما يلي الشعار. وقذه: غلبه.

(٢) انظر الطبري ١٨٨/٤.

ولعبد الملك وصية وجهها لولده قبل وفاته خطط فيها أيضاً سياسة بني أمية نحو رعيتهم ، منها قوله يخاطب الوليد : « إذا أنا مُتّ فشمّر واتّزِر ، والبَس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرِب عُنقه ، ومن سكت مات بدائه [1] » . وعلى الجملة فالوصايا السياسية التي خلفها لنا عصر بنى مروان تبرز الخطوط العامة للأساليب السياسية المتبعة في ذلك العصر .

٢ — أما الوصايا الحربية فكانت الغاية منها تعريف الموصى له بأساليب القتال في حالتي الهجوم والدفاع ، وفقاً لأصول فن الحرب (التاكتيك) المتبعة في ذلك العصر . وليس بين أيدينا وصايا خطابية مفصلة دقيقة توضح لنا الخطط الحربية التي كان قادة الجيوش يجرون عليها ، وقد روى ابن عبد ربه وصية لعبد الملك وجهها إلى قائد له سيره إلى بلاد الروم وهي غاية في الإيجاز : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً اتجر ، وإلا تحفظ برأس المال . ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة . وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك [2] » . وكان قتيبة بن مسلم يوصي رجاله فيقول : « إذا غزوتم فأطيلوا الأظفار ، وقصروا الشعور ، والحظوا الناس شزراً ، وكلموهم رمزاً ، واطعنوهم وخزاً » [3] . وقد كانت الوصايا الحربية المكتوبة أكثر شيوعاً ، وأوفر عناية بالتفصيل والتوضيح ، وأشهرها الوصية التي كتبها عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله حين وجهه لقتال الضحاك بن قيس الخارجي .

---

(١) مروج الذهب ١٢١/٢ .
(٢) العقد الفريد ١٥٥/١ .
(٣) العقد الفريد ١٥٨/١ .

الخصائص الفنية للخطابة السياسية

(أ) الطابع البدوي

ثمة ظاهرة تلفت النظر في الخطابة الأموية عامة ، والخطابة السياسية خاصة ، هي أن هذه الخطابة لم تساير تمام المسايرة حياة التحضر التي انتقلت إليها كثرة العرب في هذا العصر ، فظلت الخطابة بوجه عام تحمل في أسلوبها طابعاً أدنى إلى البداوة، سواء في ألفاظها أو في تراكيبها أو في الأبيات التي كان الخطباء يتمثلون بها .

ويبدو لي أن تأثر الخطابة الأموية بهذا الطابع مرده إلى أن البيئة البدوية كانت تعتبر في هذا العصر موطن الفصاحة الأصيلة والبيان العربي الناصع السليم من شوائب اللحن واللكنة ، وكان البلغاء لذلك يقصدون البادية ليقوموا ألسنتهم بمشافهة أهلها . ولما كانت الخطابة فناً قولياً يرتكز على فصاحة اللسان كان المثل الأعلى لهذه الفصاحة يتمثل في فصاحة الأعراب وأهل البادية ، ومن هنا كان الخطباء الحضريون يحاولون محاكاة خطباء البادية في أسلوبهم . وقد أثر عن بعض خطباء الحضر ما يدل على تعمد هذه المحاكاة . كالذي حكي عن خالد بن صفوان من أنه تكلم في صلح فقام أعرابي فأجابه بخطبة أبلغ من خطبته فقال خالد في مجال التعليق على بلاغة الأعرابي : « وكيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم أم كيف نسابقهم ، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم[1] » . وثمة دافع آخر إلى هذه المحاكاة هو إظهار الخطيب نفسه بمظهر الرجل الجافي القوي الشديد البطش ، لأن الطابع البدوي يوحي بهذه القوة . وأغلب الظن أن هذا الدافع هو ما حمل الحجاج على طبع خطبه بالطابع البدوي الأعرابي الجافي ، وكان لذلك يتعمد أن تكون الأبيات التي يتمثل بها في خطبه مأخوذة عن شعراء البادية ، وكذلك أمثاله وصوره كانت مستمدة من البيئة البدوية . بل إن المحاكاة قد جاوزت الأسلوب إلى طريقة الأداء فكان خطباء الحواضر يتشادقون ويتقعرون في خطبهم تقليداً منهم لخطباء البادية .

---

(١) البيان والتبيين ١/١٧٣.

وحظ الخطب السياسية من هذا الطابع البدوي يتفاوت باختلاف طبائع الخطباء وثقافتهم وبيئتهم. ومن الطبيعي أن يكون هذا الطابع في خطب البداة أبرز وأقوى منه في خطب سكان الحواضر ، ولم يكن خطباء البادية يتحاشون من استعمال الألفاظ النابية الصريحة التي كان ذوق أهل الحضر يأبى عليهم استعمالها . وقد أثر عن الرسول قوله : « من بدا جفا[١] » وخير ما يمثل الطابع البدوي القح خطبة وكيع بن أبي سود التي قالها بخراسان عقب قتله قتيبة بن مسلم ، فقد استهلها بأبيات من الشعر في التحدي والمفاخرة ثم قال : « والله لأقتلن ثم لأقتُلَنَّ ، ولأصلبن ثم لأصلبن ، إني والغٌ دماً . إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعاركم ، والله ليصيرنَّ القفيزُ في السوق غداً بأربعة أو لأصلبنه . صلّوا على نبيكم »[٢] . وبين ما في هذه الخطبة من جفاء الأسلوب وبداوة التعبير وسذاجة التفكير . وقد يكون خطباء أهل البادية أقدر على الأداء الفصيح من أهل الحضر ، وأبرع منهم في التعبير عن أفكارهم بالعبارة الموجزة ، ولكنهم دون شك يتخلفون عنهم في مضمار الأفكار والتنسيق الفني والصنعة ، وقد أشار الجاحظ إلى ما يتصف به خطباء الأعراب الجفاة من سذاجة التفكير وضآلة حظهم من الثقافة والمعرفة بالدين[٣] .

وكانت الخطابة الدينية أقل ضروب الخطابة تأثراً بهذه الروح البدوية لسببين : الأول أن كثيراً من الخطباء الدينيين كانوا من غير العرب ، ولم يكونوا قادرين على محاكاة العرب الخلّص في أسلوبهم . والثاني : أن الروح الدينية بطبيعتها تجافي الروح البدوية ، فضلا عن أن القرآن قد لطف كثيراً من جفاء الأسلوب الخطابي البدوي .

(ب) التنسيق

أول ما يفتقر إليه الأسلوب الخطابي التنسيق ، والمراد به حسن اختيار الألفاظ

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣ .

(٢) الطبري ٥/٢٨٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٦٣ .

والتعابير الشائقة ذات الدلالة الواضحة والمؤدية للمعنى المراد التعبير عنه ، دون لبس ولا غموض ، مع العناية بترتيب الألفاظ والعبارات لتكون واضحة الدلالة على المعاني. فإن من يستمع إلى خطبة ما ينبغي أن تصل إليه أفكار الخطيب واضحة جلية منسقة كي تتحقق الغاية من الخطبة وهي الإقناع العقلي والاستمالة العاطفية ، وأي غموض أو اضطراب في التعبير يخل بهذا الغرض ، وليس لدى السامع فسحة من الوقت تتيح له إنعام النظر في أقوال الخطيب لاستجلاء معانيه ، وهو بهذا يختلف عن القارىء الذي يتسع له المجال أن يعيد قراءة عبارة الكاتب أكثر من مرة حتى يدرك معناها ، فالخطيب مطالب إذن بترتيب أفكاره وتنسيق عباراته وتجنب التعابير الملتوية والغامضة ، والألفاظ المبهمة الدلالة ، وكل ما من شأنه أن يجعل إدراك المعنى عسيراً أو بطيئاً ، كالإكثار من الجمل الاعتراضية ، وإطالة الجملة إطالة مسرفة وإيراد الألفاظ الغريبة الحوشية . وعليه أن يرتب ألفاظه وجمله ترتيباً منسقاً واضحاً يحقق نقل أفكاره إلى السامع نقلا سريعاً يفضي إلى سرعة التأثر والاستجابة من جانبه .

والخطباء السياسيون الممتازون في العصر الأموي كانوا شديدي الحرص على هذه الخصلة ، والعربي بطبعه يؤثر الوضوح ودقة التعبير ، فقلما نجد في خطبهم التواء في التعبير أو اضطراباً في الترتيب أو تعقيداً لفظيًّا أو معنويًّا ، وخطبة زياد البتراء خير نموذج يبرز لنا عنصر التنسيق في الخطابة السياسية الأموية .

ولا يشذ عن هذا الحكم العام إلا خطب قليلة ظهر فيها تكلف الغريب من اللفظ ، وذلك كقول عبد الرحمن بن عثمان الثقفي في خطبته التي يؤيد فيها جعل ولاية العهد ليزيد بعد معاوية : « أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمن مختلفة أهواؤُه ، قد احدودبت علينا سيساؤُه ، واقطوطبت علينا أدواؤه [1] .. »

(ح) الإيجاز

في طليعة الدعائم التي يقوم عليها الأسلوب الخطابي الإيجاز ، ولا تظهر روعة

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١/١٢٢ . السيساء : منتظم فقار الظهر . اقطوطبت : اجتمعت .

الأداء الخطابي إلا في مقدرة الخطيب على التعبير عن أفكاره تعبيراً موجزاً مركزاً فإن من شأن هذا التركيز أن يضفي على الأسلوب الخطابي الرشاقة والحركة ويمده بالحياة والقوة ، فيكون له أبلغ الوقع وأقوى الأثر في نفس السامع ، وما ظفر خطيب الإغريق الأشهر ديموستين بشهرته الخطابية البعيدة ، وبتفوقه على أقرانه إلا بفضل براعته العجيبة في التعبير عن أفكاره باللفظ الموجز اليسير مع الدقة في الأداء .

والإيجاز من سمات البلاغة العربية الأصيلة منذ أقدم عصورها ، ويكاد تعريف البلاغة يرادف عند بعضهم لفظ الإيجاز ولا يعدوه . وهذه الموهبة التي عرف بها العرب الخلص والتي هي قوام بلاغتهم ، بدأ شأنها يضعف منذ قوى اختلاط العرب بالعجم ، ذلك الاختلاط الذي كان من أظهر آثاره فساد السلائق البيانية واللغوية، فمالت العبارات منذئذ إلى الطول والاستفاضة ، وبدأت الجملة العربية تتمطى وتتثاءب فتفقد بذلك رشاقتها وحيويتها . أما في العصر الأموي فقد كانت السلائق البيانية لم تزل بعد بمنجاة من الفساد لأسباب كثيرة تحدثت عنها آنفاً ، فغلبت سمة الإيجاز على الخطابة الأموية ، ولا سيما السياسية منها . فكان الخطيب الجيد يكتفي في التعبير عن فكرته بالعبارة القصيرة الموجزة يبلغ بها من نفس سامعيه ما يريد ، فتأتي لذلك خطبته رشيقة ، سريعة الحركة ، نابضة بالحياة . ولو أنه سلك غير هذا المسلك لاتهم بالعي والتقصير ، ولكان خليقاً بأن يضيق به سامعوه ، وينصرفوا عنه .

ومن مظاهر الإيجاز في التعبير طرح الفضول والاستغناء عن ذكر كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام وعدم الخوض في تفاصيل الأمور ، والاجتزاء بالإشارة العابرة واللمحة السريعة ، وتجنب الترداد والحشو وإطالة الجمل . وخطب عتبة بن أبي سفيان خير ما يمثل لنا سمة الإيجاز في الخطب الأموية ، وهذه خطبة له بمكة يحذر القوم فيها من الفتنة : « أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يضاعف فيه المحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له . فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمن حتفه في أمنيته،

فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم . وإياكم ولوًّا ، فإن (لوًّا) قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريحَ من بعدكم . وأنا أسأل الله أن يُعين كلاًّ على كُلٍّ (١) » .

(د) الأسلوب العاطفي

من مميزات الأسلوب الخطابي أنه يهدف إلى إثارة مشاعر المستمعين والتلاعب بعواطفهم . ومخاطبة العواطف تحتاج إلى أسلوب خاص هو ما دعوناه بالأسلوب العاطفي . ومن ركائز هذا الأسلوب الاتكاء على الأسلوب الإنشائي باستخدام صيغ النداء والتعجب والاستفهام والتساؤل والتمني والخطاب (الأمر والنهي) ، مع ما تؤديه هذه الصيغ من معانٍ إضافية كالتوبيخ والتقريع والتهديد والدعاء والتيئيس والتهكم والتحقير ونحو ذلك . ومن ركائز هذا الأسلوب أيضاً البراعة في استخدام الألفاظ القوية الإيحاء أو التي تؤثر في النفس بجرسها ورنينها . ومن ركائزه أيضاً اللجوء إلى إيراد الصور المثيرة للخيال قصد التهديد أو الإغراء أو التنفير أو غير ذلك . ومن ركائزه أخيراً اللجوء إلى أسلوب التوكيد من طريق استخدام أدوات التوكيد البلاغية والقسم والتكرار . وكل أولئك من سمات الخطابة السياسية الأموية ، مع تفاوت الخطباء في مدى براعتهم في استخدام الأسلوب العاطفي ، وهذا مقطع من خطبة زياد البتراء يمثل هذا الأسلوب : « أتكونون كمن طَرَفت عَينيه الدنيا ، وسدّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من تركِكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخيرُ المنصوبة . والضعيفةُ المسلوبة في النهار المبصر ، والعددُ غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواةَ عن دَلَجِ الليل ، وغارة النهار ... وإني أقسم بالله ، لآخذنّ الوليّ بالمَولى ، والمقيمَ بالظاعن ، والمقبل بالمُدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعدُ فقد هلك سُعَيد ، أو تستقيمَ لي قناتكم » .

---

(١) أمالي القالي ١/٢٤٠ .

والخطبة المنسوبة إلى السيدة أم كلثوم بنت علي ، والتي يقال إنها خاطبت بها أهل الكوفة عقب مقتل أخيها الحسين تكاد تجري كلها على هذا الأسلوب[١] . وفي خطابة أبي حمزة بالمدينة نجد مثالاً لأسلوب التكرار : « ثم ولى بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القرود ، إلخ[٢] » . والبلاغيون القدامى يرون في استعمال أسلوب التوكيد تقريراً للفكرة في ذهن المخاطب ، وقد أغفلوا نفسية المتكلم ، فهي التي تدعوه أحياناً إلى استخدام أساليب التوكيد تنفيساً عن شعوره وبدافع عاطفته المتأججة لا مراعاة لحال المخاطبين .

(ﻫ) التمثل بالشعر :

جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم ، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية ، ولقد أتاحت وحدة البيت في القصيدة العربية أن يختار الخطيب بيتاً أو عدة أبيات يوردها في خطبته دعماً لفكرة أتى بها أو تصويراً لحال من الأحوال . وفي أغلب الأحيان تدرج أبيات الشعر ضمن الخطبة أو في نهايتها . إلا أن الحجاج آثر أن يستهل خطبته المشهورة بالكوفة بالشعر بدلاً من استهلالها بالبسملة والحمد . والأبيات التي أوردها الحجاج في هذه الخطبة تهدف كلها إلى تقديم صورة مخيفة عنه تملأ نفوس أهل العراق ذعراً وهلعاً . وقد ألف العرب في جاهليتهم أن يرتجزوا في مواطن التحدي والمفاخرة ، ومن هنا حرص الخطباء على الارتجاز ضمن خطبهم حين يكون قصدهم التحدي والمفاخرة وإظهار ما يتحلون به من قوة وعنف وجبروت ، صنيع الحجاج في خطبته المذكورة .

وهذا التمثل بالشعر في الخطب السياسية من شأنه أن يضفي على الخطبة طابع القوة والبداوة . وأكثر ما نجد التمثل بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم ، وقل أن نجده في خطب الخوارج والشيعة .

---

(١) انظر الجمهرة ٢/١٢٤ .

(٢) الأغاني ٢٠/١٠٦ .

(و)السجع والتوازن

ليس السجع من الظواهر الفاشية في الخطب السياسية الأموية ، ومن الملاحظ أنه لم يكن شائعاً في الخطابة الإسلامية وأنه كان يقع في الخطب القصيرة التي كانت تلقى بين أيدي الخلفاء الراشدين . وكذلك الأمر في عصر بني أمية فإننا نجد السجع قليلا في الخطب السياسية الخالصة ، إلا خطب المختار الثقفي ، فإنه جرى فيها على السجع لدواع خاصة .

والأسباب التي حملت الخطباء في هذا العصر على تجنب السجع هي عين الأسباب التي دعت خطباء العصر الإسلامي إلى تجنبه ، والحياة الحضرية المعقدة المتكافئة في العصر العباسي هي التي أوجبت شيوع السجع في النثر العباسي وتكلفه ، إذ أن كل أسلوب أدبي يمثل عصره .

وفي العصر الأموي كان السجع يقع غالباً في قصار الخطب وفي الكلام الذي يقال في المحافل السياسية ، وفي العقد الفريد أن معاوية لما طلب إلى ابن الزبير رأيه في تولية يزيد الخلافة قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أُناجيك ،إنّ أخاك مَن صدقك، فانظُر قبل أن تتقدم ، وتفكّر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدّم ، والتفكير قبل التندّم » . فضحك معاوية وأجابه : « ثعلب رَوّاغ تعلمتَ السجع عند الكِبَرَ ، في دون ما سجعت على ابن أخيك ما يكفيك[1] » . وكذلك إذا تتبعنا الخطب التي كانت تقال في مجالس الخلفاء والأمراء نجد أكثرها يشتمل على السجع ، وذلك كخطبة عبيد الله بن زياد التي ألقاها بين يدي معاوية بعد موت أبيه والتي قال في مستهلها : « أحمَد الله على الآلاء ، وأستعينه على اللأواء ، وأستهديه من عَمى مجهُد ، وأستعينُه على عدو مرصد إلخ[2] » .. والخطبة كلها مسجوعة على هذا النمط .

وضرب آخر من الخطب السياسية كان يقع فيه السجع هو المناظرات السياسية . ويبدو أن الخطباء كانوا يعدون من تمام الفصاحة ، عند تناظر البلغاء ، الإتيان

---

(١) العقد الفريد ٣٦٨/٤ .

(٢) العقد الفريد ٨٣/٤ .

بالسجع الذي يضفي على كلام المتناظرين رونقاً وطلاوة ، وينطق ببراعة المتكلم . وربما كان مرد هذا أيضاً إلى صور المفاخرات الجاهلية القديمة التي كان السجع ملتزماً فيها .

أما الخطب السياسية الخالصة فلم يقع فيها السجع إلا في النادر ، ولم يكن الخطباء يطلبونه لذاته ، وإنما كان اللفظ عندهم خادماً المعنى . نجد بعضاً منه مثلا في خطبة أبي حمزة بالمدينة ، كقوله منها يتحدث عن معاوية : « واتخذ عباد الله خَوَلا ، ومال الله دُوَلا ، وبغى دينه عِوجاً ودَغلا[1] » .. وأكثر ما نجد هذا السجع في قصار الخطب ، كخطبة يزيد بن المهلب يستنفر أهل العراق لقتال أهل الشام[2] .

أما السجع في خطب المختار الثقفي فمرده إلى ما كان يدعيه من الكهانة والاطلاع على الغيب ، فكان لذلك يتعمد محاكاة سجع الكهان والمتنبئين ليحيط شخصه وكلامه بهالة من القداسة الدينية . وقد ذكر المبرد أن المختار كان يدعي أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها فيقول للناس : « هذا من عند الله عز وجل[3] » . ومن سجعه قوله ، وقد بلغه أن جماعة ارتابوا في كونه مبعوث ابن الحنفية وقد توجهوا إليه ليتحققوا الأمر : « إن نفيراً منكم ارتابوا ، وتحيّروا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم كبَوا وهابُوا ، واعترضوا وانجابوا ، فقد ثَبِروا وحابُوا[4] » .

وربما وقع التوازن في خطب الأمويين السياسية ، ولكنه كالسجع لم يكن ملتزماً ولا مطلوباً لذاته ، والأسلوب المرسل القصير الفقرات هو الطابع الغالب على الخطابة الأموية عامة .

---

(١) الخول : العبيد . الدغل : الفساد .

(٢) انظرها في البيان والتبيين ١/٤١٠ .

(٣) الكامل ٢/١٦٤ .

(٤) الطبري ٤/٤٩٣ . أناب الرجل إلى الله : رجع إليه بالتوبة : انجابوا : أي انشقوا عنا . ثبروا : هلكوا . حابوا : أثموا .

(ز) الأثر الاسلامي

ما كاد الإسلام يبسط ظله على الأمة العربية ، وما كاد القرآن الكريم يتلى على أسماع العرب ، حتى كان النثر العربي يستجيب مسرعاً لهذين المؤثرين الجديدين ويخضع لها . وسرعان ما ظهرت فيه سمات وطوابع مستحدثة لم يعرفها النثر الجاهلي ، وسرعان ما اكتسب النثر الإسلامي ، والخطابة منه بنوع خاص ، طابعاً إسلاميًّا واضح القسمات .

وقد برز هذا الطابع قويًّا واضحاً في الخطابة الأموية . وكان من أول مظاهره اتسام هذه الخطابة بروح إسلامية تتجلى في جميع ضروبها وألوانها . وتتجلى هذه الروح في الخطابة السياسية في خطب الأحزاب السياسية على اختلاف منازعها واتجاهاتها ، وسبب ذلك ما ذكرته قبل من شدة ارتباط السياسة بالدين في هذا العصر ، وادعاء كل فرقة أن هدفها نصرة الدين وإعلاء كلمته . ومن هنا كانت الخطب السياسية في هذا العصر مزدحمة بالأفكار الإسلامية والمعاني القرآنية .

ومن هذه المظاهر أيضاً استهلال الخطب بحمد الله وتمجيده ، فإن خلت من ذلك كانت « بتراء » ، وتوشيحها بآيات قرآنية وتزيينها بالصلاة على النبي وإلا كانت « شوهاء »[1] ، وقد ذكر بعضهم أن خطبة زياد المشهورة بالبصرة إنما قيل لها بتراء لخلوها من حمد الله والصلاة على النبي[2] .

ومن المحقق أن كثيراً من الخصائص الفنيـة التي تجلت في الخطابة الأموية مصدرها القرآن الكريم ، وقد أوتي القرآن سلطاناً مزدوجاً : الأول باعتباره كتاباً دينيًّا شرع للمسلمين أحكام دينهم . والثاني باعتباره أثراً أدبيًّا أعجز الفصحاء بروعة بيانه وبلاغة نظمه . ولذلك كان المتأدبون يحرصون أول ما يحرصون على أن يجعلوا كتاب الله مادة ثقافتهم الأولى . ولم يكن بوسع أي خطيب أن يدرك منزلة مرموقـة في الخطابة إذا لم يكن مزوداً بالثقافة القرآنية ، فقد أصبح القرآن المنهل الثر الذي يرده الخطباء والكتاب والشعراء ثم لا يلبث أن ينعكس صداه في آثارهم وإنتاجهم الأدبي.

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٦٢ . وسأعود إلى موضوع البتراء في الفصل الخاص بزياد بن أبيه .

والتأثر القرآني كانت له صور شتى منها :

١ - أن تشتمل الخطبة على آية أو أكثر من القرآن، تأييداً لفكرة أو تمثيلا لحال من الأحوال، كقول الحجاج من خطبة له يخاطب أهل الشام : « بل أنتم يا أهلَ الشام كما قال الله سبحانه : « ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسَلين ، إنهم لهم المنصُورون ، وإن جُنْدَنا لهم الغالبون(١) ». ولمصعب بن الزبير خطبة قالها حين قدم البصرة والياً عليها ، وليس في هذه الخطبة إلا آيات قرآنيـة من أول سورة القصص مثل بها مصعب حال كل من أهل الشام والحجاز والعراق فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آياتُ الكتاب المبين . نتلُو عليـك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقّ لقوم يؤمنون . إنّ فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلهـا شِيَعاً يستضعف طائفةً منهم ، يُذَبّحُ أبناءَهم وَيستحيي نساءَهم . إنه كان من المفسدين — وأشار بيده نحو الشام — ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين . — وأشار بيده نحو الحجاز — ونُمَكّنَ لهم في الأرض ، ونُريَ فرعون وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذَرون . — وأشار بيده نحو العراق(٢) — » .

٢ — ومن صور التأثر القرآني الاقتباس ، أي تضمين الخطبة شيئاً من القرآن على وجه لا يشعر بأنه منه ، وكأنه جزء من كلام الخطيب . كقول سليمان بن صرد في ختام خطبة له يحرض بها الشيعة على الأخذ بثأر الحسين : « . . . اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ، (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قُوة ومن رِباط الخيل) حتى تُدعوا وتُستَنفروا(٣) » .

٣ — ومن صوره الاستمداد من المعاني والقصص والأخبار القرآنية ، كقول الحجاج في خطبته التي قالها حين أرجف الناس بموته : « وما رأيتُ اللهَ عزّ وجل

(١) شرح ابن أبي الحديد ١/١١٥ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ .
(٣) الطبري ٤/٤٢٨ .

كتبَ الخلودَ لأحــــدٍ من خلقه إلاّ لأهونهم عليه : إبليس [١] » ، وأكثر ما نجد المعاني القرآنية في خطب الخوارج .

٤ — ومن ألوان هذا التأثر أيضاً اقتباس الصور القرآنية ، وقد جاء القرآن بطائفة كبيرة من الصور المبتكرة أغنت الخيال العربي ووسعت من آفاقه . وقـد تداول الأدباء هذه الصور ولونوا بها إنتاجهم الأدبي . ومن هذه الصور مثلا ما جاء في خطبة لأبي حمزة يخاطب بها أهل المدينة : « تحملُون قلوباً في صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوةً من الحجارة ، أو لم تلنْ لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله [٢] » . ومنها ما جاء في خطبة لعتبة بن أبي سفيـان يعنف بها أهل مصر : « يا أهلَ مِـصر : خفّ على ألسنتكم مدحُ الحق ولا تفعلونه وذمُ الباطل وأنتم تأتُونه ، كالحمار يحملُ أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها [٣] » .

٥ — ومحاكاة أسلوب القرآن مظهر آخر من مظاهر التأثر القرآني ، فقد بلغ من إعجاب الأدباء بهذا الأسلوب أن نهجوا نهجه في بعض عباراتهم وتوخوا محاكاة ألفاظه وتعابيره وطريقة أدائه ، وربما حملوا كلامهم على نظام الفواصـل إمعاناً في هذه المحاكاة ، نجد هذا مثلا في ختام خطبة لصالح بن مسرح يخاطب بها الخوارج فهو يقول : « ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم ، تدخلوا الجنة آمنين ، وتعانقوا الحورَ العين ، جعلنا اللهُ وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يهـدون بالحق وبه يَعدلون [٤] . » ، ونجد مثالا لمحاكاة الاسلوب القرآني أيضاً في خطبة الحجاج بعد وقعة دير الجماجم إذ يقول فيها : « ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ... ثم

(١) العقد الفريد ١٢٣/٤ .

(٢) الأغاني ١٠٦/٢٠ والتشبيه محاكاة لقوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلـك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » (البقرة آية ٦٩) وختام العبارة مقتبس من قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » . (الحشر آية ٢١) .

(٣) العقد الفريد ١٤٠/٤ . والصورة مقتبسة من قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (الجمعة آية ٥) .

(٤) الخطبة في العقد ١٣٥/٤ .

يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم » . وذلك محاكاة لقوله تعالى : « القارعة ما القارعة » .

فكذلك نجد من ألوان التأثر القرآني ومظاهره ما يحملنا على القول بأن الخطابة الأموية مدينة إلى القرآن الكريم بنصيب واف مما أصابته من ارتقاء وازدهار وغنى في عصرها الذهبي هذا .

(ح) أسلوب التمثيل والموازنة

كان الخطباء السياسيون في العصر الأموي ربما لجؤوا إلى أسلوب التمثيل وموازنة حالة بحالة أخرى ليكون كلامهم أوقع في النفس وأبلغ ، وهم يستمدون هذه الأمثال في الغالب من أمثال العرب المتداولة أو من القرآن الكريم . ففي خطبة للنعمان بن بشير بالكوفة نجده يستعين بقصة اختصام الضبع والثعلب إلى الضب ليصور حاله وحال أهل الكوفة [(١)] . وحين أبى أهل المدينة قبول عطاء عبد الملك لأنه أعطاهم من الصدقات لا من الفيء قال فيهم خطبة مثل فيها حاله وحال قريش بقصة الرجلين والحية التي تأتي بالدنانير [(٢)] . ولما أراد خالد القسري شتم الحجاج تلبية لرغبة سليمان ابن عبد الملك جاء بمثال من القرآن الكريم فقال : « إن إبليس كان ملَكاً من الملائكة وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكةُ ترَى به فَضلاً . وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفي على ملائكته . فلما أراد الله فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه . وإن الحجّاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فَضلا ، وكان اللهُ قد أطلع أميرَ المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي عنّا ، فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يدَي أمير المؤمنين ، فالعنوه لعنهُ الله » . ونجد هذا الاسلوب أيضاً في خطبة للحجاج قالها بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، وشبه حاله بحال آدم حين عصى ربه فأخرجه من جنته [(٣)] .

---

(١) مروج الذهب ١٢٩/٢ (البهية) .
(٢) العقد الفريد ١٣٥/٤ .
(٣) سرح العيون لابن نباته ص ١١٢ .

(ط) الأسلوب التصويري

الخطيب الماهر يدرك أن من أنجع السبل لإثارة شعور المخاطبين والتلاعب بعواطفهم اتباع الأسلوب التصويري في التعبير عن أفكاره ومعانيه . ومن المؤكد أن الصورة الخيالية تفعل في النفس ما لا يفعله أداء الفكرة أداء حقيقياً مباشراً . وهذه الحقيقة الفنية أدركها الخطباء الممتازون ففسحوا للتعبير الخيالي مكاناً رحباً في خطبهم ، واستعانوا بالصور في أداء معانيهم . وها هو ذا عتبة بن أبي سفيان يلجأ إلى الأسلوب التصويري في مخاطبة أهل مصر فيقول : « يا أهلَ مصر ، قد طالــــت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظبات السيوف ، حتى صرنا شجىً في لَـهَواتـكم ، ما تسيغه حلوقـكم ، وأقذاءً في أعينكم ماتَـطـّرِف عليها جفونكم » (١) . وهذه صورة الموت يأتي بها ابن الزبير في خطبة له : « أيها الناس ، إن الموت قد تغشاكم سحابه ، وأحدق بـكم ربابه ، واجتمع بعد تفرّق ، وارجحَنّ بعد تمشـق ، ورجَس نحوكم رعدُه ، وهو مفرغٌ عليكم ودقه (٢) » . وأبرع خطباء السياسـة في عصر بني أمية اصطناعاً للأسلوب التصويري الحجاج ، وهو يتعمد الإتيان بالصور المخيفة إرهاباً لمعارضيه ، ولا ريب أن سامعيه قـــد أخذهم الرعب وهم يسمعونه يشبه رؤوسهم بالثمار اليانعة التي حان قطافها — في خطبته المشهورة بالكوفة — وفي هذه الصورة ما فيها من السخرية بالمعارضين والاستخفاف بأمرهم . وقد شبه نفسه في هذه الخطبة بالسهم القوي قد اختاره الخليفة بين سهام كثيرة تمتلىء بها كنانته ليرمي بها اعداءه ، وخطبته هذه مزدحمة بالصور والأخيلة وأكثرها مستمد من البيئة البدوية .

(ى) حرارة الأسلوب وعنفه

يتسم أسلوب الخطابة السياسية في هذا العصر — على وجه الإجمال — بالحرارة والحياة والعنف والقوة والتوفز العصبي ، ويصور في سماته هذه اندفاع العاطفة وقوة الشعور ، ويعكس طبيعة العربي الغضوب السريعة الانفعال والتأثر ، وهو قل أن

---

(١) العقد الفريد ١٣٨/٤ .

(٢) العقد الفريد ٤١٨/٤ . ارجحن : اجتمع وثقل . التمشق : التمزق والتفرق . رجس : رعد شديداً . الودق : المطر .

يتجه إلى العقل أو يخاطب الفكر ، فهو ليس من قبيل الأسلوب المنطقي الهادىء الذي يتوخى إقناع المخاطب من طريق الحجة والدليل العقلي ، وإنما هو اسلوب عاطفي ملتهب يتوخى قبل كل شيء التأثير الوجداني والاستمالة العاطفية .

* * *

تلكم هي أبرز السمات الفنية المشتركة في الخطابة السياسية الأموية ، وينبغي أن أشير هنا إلى تفاوت أسلوب الخطب السياسية بتفاوت أقسامها من ناحية ، وبتفاوت منازع الخطباء وأشخاصهم وبيئاتهم من جهة أخرى . فأسلوب خطباء الشيعة يختلف مثلا عن أسلوب خطباء الخوارج ، وأسلوب الحجاج يغاير أسلوب زياد . وفي خطب الخوارج تتمثل قوة الأسلوب أكثر منها في أساليب الأحزاب الأخرى ، بالإضافة إلى بروز الأثر الإسلامي والطابع البدوي في خطبهم ، ذلك لأن جل خطباء الخوارج قد جمعوا بين التأثر العنيف بالثقافة الدينية القرآنية وبين النشأة البدوية .

ومن وجوه الخلاف بين أقسام الخطابة السياسية غلبة الطابع الجدلي على أسلوب المناظرات السياسية . وفي الخطب الحربية نلاحظ شيوع ألفاظ وتعابير خاصة ، فكان القائد كثيراً ما يخاطب جنده بقوله : « ياشرْطة الله » . وإذا أراد التهوين من شأن الأعداء وتصوير قلة عددهم قال إنما هم « أكَلَة رأس » . وربما أهاب القائد بجنده أن « يميروه جماجمهم ساعةً من نهار » ، وهو تعبير طريف كان يحمل المقاتلين على الابتسام على رغم عبوس المعركة ، لما ينطوي عليه من المفارقة في جعل الجماجم تستمار ، وكأنها قدور أو مواعين [١] .

٤ ـ منزلة الخطابة السياسية في عصر بني أمية

لعبت الخطابة السياسية دوراً خطيراً في عصر بني أمية يسوغ ما حظيت به من منزلة عظيمة في هذا العصر . ولا غرو فقد وجدنا أنها كانت من أمضى الأسلحة

---

(١) انظر مثلا الطبري ٤٨٢/٤

التي استخدمتها الفرق السياسية المتنازعة ، وقد استطاع الولاة المعروفون بفصاحتهم أن يروضوا القوم بلسانهم كما راضوهم بحسامهم ، صنيع عتبة بن أبي سفيان بأهل مصر ، وزياد والحجاج بأهل العراق . ولهذا كان الخلفاء يحرصون على أن يكون عمالهم وولاتهم من الخطباء المفوهين ، وكانت البراعة الخطابية من مؤهلات الرجل لتولي منصب الإمارة .

وكان لبعض الخطب الحربية فعل السحر في التأثـــير في الغزاة ودفعهم إلى الاستماتة في مجاهدة العدو ، شأن خطب قتيبـة في فتوح ما وراء النهر ، وخطبة طارق حين فتح الأندلس . وقد وجدنا قادة الجيوش يستعينون بالقصاص ويحرصون على اصطحاب عدد منهم كلما توجهوا للقتال ، لما كان لهم من الشأن في إذكاء العزائم وإلهاب حماسة المقاتلين .

وكان الخطيب الماهر ربما صور الأمور على غير حقيقتها فيصدقه سامعوه بفضل مهارته البيانية وذلاقة لسانه وقوة حجته . وقد روي عن مالك بن دينار قوله : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى أقول في نفسي : لأحسبه صادقاً ، وإني لأظنهم ظالمين له [1] » . وكان خطباء الخوارج من اقـدر خطباء الفرق السياسية على الجدل ، وأبينهم لساناً ، وأقواهم حجة . وكان لكلامهـم وخطبهم أبلغ الوقع في النفوس . وقد وصف مالك بن أنس خطبة أبي حمزة بالمدينة بأنها شككت المستبصر وردّت المُرتاب [2] ، وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أتي بأحد الخوارج فسأله عن مذهبه « فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينه ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك ، لقـد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأني أولى بالجهاد منهـم » . ثم أمر

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦٨ .
(٢) العقد الفريد ٤/١٤٤ .

بسجنه بعد ذلك وقال له : « لولا أن تُفسد بألفاظك أكثرَ رعيتي ما حبستُك » . وقد سوغ عبد الملك مسلكه هذا بقوله : « من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمةُ الله فغيرُ بعيد أن يستهوي من بعدي [1] » . وقد كان الخطباء السياسيون قادرين حقًّا على الاستهواء وعلى استمالة الناس إلى مذاهبهم بفضل براعتهم البيانية ، ولم يكن مقدراً لأية دعوة أن تلقى التأييد والنجاحَ إذا لم يضطلع بأمرها خطباء مصاقع يدعون إليها ويستميلون الناس إلى نصرتها .



(١) الكامل للمبرد ١٤٦/٢ .

٤

الصنعة والأداء في الخطابة الأموية

أولا : الصنعة في الخطابة الأموية ومظاهرها

إن المنزلة الفنية الراقية التي بلغتها الخطابة في العصر الأموي لتنبىء بأن كثرتها كانت ثمرة الجهد الطويل والصنعة الفنية ، وليست وليدة العفوية والارتجال . ومن المحقق أن الخطب الأموية الممتازة لم يكن ليتاح لها أن تبلغ مابلغته من الجودة الفنية ، وأن يكون لها ذلك النفاذ وقوة التأثير في نفوس المخاطبين لولا ما كان يبذله الخطباء من جهد في تحبير خطبهم وتزويرها وتنميقها . ولئن كنا ننكر على الجاهليين ابتداء الخطب لما نعلمه من افتقار كل عمل فني متقن إلى الجهد والعناء ، لنحن بإنكار هذا الابتداء على الخطباء الأمويين أجدر وأحق . وحسبنا أن ندقق النظر في هذا التراث الخطابي الذي خلفه لنا العصر الأموي لندرك بيسر أن جله لم يصدر عن قائليه عفو البديهة ، وإنما أخذ بالتثقيف والتحكيك ومعاودة النظر حتى يكون قميناً بإرضاء الذوق الفني ويحظى بإعجاب المخاطبين ويستهوي أفئدتهم .

وبين أيدينا أدلة وفرة من أقوال الخطباء والنقاد تؤيد ما ذهبنا إليه ، من ذلك ما روي للبعيث من قوله : « إني والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك . (١) » ، ولما أراد الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي على الكلام يوم جعلوا له الرياسة قال : . « وما أنا والرأي الفطير ، والكلام القَضيب (٢) . » . وكان خوف الخطباء من أن يعتريهم الحصر والرتج حين يعتلون منابر الخطابة من دواعي عنايتهم أيضاً بتحبير خطبهم وتزويرها قبل إلقائها ،

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٢٠٥ .

وقد كان أبرع الخطباء وأفصحهم معرضين لأن يغلق عليهم باب القول حين يقصدون للخطابة ارتجالا وابتداها .

وحين يتحدث الباحث عن الدوافع التي كانت تحمل الخطباء المتازين في هذا العصر على توخي التحبير والتزوير والتجويد الفني ينبغي له ألا يغفل ما يخص منها الجماهير التي توجه إليها الخطب . ومما لاريب فيه أن رقي فن الخطابة مقترن بنمو الإحساس الأدبي والذوق الفني في هذه الجماهير . وقد كانت الجماعات التي توجه إليها الخطب في عصر بني أمية على حظ وافر من هذين الامرين ، ومن هنا كان لها مشاركة قوية في توجيه الحياة الأدبية عامة في هذا العصر ، إذ كانت تقبل على سماع الشعر الجيد والخطب الممتازة وكانت تصدر أحكامها النقدية على الشعراء والخطباء وتوازن بين الشعراء الممتازين حتى كان أمر هذه الموازنات ربما شغل القوم وهم في ساحة المعركة يقتتلون ، فكان الخوارج والمسلمون يتواقفون في حرب المهلب وقطري ليتساءلوا عن جرير والفرزدق وأيهما أشعر (١) . ولم يكن ينعقد مجلس من المجالس إلا ويدور الحديث فيه عن الموازنة بين الفحول الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل . فالحق أن الجمهور في العصر الأموي لم يكن جمهوراً ذواقاً للأدب ونقاداً فحسب ، وإنما كان من الجماهير التي يعسر إرضاؤها فنياً ، فكان لذلك كثيراً ما يقسو في أحكامه على الشعراء والخطباء . وهذا عمران بن حطان يحدثنا عن نفسه فيذكر لنا أن خطبته الممتازة التي ألقاها في مجلس زياد لم ترض بعض من سمعها لخلوها من القرآن (٢) . ولا أدل على تقدير الخطباء الأمويين للجماهير من كثرة تعرضهم للحصر عند الخطابة وتهيبهم اعتلاء المنابر تهيباً شديداً حدثنا عنه طائفة من ألمع خطبائهم . فقد روي عن الكميت قوله : « إن للخطبة صَعداء ، وهي على ذي اللب أرمى (٣) ». وكان زياد يرى أن اعتلاء أعواد المنابر مما يفسد على الأمراء

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣٩٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ١١٨/١ .

(٣) المصدر السابق ١٣٤/١ . والصعداء : المشقة .

اغتباطها بعيشها (١) . » وقال ابنه عبيد الله بن زياد ، وهـو من كانت القلوب تهلع لمرآه : « نعم الشيء الإمارة لولا قعقعة البُرد ، والتشزُّن للخطب (٢) » . حتى عبد الملك بن مروان لم ينج من رعشة المنابر ، فقد قال له بعضهم : « عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين » . فأجاب : « وكيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين (٣) » .

فقد توافر للجمهور عصرئذ قسط واف من الإحساس الأدبي والروح النقـدية والمعرفة بأسرار البلاغة القولية جعل الخطباء يتهيبون لقاءه وتعتريهم الرعشة حينما يخطبون أمامه ، وربما اعترام الحصر وارتج عليهم ، وربما تصبب العرق منهم لشدة اضطرابهم ، فلا غرو أن نجدهم يعنون بتزوير الكلام وتحبيره وتوخي إجادتـه ليكون قميناً بإرضاء هذا الجمهور الذواق النقاد ، ولا غرو أن نجدهم يحفلون في خطبهم بالصنعة وتزويق الكلام ليتاح لهم التأثير في جمهورهم واستمالته إليهم .

ومن أدلة عناية الخطباء بتحبير خطبهم وإعدادها هذا الكلام الكثير الذي نجده في البيان والتبيين ونقد النثر والصناعتين وغيرها من الكتب التي عنيت بفن القـول عن ضرورة تنقيح الخطب وتهذيبها . وهذه الأقوال لا تنطبـق على العصر العباسي وحده ، وهو العصر الذي ألفت فيه هذه الكتب ، بل تنطبق كذلك على العصر الأموي ، لأن هؤلاء النقاد استمدوا خطتهم وتوجيههم من آثار أعـلام الخطباء في العصرين وطريقتهم في الخطابة . وقد شجع الجاحظ في البيان والتبيين ذوي الموهبة الخطابية على خوض غمار هذا الفن وبلوغ أسمى مراتبه ، ولكنه أوصـاهم بمجانبة الارتجال واقتضاب الكلام ، كما أوصاهم بالتريث في عرض إنتاجهم الأدبي على الناس ليتأكدوا أولا من إعجاب النقاد به ورضاهم عنه . ومما قاله في هذا الصدد : « فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب إلى هذا الأدب ، فقرضت قصيـدة ،

---

(١) ابن عساكر ٥/٤١٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٤ . والتشزن : التهيؤ .

(٣) المصدر السابق .

أو حبرت خطبة ، أو ألفت رسالة . فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ، أو يدعوك عُجْبُك بثمرة عقلك إلى أن تنتحلَه وتدّعيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب . فإن رأيت الأسماع تصغي له ، والعيون تحدج إليه ، ورأيت من يطالبه ويستحسنه ، فانتحله (١) » . على أن أبا عثمان إن دعا إلى التهذيب والتنقيح ، فهو لايدعو إلى الإسراف فيهما ، وهو يوصي بمجانبه التكلف الذي يفسد الكلام ويذهب برونقه ، ويدعو إلى القصد والاعتدال « فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي ، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ، وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانبة الوعورة (٢) » .

ولاحتفال القوم بالخطابة وعنايتهم بإجادتها كثر كذلك حديث النقاد عن البلاغة وشروطها ، وما قيل في تعريفها ، ولم يكتفوا بأن يسوقوا كلام فصحاء العرب في هذا الصدد بل أوردوا أيضاً أقوال فصحاء الهند والروم والفرس وغيرهم . وحين غدت الفصاحة الخطابية ركناً من أركان الجدل الكلامي أخذ المتكلمون يعنون بتعليم أتباعهم أصول الخطابة وطرق الإقناع والجدل . وقد ظهرت هذه العناية بأجلى صورها في العصر العباسي الذي ازدهر فيه علم الكلام ، وفي أوساط المعتزلة اشتهرت صحيفة بشر بن المعتمر التي لقن فيها فتيان المعتزلة أصول الخطابة وأساليب الجدل والإقناع (٣) . ومن المؤكد أن عناية المتكلمين بالصنعة وتزوير الكلام تفوق عناية سائر الخطباء ، لأنهم ما كانوا يعتمدون في جدلهم على المنطق فحسب ، وإنما كانوا يعتمدون أيضاً على جمال التعبير ورونق الكلام والخلابة اللفظية ، أسوة بما كان يصنعه السفسطائيون من فلاسفة الإغريق من قبل ، ولذلك نجد في خطبهم من العناية بالصنعة أكثر مما نجده في خطب غيرهم . آية هذا خطبة واصل التي تعتبر

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٣ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٠٥ .
(٣) أورد الجاحظ هذه الصحيفة في البيان والتبيين ١/١٣٥ .

نموذجاً ممتازاً من نماذج الصنعة الخطابية ، نجد فيها حسن التنسيق وترتيب الأفكار ، وإحكام التسلسل ، وتقسيم الخطبة إلى أقسام واضحة متناسقة ، مع العناية بالبدء والختام ، وبدقة التعبير عن الأفكار ، وفي الخطبة بعد سجع مقصود ، وجمل مترادفة ، وتوازن موسيقي ، وفيها فوق ذلك كله هذه الخاصة التي أوجبت شهرتها وهي نزع الراء منها . ولم يكن ليتوافر في هذه الخطبة كل ألوان الصنعة المتقنة هذه لو لم يكن واصل قد أعد نفسه لهذا المقام الخطابي وهيأ خطبته قبل إلقائها . وهذا يقفنا على بطلان ما ذهب إليه بشار بن برد حين مدح واصلا وأشاد بخطبته هذه فقال :

تكلّفوا القول والأقوامُ قد حفَلُوا — وحبّروا خطباً ناهيك من خُطبِ

فقام مرتجلا تغلي بداهتُه — كمِرجل القَين لما حفّ باللهب

وجانبَ الراء لم يشعُر به أحد — قبل التصفّح والإغراق في الطلبِ

وقال أيضاً :

فهذا بَديهٌ لا كتحبيـــير قائل — إذا ما أراد القول زَوّره شهرا[1]

فخطبة واصل هذه بعيدة كل البعد عن الارتجال والبداهة ، وما قال بشار هذا القول إلا تعصباً لصاحبه واصل — وذلك قبل أن تقع العداوة بينهما — وإظهاراً لفضله على منافسيه في مجلس عبد الله بن عمر . وإذا كان سائر المتكلمين في هذا المجلس قد حبروا خطبهم وزوروها ، على ما ذكر بشار ، وهم من ألمع الخطباء ، فليس من المعقول أن يتصدى واصل لتحديهم ومنافستهم دون أن يعد نفسه لهذا الموقف إعداداً كافياً ، ولا سيما أنه وطن نفسه على مجانبة الراء وإسقاطها من كلامه ، وقد علق الجاحظ على أبيات بشار هذه بقوله : « لأنه كان مع ارتجاله الخطبة التي نزع منها الراء ، كانت مع ذلك أطول من خطبهم . » ، إلا أنه اعترف في موضع آخر بأن خطب واصل تحتمل الصنعة ، فقال معلقاً على ما أخذ به واصل نفسه من مجانبة الراء ، وهو أمر لم يتأت إلا بعد رياضة طويلة ومعاناة شاقة :

(١) البيان والتبيين ١/٢٤ .

« ... ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله الخالدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت مُحاجة الخصوم ومُناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان ...[١] »

هذا والجاحظ متهم أيضاً بالتعصب لواصل ، لما بينهما من الاتفاق في المذهب والقول بالاعتزال ، ومع ذلك فهو لم ينف الصنعة عن خطبه .

ولا يفهمن من كلامنا أننا ننفي عن الخطباء الأمويين المقدرة على ارتجال الخطب وابتدائها ، فربما أقدم الخطيب على الارتجال في المواقف التي لا تحتمل إعداد الخطب وتزويرها ، ولا سيما إبان الوقائع الحربية التي كثيراً ما توجب على القائد ارتجال الخطب لتحميس الجند على القتال . ولكننا فيما ذكرناه من غلبة الصنعة على الخطابة الأموية نصدر حكماً عامّاً ينطبق على الكثرة الغالبة من خطب هذا العصر ، وخروج طائفة من الخطب عن هذا الحكم لا يطعن في صحته . ولم تكن خطب الأعراب خالية من الصنعة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولا أدل على عنايتهم بها من تكلفهم التشادق والتقعر في خطبهم ، وقد أشار الجاحظ إلى هذا الأمر وذكر بأن هذه الصفات في أهل الوبر أكثر منها في أهل المدر[٢] .

فمن مظاهر الصنعة في الخطابة الأموية :

(أ) العناية باستهلال الخطبة وختامها ، وبتقسيمها إلى أجزاء متناسبة ، وتسلسل الأفكار وارتباط بعضها ببعض . وأظهر ما تتجلى هذه الصفات في خطبة زياد البتراء . وقد أخذوا عليه أنه لم يبدأها بحمد الله ، وذكروا أنها سميت « بتراء » لهذا السبب . ولكن بعضهم يذكر ما يناقض هذا الرأي ويقول إنه استهلها بحمد الله والثناء عليه[٣] . فإن صح هذا القول تكون خطبة زياد غير خارجة في استهلالها عن أصول الخطابة في ذلك العصر . ونجده قد قسم خطبته أقساماً أربعة، قرع في الأول منها أهل البصرة لركوبهم مطية الجهالة والضلال وانغماسهم في الفسوق والشهوات . وفي القسم الثاني يوضح لهم منهجه الذي يسير عليه : لين في غير

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥ .

(٢) المصدر السابق ١/١٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦٢ .

ضعف وشدة في غير عنف ، ويتهددهم باتباع خطة البطش والعسف إن لم يسلكوا سبيل الاستقامة . وفي القسم الثالث يوضح لهم ما ينبغي تجنبه من الأمور ، ويحدد لهم أنواع العقوبات التي سينزلها بمن يعبثون بالأمن وينالون الناس بإذاهم . وفي القسم الأخير يدعو القوم إلى لزوم الطاعة والخضوع لأئمتهم ، وهو يعدهم بتحقيق العدل وإعطائهم حقهم من الفيء ، ويضمن لهم السير على السياسة التي يرضون عنها ، على أن يلزموا جانب بني أمية : فإنهم ساستهم المؤدبون ، وكهفهم الذي إليه يأوون . ثم يجمل ختام خطبته تحذيراً ووعيداً ليملأ قلوب الناس رعباً : « وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرةً ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعايَ . » . فقد كانت خطبة زياد هذه نموذجاً ممتازاً لحسن التقسيم وترتيب الأفكار وإحكام الصنعة ، وبلغ من إعجاب الناس بها أن شهد له عبد الله بن الأهتم ، حين سمعها بأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب (١) .

على أننا لا ينبغي أن نسرف في تقدير عناية الخطباء الأمويين بالتقسيم والترتيب فهم لم يبلغوا من ذلك مبلغ خطباء اليونان القدامى مثلا ، والسبب الأول لذلك ، فيما يبدو لنا ، هو أن التفكير المنطقي عند اليونان وافق نهضة الخطابة ، أما عند العرب فالتفكير المنطقي ، بمفهومه الدقيق ، كان متأخراً في وجوده على العصر الأموي ، وهو العصر الذهبي للخطابة العربية ، لأن العرب لم يتح لهم الوقوف على التراث الفلسفي اليوناني إلا في العصر العباسي ، وهو العصر الذهبي لازدهار الحياة الفكرية والثقافة الفلسفية عند العرب .

(ب) ومن مظاهر الصنعة في الخطب الأموية أيضاً مراعاة التأنق والدقة وحلاوة الجرس في اختيار الألفاظ . وخطب أبي حمزة الخارجي تمثل هذه الناحية تمثيلا جيداً ، فهي تنبيء عن براعة جديرة بالإعجاب في اختيار الألفاظ القوية الإيحاء ، العذبة الجرس ، التي تطرب لها الأذن ويرتاح لها السمع ويهتز لها حس العربي المولع بأناقة التعبير . وهذا جانب من خطبة له يظهرنا على هذه الخاصة في أسلوبه : « ثم

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥

لقينا رجالكم بقُديد ، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان ، وحكم مَروان وآل مروان . فشتان ، لعمرُ الله ، ما بين الغي والرشد . ثم أقبلوا يُهرعونَ ويزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه ، وغلت بدمائهم مراجلُه ، وصدّق عليهم إبليس ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائب ، بكل مُهند ذي رونق ، فدارت رَحانا ، واستدارت رحاهم بضربٍ يرتاب منه المُبطلون [١] . » ، والحق أن عناية خطباء الخوارج بالصنعة لم تكن لتقل عن عناية سائر الخطباء بها .

(ج) ومن مظاهرها أيضاً العناية بالزخرف اللفظي ، والحلية البديعية ، كالسجع والتوازن الموسيقي والعكس ونحو ذلك ، ولكن خطباء بني أمية لم يكونوا يسرفون في هذه العناية إسراف من أتى بعدهم . وقد تحدثنا عن السجع مفصلا في مميزات الخطابة الأموية ، ولاحظنا ثمة قلة السجع في الخطب السياسية الخالصة ، باستثناء خطب المختار التي كانت تلتزمه وتتكلفه . ويلاحظ أن السجع في الخطب الدينية أكثر شيوعاً منه في الخطب السياسية ، ولا سيما القصص الديني منها . ونجد السجع يقع في بعض ضروب الخطابة الاجتماعية كخطب المحافل والمفاخرات وخطب التأبين والتعزية . وإذا خلت الخطبة من السجع فهي قلما تخلو من التوازن والتلاؤم الموسيقي بين الفقرات والجمل ، فالخطباء الأمويون كانوا حريصين على الانسجام الموسيقي سواء في ألفاظهم أو في تراكيبهم . ومن الزخارف البديعية التي كانت تقع في بعض خطب هذا العصر : العكس ، وهو يقوم على إيراد العبارة ثم عكسها ، وذلك كقول سليمان بن عبد الملك من خطبة له في وصف الدنيا : « . . . تُضحك باكياً ، وتُبكي ضاحكاً ، وتخيف آمناً ، وتؤمن خائفاً ، وتفقر مثرياً ، وتثري مقتراً [٢] . » وكقول واصل من تحميده في خطبته : « الذي علا في دنوه ، ودنا في علوه » » .

---

(١) الأغاني ٢٠/١٠٥ .

(٢) العقد الفريد ٤/٩١ .

(د) والعناية بالتصوير مظهر آخر من مظاهر الصنعة في الخطابة الأموية ، وقد تحدثت عنه أيضاً في مميزات الخطابة السياسية ، ووضحت ثمة مدى عناية الخطباء الأمويين بهذا الأسلوب التصويري ، وبرع منهم في ركوب هذا الأسلوب المجنح الحجاج وأبو حمزة وعتبة بن أبي سفيان .

على أن عناية خطباء بني أمية بالصنعة كانت مع ذلك عناية معتدلة مقبولة لم تبلغ حد الإسراف الممقوت والتكلف الممجوج اللذين غلبا على أسلوب النثر منذ العصر العباسي . وعلى رغم عناية الخطباء الأمويين بالتأنق اللفظي وجمال التعبير كان رائدهم الأول التعبير عن أفكارهم تعبيراً يجمع بين الإيجاز والدقة والوضوح . وقد لخص أحد الخطباء شروط الخطابة الجيدة في نظره بقوله : « رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدُّربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخيُّر الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه [١] . » ، ومازال النقاد يحثون على مجانبة التكلف والجريان مع الطبع ، ومن كلام لقدامة بن جعفر في ذلك قوله : « ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سديداً ، وكان من العيب معها بعيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولا متكلف ما ليس في وسعه . فإن التكلف إذ ظهر في الكلام هجنه وقبح موقعه [٢] . » ويرى الجاحظ أن المولدين من الخطباء والبلديين المتكلفين قد أفسدوا الخطابة العربية لافتقارهم الى السليقة الخطابية الأصيلة التي جعلت العرب الأقحاح يجانبون في خطبهم الألفاظ المسخوطة والمعاني المدخولة والأقوال المستكرهة [٣] .

* * *

ثانياً : الأداء الخطابي

لايكفي لإجادة فن الخطابة أن تكون الخطبة مستوفية شروط الإجادة والإتقان

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٤ والكلام لأبي داود بن حريز .
(٢) نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر ص ٩٢ .
(٣) البيان والتبيين ٨/٣ .

من حيث أفكارها وأسلوبها ومميزاتها الفنية ، بل ثمة أمر آخر له شأن خطير في هذا الفن لابد من إجادته لكي يكون الخطيب ممتازاً ، ذاك هو الأداء الخطابي - أي فن الإلقاء - وقد يكون الأداء في الشعر بعض الشأن ، والقصيدة قد تزداد بهاء ورونقاً بالإلقاء الجيد ، ولكن الشعر يمكن أن يستغني عن الأداء الشفهي ويقرأ مكتوباً ، أما الخطابة فهي فن مخاطبة الجماهير ، ولا بــــد من إلقاء الخطبة على مسامع الناس لتؤدي الغاية منها ، ولذلك كان للأداء فيها كل الشأن . وحين يقف الخطيب ليخطب أمام جماعة من الناس ، فإن أنظارهم تتلقفه وأسماعهم تتوجه إليه ، وهو مطالب بأن يرضي أنظارهم ويطرب أسماعهم في وقت معاً ، ومن هنا كان للأداء شروط تتصل بهيئة الخطيب ، ووقفته ، وحركاته ، وصوته ، ونطقه ، وأنا موجز فيما يلي أبرز شروط الأداء التي كان على الخطيب الاموي مراعاتها .

(ا) كان الخطيب في عصر بني أمية يخطب إما على منــــبر ، وقد اتخذت المنابر في المساجـــــد منذ عهد الرسول عليه السلام ، وإما على أي مكان مرتفـع ليراه الناس . وكان يشترط قيام الخطباء في جـــــل ضروب الخطابـة ، لأن الوقوف في الخطابة هو الأصل ، إلا أنهم جروا على أن يخطـبوا جالسين في خطب الإملاك وبعض الخطب الدينية ، وكذلك كان بنو أمية يقعدون في إحدى خطبتي الجمعة والعيدين ويقومون في الأخرى . وقـد جرت عادة خطباء العرب منـذ العصر الجاهلي على أن يخطبوا على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار . ولا نملك دليلا على أن هذه العادة قـد ظلت قائمة في العصر الأموي ، ونحن نرجح أن أخذ العرب بأسباب الحياة الحضرية في هذا العصر قد باعد بينهم وبين عـادة الخطابة على الرواحل . وفي المجامع الحافلة كان الخطيب يلتزم لوث العمامة ، كأنما هي شارة يعرف بها . وقد حدثنا الجاحظ عن لزوم الخطباء العمائم في أيام الجموع [1] . وكذلك كان لابد للخطيب من اتخاذ مخصرة ، وهي من العادات الموروثة أيضـاً عن العصر الجاهلي . ويحدثنا الجاحظ أن الخطيب ربما استغنى عن الجبة أو الرداء

---

(١) البيان والتبيين ٣/٩٢ .

ولكنه لا يستغني عن العمة والمخصرة، وقد تكون المخصرة قضيباً أو عصا أو قناة [١]، وقد يتكىء الخطيب على قوس أثناء الخطابة، وقد أصبح اتخاذ المخصرة من الأمور التي لا يستطيع الخطيب الاستغناء عنها، لطول إلفهم لها، وقد روى الجاحظ عن عبد الملك بن مروان قوله: «لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي [٢]. »، وربما ألف الخطيب عصا بعينها لا يبدلها، فقد جاء في سرح العيون أن سحبان وائل لما دعي للخطابة في مجلس معاوية قال لهم: «انظروا إلى عصا تُقوّم من أودي. قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين. قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، وعصاه في يده. فضحك معاوية وقال: هاتوا عصا. فجاءوا بها اليه، فركلها برجله ولم يرضها، وقال: هاتوا عصايَ فأتوا بها [٣]. ». وقد اشار بعض الشعراء إلى عادة اتخاذ المخاصر فقال كثير:

إذا قرعوا المنابر ثم خطّوا ... بأطرافِ المخاصر كالغِضاب [٤]

وقال صفوان الأنصاري يمدح خطباء المعتزلة:

يصيبون فصل القول في كل خطبة ... إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر [٥]

وكان اتخاذ المخاصر من الأمور التي عابها الشعوبيون على العرب في العصر العباسي، وقد أفرد الجاحظ جانباً كبيراً من كتاب البيان والتبيين للرد عليهم ولبيان فضائل العصا. وحمل العصا عنده «دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للاطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم ومنسوب إليهم [٦]».

وما نحسب أن الخطباء كانوا يرون لاتخاذ العصا فائدة معينة، وإنما هي عادة

---

(١) البيان والتبيين ٣/٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٣/١١٩ .
(٣) سرح العيون ص ٨٧ .
(٤) البيان والتبيين ٣/٩ .
(٥) المصدر السابق ١/٣٧١ .
(٦) المصدر السابق ٣/١١٧ .

ألفوها وبات من العسير عليهم التخلي عنها ، ومن ثم أصبحت المخصرة من سمات الخطيب اللازمة له . وإن التزام الخطباء الأمويين لهذه العادات الموروثة عن العصر الجاهلي ينبئنا أن الاسلام لم يكن له أثر في تغيير شارات الخطباء وعاداتهم وزيهم ، إلا ما كان من اتخاذ المنابر بدلا من الوقوف على نشز من الأرض أو الخطابة على الرواحل .

ومن المحقق أن هيئة الخطيب لها أثرها في الجماهير ، فالخطيب إذا كان قصيراً قميئاً زري المنظر اقتحمته أعين الناس ، وعلى نقيض ذلك إذا كان فارع الطول عظيم الهامة حسن السمت ، فإن منظره خليق بأن يجمل الأنظار تتعلق به وبأن يملأ قلوب الناس هيبة وتوقيراً له . وقد كان الحجاج خبيراً بما يتركه منظر الخطيب من أثر في نفس الجماهير ، فاختار حين قدم الكوفة طريقة مسرحية يفجأ بها أنظار الناس ، روى عبد الملك بن عمير الليثي قال : بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، يؤم المنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم . فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي : ألا أحصبه لكم . فقالوا : أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني[1] » .

فقد أراد الحجاج أن يقدم نفسه لأهل العراق ، فاختار هذه الطريقة المسرحية الطريفة ، و « أخرج » خطبته « إخراجا » فنيًّا يليق بموضوعها : جاءهم في هذا الزي البدوي ، مقنعاً قد غطى أكثر وجهه ، ثم أمهلهم حتى نفد صبرهم وتعلقت أنظارهم به ، ثم حسر اللثام عن وجهه فجأة ، وابتدرهم ببيت سحيم بن وثيل المشهور ، ولم تكن

---

(١) الكامل للمبرد ١/٢٢٣ .

غاية الحجاج من الظهور بهذا المظهر إلا طبع صورته المخيفة في نفوس أهل العراق ، وملء قلوبهم رعباً وهلعاً . وقد تحقق له ما أراده فأصبح اسمه وحده كافياً لبث الذعر والهلع في قلوب أهل العراق .

على أن من الخطباء من كانت جودة كلامه تعوض عن قبح منظره ، وذلك شأن الأحنف بن قيس مثلا ، فقد كان قبيح الهيئة أشدق ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه[1] . وروى الجاحظ أن أبا واثلة إياس بن معاوية المزني أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق ، فاستولى على المجلس ، ورأوه أحمر دميماً باذ الهيئة قشفاً ، فاستهانوا به ، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا : « الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا في زي مسكين ، تكلمنا بكلام الملوك[2] . »

(ب) وكان الخطيب الأموي يستعين بالإشارة أثناء خطبته، والإشارة من مستلزمات الخطابة عامة ، وهي تعبر عن شدة انفعال الخطيب . ولا يستحسن في الخطيب أن يقف ثابتاً كصنم منحوت ، فإن هذا الجمود يوحي ببرود عاطفته وجمود إحساسه وعدم انفعاله بموضوع خطبته ، وذلك كله خليق بأن يجرد خطبته من نبضة الحياة وقوة التأثير . وكان الخطباء الأمويون يشيرون ، كما قدمنا بالمخصرة والعصا ، وليس في هذا ما يعيبهم . إلا أنهم كانوا يعيبون على الخطيب أن يصدر عنه من الحركات ، أثناء الخطابة ، ما يشي باضطرابه ووجله ، فالخطيب الممتاز عندهم ينبغي أن يكون ثابت الجنان ، رابط الجأش، قليل التلفت . وقد جعل أبو هلال العسكري علامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه وتمهله في منطقه[3] . وكان اضطراب الخطيب وفقدانه السيطرة على أعصابه يؤديان إلى أن يأتي بحركات تفضح حالته النفسية المضطربة . كأن ينظر في عيون الناس ، أو يمس سباله ، أو يمسح عثنونه[4] ، أو يسعل سعالا مصطنعاً ، أو يرتعش ، أو يفتل أصابعه ، أو يكثر من التلفت . وقد نقل الجاحظ كلام بعض

---

(١) البيان والتبيين ١/٥٦ .

(٢) المصدر السابق ١/٩٨ .

(٣) الصناعتين للعسكري ص ٢٢ .

(٤) السبال ج سبله : مقدم اللحية وما استرسل منها ، والعثنون : ما نبت من اللحية على الذقن .

النقاد في عيوب الخطابة ، فروى عن أبي داود بن حريز قوله : . « تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب[١] » وعاب شاعر أحد الخطباء فقال :

مليء ببهر والتفات وسعلة   ومسحة عثنون وفتل الأصابع[٢]

وربما اعترى الخطباء الخوف والاضطراب أثناء الخطابة لسبب خارجي ، فانعكس صدى اضطرابهم في حركاتهم ، شأن زيد بن جندب خطيب الأزارقة المفوه ، فقد أخرجته قعقعة رماح المعركة عن اتزانه وهدوئه ، وهو يخطب ، فإذا بـه يسعل ويتنحنح ، وأشار إلى ذلك الأشل الأزرقي ـ وهو من شعراء الخوارج ـ فقال :

نحنح زيد وسعل   لما رأى وقع الأسل
ويل امه إذا ارتجل   ثم أطال واحتفل[٣]

أما خالد بن عبد الله القسري فقد جعله الخوف يخلط في كلامه ويأتي بحركات لا تليق بخطيب مفوه مثله ، روى المبرد أن خالداً كان يخطب مرة ، فخرج عليه المغيرة ابن سعيد بالكوفة في عشرين رجلا ، فطعطوا بـه ، فاضطرب خالد وقال : أطعموني ماء ، وعيره أحد الشعراء بما أصابه من الخوف والتخليط فقال :

بل المنابر من خوف ومن وهل   واستطعم الماء لما جد في الهرب[٤]

(ج) ولم يكن هذا كل ما كان يعتري الخطيب نتيجة الاضطراب النفسي الذي كان يتعرض له أحياناً حين يتصدى للخطابة ، هذا الاضطراب الذي سميناه « رعشة المنابر » ، وإنما كان يعتريه أحياناً أعراض أخطر من ذلك ، كالبهر وهو انقطاع النفس بسبب الاضطراب والإعياء ، وقد يتصبب العرق منـه . رووا أن صعصعة بن

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٢) الكامل للمبرد ١/٢٠ . البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٣) البيان والتبيين ١/٤٢ .
(٤) الكامل ١/٢٠ . طعطوا به : من الطعطعة وهي تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب .

صوحان تكلم عند معاوية مرة فعرق ، فقال معاوية : بهرك القول ، فأجاب صعصعة : « إن الجياد نضاحة بالماء » . (١) على أن أخطر ما يتعرض له الخطيب من هذه الأعراض الإرتاج والحصر : يقف الخطيب ليخطب وقد ازدحمت الأفكار في ذهنه فإذا بالاضطراب يدهمه فيشل مقدرته على تركيز أفكاره ، ويعجز عن الكلام عجزاً مطلقاً فكأنما قد عقل لسانه ، يبحث عن الألفاظ فتفر منه ، وعن الجمل فتتأبى عليه ، ويلتمس المعاني التي كانت منذ قليل جاهزة في فكره فلا يجدها وإنما يجد الضباب يغشى قواه الفكرية ، ويقول إذ ذاك كلاما لا يمت إلى الموضوع الذي يريد الكلام فيه بصلة . وقد يقول ما يحمل الناس على الضحك ، وربما نزل دون أن يقول شيئاً . ولحظة الحصر هذه من أتعس اللحظات التي يمر بها الخطيب في حياته ، وهي تترك في نفسه آثاراً سيئة لا يسهل محوها . وقد حدثنا أن عبد الله بن عامر حصر مرة على منبر البصرة فشق ذلك عليه كثيراً ، وحاول زياد أن يسري عنه بقوله إن ما اعتراه من الحصر يعتري أكثر الناس(٢) . وأكثر ما يتعرض الخطيب للارتاج والإجبال حين يتصدى للخطابة ارتجالا وابتداهاً دون إعداد مسبق . ولم يكن الحصر وقفاً على ضعاف الخطباء بل كان الخطباء المفوهون عرضة كذلك لهذا الموقف المؤلم . روى الجاحظ أن عدي بن أرطاة صعد المنبر يوماً فلما رأى جماعة الناس حصر فقال : « الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم » ، وخطب مصعب بن حيان خطبة نكاح فحصر فقال : « لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله » ، فقالت أم الجارية : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك(٣)؟ وربما استطاع الخطيب أن يملك زمام نفسه بعد حين ويتخلص من حرج موقفه بلباقة ، صنيع ثابت قطنة حين أراد أن يخطب بسجستان ذات مرة فحصر ، فلما نزل عن المنبر قال :

فإلا أكن فيكم خطيباً فإنني ... بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيبُ

(١) البيان والتبيين ١/١٣٣ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٥١ .
(٣) المصدر السابق ٢/٢٥٠ .

فقيل له : لو قلت هذا على المنبر لكنت خطيباً[١]. وأرتج على معاوية في خطبته حين ولي فقال معلقاً على ما أصابه من حصر : « أيها الناس ، إني كنت أعددت مقالا أقوم به فيكم فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهاكم الله ورسوله ، وأستغفر الله لي ولكم[٢] » ، فكان لبقاً في تخلصه من موقفه بهذا الكلام . وقد وصف خالد القسري حال من يرتج عليه وما ينبغي له حينئذ من التأني والتريث . وذلك أنه أراد الكلام مرة فحصر ، فمكث ملياً لا يتكلم ، ثم لما ثابت إليه نفسه وزال عنه اضطرابه وتهيأ له الكلام قال : « أما بعد ، فإن هذا الكلام يجيء أحياناً ، ويعزب أحياناً فيسيح عند مجيئه سَيبه ، ويعزّ عند عُزوبه طلبُه ، ولربما كُوبر فأبى ، وعُولج فنأى ، فالتأني لمجيئه خير من التعاطي لأبيّه ، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجريء جنانه ، وسأعود فأقول إن شاء الله[٣] » .

(د) والصوت والنطق من العناصر ذات الشأن الكبير في الأداء الخطابي ، فإن حسن الأداء وجهارة الصوت ، وسلامة النطق ، مما يزيد في رونق الخطبة وحسن موقعها في النفوس ، والخطيب لا يؤثر في المستمع من طريق الأفكار فحسب وإنما يؤثر أيضاً في حاستي السمع والبصر ، وتتضافر هذه المؤثرات كلها لتكون لدى السامع فكرته عن الخطيب . والحكم على الخطيب من خلال آثاره وحدها حكم ناقص أبتر ، ولا بد من تقدير حظه من الأداء الخطابي ليكون الحكم مستوفياً شروط الصحة والدقة . وقد عني النقاد ببيان ما للصوت والنطق من عظيم الشأن في الخطابة والفصاحة ، فقال قدامة : « ومما يزيد في حسن الخطابة وجلال موقعها جهارة الصوت ، فإنه من أجل أوصاف الخطباء » . إلا أن قدامة لم يشترط حلاوة النغمة في الخطابة : « وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت

---

(١) الطبري ٥/٣٨٦ .
(٢) العقد الفريد ٤/١٤٨ .
(٣) المصدر السابق .

جهيراً ، لأن حلاوة النغمة إنما تراد في التلحين والإنشاد دون غيرهما (١) ، » وقال الجاحظ : « وكانوا يمدحون الجهير الصوت ، ويذمّون الضئيـل الصوت ، ولذلك تشادقوا في الكلام ، ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغر الفم (٢) . » . وقد أشاد الشعراء أيضاً بجهارة الصوت في الخطابة فقال أحدهم يمدح معاوية بذلك :

ركوبُ المنابر وثّابهـــا   معَن بخُطبته مِجْهَر (٣)

والخطيب الماهر هو الذي يستطيع أن يتصرف بصوته انخفاضاً وارتفاعاً ، مسايراً موضوع الخطبة وانفعال السامعين ، فإن من شأن هـذا التلوين الصوتي أن يبعد السآمة عن المخاطبين ويجنب خطبته الرتابة المملة . والخطيب يبـدأ خطبته عادة بصوت خفيض لأن نفسه تكون إذ ذاك هادئة ، فإذا مضى في خطبته تفاقم انفعاله واندفاعه ، وازداد بالتالي صوته ارتفاعاً وهديراً . وكان الحجاج خبيراً بأثر الصوت في الجماهير ، وكان من تمام طريقته المسرحية في التأثير في سامعيه أنـه كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً حتى لايكاد يسمع ، ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يـده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد (٤) .

ومنذ العصر الجاهلي عرف كثير من الخطباء ، ولاسيما الأعراب منهم ، بضرب من التكلف في النطق والتزيد في جهارة الصوت ، والتصرف بمخارج الحروف بغية التفاصح وتضخيم الصوت ، وهو الذي عرف بالتشادق والتقعر (٥) . وقد أثر عن الرسول عليه السلام أقوال ينهى فيها عن التشادق كقوله : « إياي والتشادق » . وذكر الجاحظ أن الرسول عاب « المتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعـة الأشداق ورحب الغلاصم وهدل الشفاه (٦) » . كما أثر عن الرسول كرهه التخلل باللسان : « إن الله تبارك وتعالى يبغض الرجل الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة

(١) نقد النثر ص ٩٥ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٢٠ .
(٣) المصدر السابق ١/١٢٧ . المعن : الذي تعن له الخطبة وتنقاد إليه .
(٤) الكامل ١/١٧٩ .
(٥) التشادق والتشديق : لي الشدق للتفصح . والتقعر : التشدق ، والتكلم بأقصى الفم .
(٦) البيان والتبيين ١/١٣ والغلصمة : رأس الحلقوم .

الخلى بلسانها (١) » . على أن هذه العادة الأعرابية ظلت معروفة في العصر الأموي وتكلفها جل الخطباء فكانوا يتشادقون ويتقعرون ، وقد مر بنا قول الجاحظ إن العرب كانوا يمدحون الجهير الصوت ولذلك تشادقوا في الكلام ، ومدح شاعر عمرو بن سعيد الأشدق بالتشادق فقال :

تشادق حتى مال بالقول شِدقُه وكل خطيب لا أبالك أشدق (٢)

وممن عرف بالتشادق من خطباء بني أمية خالد بن عبد الله القسري ، وفيه قال الشاعر يحيى بن نوفل :

وألحنُ الناس كل الناس قاطبـةً وكان يولع بالتشديق في الخُطَب (٣)

فسمة الأشداق كانت صفة محمودة في الخطيب لأنها معينة على جهارة الصوت ولكن تكلف هذه السمة بالتقعر والتشادق ، وهو من قبيل الصنعـة في الأداء الخطابي ، لم يكن صفة محمودة في نظر من يكره التكلف والتصنع من النقاد والبلغاء . وقد ذم الجاحظ صاحب التشديق ، ولكنه جعله أعذر من عيي يتصدى للخطابة : « ثم أعلم ـ أبقاك الله ـ أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف ، وشنعة التزيد ، أعذر من عَيِيّ يتكلف الخطابة (٤) » .

وثمة عيوب في النطق لا يد للخطيب فيها لأنهـا ترجع إلى عيوب في الخلقة وتكوين الأعضاء ، أو إلى أسباب عارضة كتساقط الأسنان ، فمن هذه العيوب الخلقية المؤدية إلى اختلال مخارج الحروف وتشويه النطق ، الشغا ، والفلح ، والضجم والروق ، والفقم ، والشدق (٥) . وهذه العيوب كانت في عدد من خطباء بني

---

(١) البيان ١/٦٣ . والخلى : الرطب من الحشيش .
(٢) المصدر السابق ١/١٢١ .
(٣) المصدر السابق ١/١٢٢ .
(٤) المصدر السابق ١/١٣ .
(٥) الشغا : اختلاف نبتة الأسنان طولا وقصراً ، ودخولا وخروجاً . الفلح : شق في الشفة العليا . الضجم : اعوجاج في الفم . الروق : طولا الثنايا العليا على السفلى. الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى . الشدق : ميل الفم واعوجاج الشدق .

أمية ، وقد ذكر الجاحظ أن زيد بن جندب ، خطيب الأزارقة ، كان أشغى أفلج ، وأنه لولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة (١) ، وكان الأحنف بن قيس أشدق متراكب الأسنان (٢) .

ومما يفسد النطق سقوط بعض ثنايا الخطيب ، روى أبو عثمان أن الجمحي خطب خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام ، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن علي بكلام في جودة كلامه ، إلا أنه فضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير (٣) . وذكر أيضاً أن معاوية لم يتكلم على منبر منذ سقطت ثناياه ، وأن عبد الملك بن مروان شد أسنانه بالذهب وبين الدافع إلى ذلك بقوله : « لولا المنابر والنساء ، ما باليت متى سقطت (٤) . » ، ويرى الجاحظ أن سقوط الأسنان جميعها لا يفسد النطق كسقوط بعضها ، واستدل على ما ذهب إليه بأن سفيان بن الأبرد الكلبي تساقطت جميع أسنانه وكان مع ذلك خطيباً بيناً (٥) .

ومن أبرز عيوب النطق الخلقية اللثغة ، وللجاحظ كلام كثير في اللثغة وأنواعها في الجزء الأول من البيان والتبيين ، واللثغة تقع على الأكثر في أربعة أحرف : الراء ، واللام ، والسين ، والقاف . وأشهر من عرف باللثغة من خطباء العصر الأموي واصل بن عطاء . وقد حدثنا الجاحظ « أن واصلا لما رأى قبح لثغته ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة

---

(١) البيان والتبيين ١/٥٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٥٦ .
(٣) المصدر السابق ١/٥٨ .
(٤) المصدر السابق ١/٦٠ .
(٥) المصدر السابق ١/٦١ .

والفخامة ... إلخ ، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل (١) » . وليست محاولة واصل هذه للتخلص من لثغته بدعاً لم يسبق إليه ، فقد سبقه إلى ذلك خطيب الإغريق الأشهر ديموستين الذي لم يتأت له أن يصبح سيد خطباء اليونان إلا بعد معاناة طويلة ومكابدة مضنية في سبيل التخلص من آفاته في النطق ، وكان يملأ فاه بالحصى ثم يمضي وحده في إلقاء الخطب الطويلة ، حتى استقام نطقه وسلم من العيوب .

ومن عيوب النطق أيضاً : التمتمة ، وهي رد الكلام إلى التاء والميم ، والفأفأة ، وهي تتعتع اللسان في الفاء ، يقول أبو الزحف ، وهو من شعراء العصر الأموي :

لستُ بِفَأْفَاءٍ ولا تمتام ولا كثير الهُجْرِ في الكلام (٢)

ومنها اللجلجة ، وهي التردد والاضطراب في النطق ، قال اللهبي :

ليس خطيب القوم باللجلاج ولا الذي يَزْحل كالهلباج (٣)

ويذكر الجاحظ بعض عيوب اللسان الأخرى فيقول : « ويقال في لسانه حبسة ، إذا كان الكلام يثقل عليه ، ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام ، ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام . ويقال في لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول . فإذا قالوا في لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال (٤) » .

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٨ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٩ . واللهبي الفضل بن العباس من شعراء بني هاشم في العصر الأموي .
الهلباج : الأحمق .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٩ .

ومن خطباء العصر الأموي الذين عرفوا باللكنة عبيد الله بن زياد ، وذلك أنه نشأ بالأساورة ، وهم قوم من العجم نزلوا البصرة ، إذ كان شيرويه زوج أمه مرجانة منهم ، فظهرت في لسانه لكنة العجم ، على فصاحته . ومن لكنته قوله لهانيء بن قبيصة : أهروريّ ، يريد : أحروري (١) .

وقد عرف بعض خطباء العصر الأموى بآفة أخرى من آفات اللسان الناجمة عن مخالطة العرب الأعاجم هي اللحن . وقد تحدثت في فصل المؤثرات الاجتماعية عن هذه الظاهرة وسبب انتشارها في هذا العصر . وقد نسب اللحن إلى طائفة من أعلام خطباء العصر الأموي ، منهم خالد بن عبد الله القسري وخالد بن صفوان والوليد ابن عبد الملك ، بل لم ينج من هذا الطعن شيخا الفصاحة في العصر الأموي : الحجاج والحسن البصري .

فالخطيب الممتاز عندهم من سلم من هذه العيوب التي ذكرناها سواء في هيئته ومظهره ، أو في حركاته وإشاراته ، أو في صوته ونطقه . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان ، ورباطة الجأش ، وقلة التلفت ، وشدة العارضة وحضور البديهة ، وكثرة الماء والريق ، وجهارة الصوت ، وفصاحة المنطق ، ونحو ذلك من الصفات .



(١) البيان والتبيين ١/٧٢ .

القسم الثالث

أعلام الخطابة السياسية في عصر بني أمية

مشاهير الخطباء والأسر ذات الشهرة الخطابية

١ ـ كثرة الخطباء في هذا العصر وسببها

لم يكثر الخطباء في عصر من العصور كثرتهم في عصر بني أمية ، وعددهم في هذا العصر يكاد يواري جميع ما عرفه العرب من الخطباء في سائر العصور . على أن ما انتهى إلينا من الخطب الأموية لا يتناسب مع عدد الخطباء الأمويين الضخم الذين عرفناهم ، ومن المؤكد أن جانباً كبيراً من الخطب الأموية قد فقد . وثمة خطباء تشيد المصادر الأدبية ببراعتهم الخطابية ومع ذلك لا نجد بين أيدينا شيئاً من خطبهم . ولتعليل كثرة الخطباء في هذا العصر حسبنا أن نرجع إلى ما ذكرناه في الفصول السابقة من دواعي ازدهار الخطابة بشتى ضروبها في عصر الأمويين ، ونشاط الخطابة مقترن بوفرة الخطباء ، ونحن نستطيع أن نجمل مختلف الأسباب الداعية إلى تضخم عدد الخطباء في هذا العصر في العوامل التالية :

١ ـ كثرة الأحداث الداخلية والخارجية .

٢ ـ ظهور الفرق السياسية والدينية .

٣ ـ نشاط الحياة الاجتماعية .

٤ ـ احتفاظ جل العرب بسلائقهم الخطابية لقرب عهدهم من العصر الجاهلي عصر الفصاحة الفطرية ، ولتأثرهم بالبلاغة القرآنية ، ولأن اختلاطهم بالعناصر غير العربية لم يكن قد استفحل أمره بعد ، فلم يكن له كبير أثر في إفساد السلائق البيانية . وإن فساد هذه السلائق فيما بعد هو السبب الأول في تناقص عدد الخطباء وتدهور شأن الخطابة العربية وانحطاطها .

★ ★ ★

٢ ـ أشهر الخطباء السياسيين في هذا العصر

أ ـ خطباء بني أمية وأنصارهم

كان خلفاء بني أمية يجيدون الخطابة ، ولا سيما معاوية ويزيد ابنه وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز . وقد أشاد طحلاء الشاعر بفصاحة معاوية فقال :

ركوب المنابر وثّابها ... مِعَنٌّ بخُطبته مِجْهَرْ
تريعُ إليه هوادي الكلامِ ... إذا ضلّ خُطبتَه المِهْذَرْ(١)

وقد روى ابن أبي الحديد جانباً من مفاخرات بني أمية وبني هاشم ، وكان مما تفاخروا به كثرة الخطباء ، وقد فخر بنو أمية بمعاوية بن أبي سفيان : « أخطب الناس قائماً وقاعداً وعلى منبر وفي خطبة نكاح . » وبيزيد ابنه « وكان أعرابي اللسان ، بدوي اللهجة » . وفخروا كذلك بعبد الملك وسليمان والوليد بن يزيد ويزيد الناقص كما فخروا بمن عرف بإجادة الخطابة من سائر الأسرة الأموية وأنصارها(٢).

ومن ألمع خطباء البيت الأموي عتبة بن أبي سفيان ، وأجود خطبه ما قاله في مصر . وعمرو بن سعيد الأشدق ، وهو من أسرة اشتهر أكثر أفرادها بالخطابة فأبوه سعيد بن العاصي خطيب مشهور وكذلك ابنه سعيد بن عمرو ، ومن أبرع خطباء هذه الأسرة أيضاً عمرو بن خولة ، وسنعود إلى هؤلاء حين نتحدث عن الأسر التي اشتهرت بالخطابة .

ومن خطباء البيت الأموي أيضاً خالد بن يزيد ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً(٣) .

وكان جل ولاة بني أمية خطباء مصاقع ، وفي طليعتهم زياد بن أبيه وابنه

---

(١) البيان ١/١٢٧ . تريع إليه : ترجع . هوادي الكلام : أوائله .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣/٤٧٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

عبيد الله بن زياد ، على لكنة كانت فيه [١] . والحجاج بن يوسف وقد شهد أكثر النقاد ببلاغته وفصاحته فقال أبو عمرو بن العلاء : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج [٢] » وقال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي : لأحسبه صادقاً وإني لأظنهم ظالمين له [٣] . ».
ومنهم خالد بن عبد الله القسري ، وهو يمت إلى أسرة اشتهرت بالخطابة فكان جده يزيد بن أسد خطيباً مشهوراً ، وقد خطب يوم صفين يحرض الناس على قتال علي ، وكان يلقب خطيب الشيطان . ويذكر أبو الفرج أنه كان أكذب الناس في كل شيء ، ثم نشأ ابنه عبد الله فسلك مناهجه في الكذب ، ثم نشأ خالد ففاق الجماعة ، إلا أن رياسة وسخاء كانا فيه سترا ذلك من أمره [٤] . ولما استعمل خالد على العراق قيل له « خطيب الله [٥] » . وعلى أنه عرف باللحن كان من ألمع خطباء الحزب الأموي ، وقد شهد له المبرد أنه كان : « متقدماً في الخطابة ومتناهياً في البلاغة [٦] » . وقد عرف خالد بالتشادق في خطبه وإلى هذا أشار يحيى بن نوفل إذ قال يهجوه :

وألحن النـاسِ كلّ الناس قاطبـةً ... وكان يُولَعُ بالتَّشْدِيقِ في الخُطَبِ [٧]

وكذلك عرف من ولاة بني أمية بالخطابة قتيبة بن مسلم ، وقد اشتهر بخطبه الحربية التي كان يحض بها جنده على القتال في غزوات ما وراء النهر ، والنعمان ابن بشير ، ويوسف بن عمر الثقفي ، وعثمان بن حيان المرّي والي المدينة من قبل

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٦٣ .
(٣) المصدر السابق ٢/٢٦٨ .
(٤) الأغاني ١٩/٥٢ . ويذكر الجاحظ (البيان ٢/٢٧٥) أن لقب خطيب الشيطان كان يطلق على أبي يزيد وهو أسد بن كرز ، ورواية الأغاني أصح لأن أسدا هذا كان شاعراً جاهلياً .
(٥) البيان ٢/٢٧٥ .
(٦) الكامل ١/٢٠ .
(٧) البيان والتبيين ١/١٢٢ .

الوليد بن عبد الملك ، والضحاك بن قيس الفهري ، وكان والياً على دمشق قبل أن ينقلب على بني أمية ، ورَوح بن زِنْباع والي فلسطين أيام يزيد بن معاوية . وقد روى الجاحظ أن عبد الملك بن مروان سأل خالد بن سلمة المخزومي : « من أخطب الناس ، فقال : أنا . قال : ثم من . قال : سيد جذام – يعني روح بن زنباع – . قال : ثم من . قال : أُخيفش ثقيف ، يعني الحجاج . قال : ثم من ، قال : أمير المؤمنين . قال : ويحك جعلتني رابع أربعة . قال : نعم ، هو ما سمعت[1] » ومنهم نصر بن سيّار أمير خراسان في الحقبة الأخيرة من العصر الأموي ، وكان ممن جمعوا بين إجادة الخطابة والشعر . ومنهم أسد بن عبد الله أخو خالد القسري ، ومنهم عبد الله بن عامر أول ولاة البصرة من قبل معاوية وبلال بن أبي بردة الأشعري والي البصرة وقاضيها ، وفيه يقول ذو الرمة :

فصلتَ بحكمة فأصبت منها فُصوص الحق فانفصل انفصالا[2]

وهو الذي فاق الخطباء في شتم الحجاج حين اجتمعوا في مجلس سليمان بن عبد الملك . ومنهم عبد الله بن عبد الله بن الأهتم والي خراسان ، وهو من آل الأهتم الذين حملوا لواء الخطابة في عصر بني أمية .

واشتهر من قادة بني أمية بالخطابة المهلب بن أبي صفرة هازم الأزارقة ومشتت شملهم ، وله خطب جيدة في الحث على قتال الخوارج ، ووصية مشهورة أوصى بها بنيه قبيل وفاته[3] ، . وطارق بن زياد وهو من الموالي ، وخطبته بالأندلس مشهورة . ومسلم بن عُقبة المُرّي صاحب وقعة الحرة ، وسفيان بن الأبرد قائد جيوش الشاميين في قتال الخارجين على بني أمية بالعراق ، وقد ذكر أبو عثمان أنه كان يجمع بين الحار والقار فتساقطت جميع أسنانه وكان مع ذلك خطيباً بيناً[4] . وعتاب بن

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٦ .
(٢) البيان ١/١٤٨ .
(٣) تاريخ الطبري ٥/١٦١ .
(٤) البيان ١/٦١ .

ورقاء وكان يقص على جنده قصصاً كثيراً محرضاً على قتال شبيب الخارجي [١] وزائدة بن قدامة وهو أيضاً ممن قاتلوا شبيباً وكان يحرض أصحابه بخطبه على مناجزته [٢].

وممن وقف في صف بني أمية من الخطباء المشهورين مصقلة بن كرب بن رقبة وهو من أسرة عريقة في الفن الخطابي ، وقد دخل الكوفة مع الحجاج بعد وقعه دير الجماجم وأمره الحجاج أن يشتم كل امرىء بما فيه [٣]. ويزيد بن المقنّع صاحب الخطبة الموجزة المشهورة يوم دعا معاوية الناس لمبايعة يزيد ، وقد دعاه معاوية سيد الخطباء [٤]. وخالد بن سلمة المخزومي الذي كان يعرف بذي الضرس وذي الشفة [٥] ، وهو من أبرع خطباء قريش ، وحين سأله عبد الملك من أخطب الناس قدم نفسه على الخطباء . وعبد الرحمن بن عثمان الثقفي وهو من الخطباء الذين شاركوا في الدعوة لمبايعة يزيد . وزياد بن ظبيان التيمي وابنه عبيد الله بن زياد قاتل مصعب ابن الزبير ، وكان من أفتك الناس وأخطبهم [٦] . وزرعة بن ضمرة ، وهو الذي قيل فيه : « لولا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب ». وقد فاخر به معاوية أهل الشام حين خطب في مجلسه وقال : يا أهل الشام ، هذا خالي فائتوني بخال مثله [٧]. وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانوا يشبهونه بعمرو بن سعيد الأشدق بنغمة صوته وجهارته ، وكان مسلمة بن عبد الملك أو هشام يقول : « إني لأنحي كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى [٨] » ، وهو ممن فاخر بنو أميـة بهم بني هاشم . والغضبان بن القبَعثَري ، وكان من أنصـار بني مروان في العراق الذين

---

(١) الطبري ٥/٨٩ .
(٢) الطبري ٥/٧٤ .
(٣) الطبري ٥/١٦٩ .
(٤) العقد ٤/٣٧٠ .
(٥) البيان ١/٣٠ .
(٦) البيان ١/٣٢٥ .
(٧) البيان ١/٣٥٤ .
(٨) البيان ١/٣٤٤ .

كاتبهم عبد الملك حين قدم لقتال مصعب [١] . ولما هلك بِشْر بن مروان وولي الحجاج مكانه خطب في أهل الكوفة يحرضهم على قتال الحجاج ويدعوهم إلى أن « يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم » . فلما قدم الحجاج الكوفة ظفر به فحبسه ثم خلى سبيله [٢] .

وثمة خطيب لم يحتفظ بلون سياسي واحد هو شبث بن ربعي فهو تارة من أنصار علي ، وتارة من الخوارج ، وتارة ثالثة من أنصار الحزب الأموي .

ب — خطباء الخوارج

إن الفصاحة العربية الأصيلة إنما نجدها في خطباء الخوارج ، وقد عرف أكثر رجالهم بالمهارة البيانية والبراعة في مجادلة خصومهم وفي الدفاع عن عقيدتهم ومبادئهم . وقد شهد عبيد الله بن زياد بفصاحتهم وأثر كلامهم في النفوس فقال : « الكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع [٣] . » واشتهر من خطبائهم في صدر العصر الأموي المُستورد بن عُلّفَة ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة وطائفة من الأقوال الحكيمة . وممن عرف بالخطابة من جماعته حيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جُوَين الطائي .

وكان في صفوف الأزارقة عدد وفر من الخطباء منهم قطري بن الفجاءة ، وقد نسب إليه الجاحظ خطبة طويلة تحدثنا عنها آنفاً ، وذكر الجاحظ أيضاً أن له كلاماً كثيراً محفوظاً [٤] . ومنهم عبد ربه ، والزبير بن علي وقد أورد المبرد شيئاً من خطبها [٥] . وعبيدة بن هلال اليشكُري ، وهو الذى ناظر عبد الله بن

---

(١) الطبري ٥/٦ .
(٢) مروج الذهب ٢/١٤٦ .
(٣) الكامل ٢/١٥٥ .
(٤) البيان ١/٣٤٢ .
(٥) الكامل ٢/٢٠٠ ، ٢٤٣ .

الزبير ، وقد وصف بعضهم بلاغة عبيدة في هذه المناظرة فقال : « ما سمعت ناطقاً قط ينطِق كان أبلغ ولا أصوب قولا منه ، وإن كان ليجمع القول الكثير في المعنى الخطير في اللفظ اليسير [١] » . وزيد بن جندب الإيادى خطيب الأزارقة وشاعرهم وقد أشاد الجاحظ بفصاحته وأورد بعض ما قيل في وصف بلاغته التي أصبحت مضرب الأمثال فقال أحد شعراء إياد في معرض رثائه لأبي دواد الإيادي :

كقُس إياد أو لقيطِ بن معبـــد وعُذرة والمِنْطيق زيد بن جُندب[٢]

وذكر الجاحظ أنه كان أشغى أفلح ، وأنه لولا ذلك لكان أخطب العرب[٣]. على أننا لا نجد فيما بين أيدينا من مصادر شيئاً من خطب زيد هذا ، وقد فقدت فيما فقد من خطب الخوارج ، ولم ينته إلينا إلا نتف من أشعاره أوردها الجاحظ في البيان والتبيين . ومنهم المُقَعطل قاضي عسكر الأزارقة أيام قطري [٤] .

واشتهر من خطباء الصفرية عِمران بن حِطّان الذهْلي ، وكان شاعر الصفرية وخطيبهم ورئيس القعد فيهم وصاحب فتياهم ، ومفزعهم عند اختلافهم [٥] . وقد خطب عند زياد خطبة انتزعت إعجاب سامعيها ، وقال أحدهم معلقاً عليها : « هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن [٦] » . وخطب ابن حطان مما فقد أيضاً ولم يصلنا إلا طائفة من أشعاره . ومن خطباء الصفرية الذين جمعوا بين الشعر والخطابة الطرماح بن حكيم الطائي ، وكان صديقاً للكُميت شاعر الشيعة وخطيبها ، وقد ذكر الجاحظ أن أحدهم أنشد الكميت قول الطرماح في نفسه :

إذا قبِضَتْ نفس الطرماح أخلقت عُرى المجد واسترخى عَنان القصائد

فقال : « إي والله ، وعنان الخطابة والرواية [٧] » . ومن أشهر خطباء الصفرية

(١) الطبري ٤/٤٣٧ .
(٢) البيان ١/٤٢ .
(٣) البيان ١/٥٥ .
(٤) البيان ١/٣٤٧ .
(٥) الكامل ٢/١٠٨ .
(٦) البيان ١/١١٨ .
(٧) البيان ١/٤٦ ، والمدائني يجعل الطرماح من الأزارقة لا من الصفرية .

صالح بن مُسَرّح ، وقد ذَكر الطبري أنه كان له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم ، ثم روى جانبـاً من قصصه [١] . ومنهم الضحاك بن قيس الشيباني الذي خرج في أواخر أيام بني أمية وملك العراق حقبة من الزمن . ومن خطباء الصفرية الذين ذكرهم الجاحظ ولم يصلنا شيء من خطبهم شُبَيْل بن عَزرة الضبعي. وكان في مبدأ أمره رافضيًا ثم صار صفريًا [٢] .

ومن الإباضية ظهر أبو حمزة الشاري أبرع خطباء الخوارج قاطبة . ومن حسن الحظ أن المؤرخين عنوا بخطبه فلم تفقد شأن أكثر خطب الخوارج . وخطبه التي انتهت إلينا تضعه في مصاف ألمع خطباء العصر الأموي . ومن العجيب أن الجاحظ أغفل ذكر أبي حمزة حين عدد خطباء الخوارج مع أنه ذكر أسماء خطباء لم يدركوا بعض ما أدركه أبو حمزة من المقدرة الخطابية والمهارة البيانية . وكان عبد الله بن يحيى طالب الحق رأس الإباضيـة في عصره خطيباً مجيداً ، وقد أورد أبو الفرج طرفاً من خطبه [٣] .

جـ — خطباء الشيعة وبني هاشم

عرف جل رجال بني هاشم بفصاحة اللسان وإجادة الخطابة وبحضور البديهـة عند تناظر الأقران وتباري مقاول الـكلام . وقد شهد لهم بهذه البراعـة القولية أنصارهم وخصومهم على السواء . روى صاحب العقد أن معاوية بينما كان جالساً في أصحابه إذ قيل له إن الحسن بالباب ، فقال معاوية : « إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه . فقال له مروان : ايذن له ، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب . فقال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الـكلام [٤] » .

(١) الطبري ٥/٥٠ .
(٢) البيان ١/٣٤٣ .
(٣) الأغاني ٢٠/٩٨ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢٠ .

وقـد ورث الحسن بن علي وأخوه الحسين بن علي عن أبيهما فصاحة اللسان والبراعة الخطابية ، إلا أنهما لم يبلغا في ذلك مبلغ أبيهما سيد خطباء عصره . وعلى الرغم مما عرف به الحسن من ثقل اللسان كان خطيباً مجيداً حاضر البديهة ، وقد أراد عمرو بن العاص أن يظهر عيّه للناس فأشار على معاوية أن يطلب إليه الخطابة، يوم عقد الصلح بينهما ، فقام الحسن فخطب وأجاد ، ولم تخـــل خطبته من بعض التعريض بمعاوية ، فلم يزل معاوية حانقاً على عمرو بسبب مشورته هذه (١) . وشهد له معاوية ، فيما يروي ابن أبي الحديـد ، أنه « ممن لا تطاق عارضته (٢) » . ولم يكن محمد بن الحنفية دون أخويه بلاغة وفصاحة لسان .

وكذلك كان زيد بن علي من الخطباء المفوهين ، وقد شهد له الكثيرون بالمهارة الخطابية ، وذكر الجاحظ أنه كان خطيباً لا يجارى (٣) . ومن المؤسف أنه لم يصلنا شيء من خطبه نستدل به على مبلغ فصاحته ، وحين قـدم على هشام بن عبد الملك رأى فيه « رجلا جدلا لسناً خليقاً لتمويـه الكلام وصوغه واجترار الرجال بحلاوة لسانه ، وبكثرة مخارجه في حججه (٤) ... »

ومن خطباء بني هاشم الذين ملكوا ناصية القول عبد الله بن عباس وقد عـده الجاحظ من الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون ، وروى عنه أنه خطب بمكة خطبة لو سمعتها الترك والديلم لأسلمتا ، ثم روى قول حسان بن ثابت فيه :

إذا قال لم يترك مقـــالا لقائل   بملتقَطات لا ترى بينهـــا فضلا

إلى آخر الأبيات (٥) . وقد استطاع ابن عباس بذلاقة لسانه وقوة حجته إفحام الخوارج حين ناظرهم ودحض أقوالهم ، وقال له الخوارج حـين ناظرهم في السباء وغلبهم : « أمسك عنا غرب لسانك يا بن عباس فإنه طلق ذلق غواص على موضع

---

(١) الطبري ٤/١٢٤ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢/١٠١ .
(٣) البيان ١/٣٥٣ .
(٤) الطبري ٥/٤٨٩ .
(٥) البيان ١/٣٣٠ .

الحجة[١] . وكان ابن عباس بطل جل المفاخرات التي جرت بين بني هاشم وبني أمية ، وكذلك المفاخرات التي وقعت بين بني هاشم وابن الزبير ، وكانت جميع هذه المفاخرات تنتهي بتفوق ابن عباس وظهور حجته على خصومه . وما قدمناه بين يدي البحث من شكنا في صحة كثير من هذه المفاخرات لا يطعن في بلاغة ابن عباس ومهارته الجدلية ، ومن المحقق أن الحزب الهاشمي لم يعرف خطيباً أبرع منه في الجدل والمحاجة ومناظرة الأقران .

ومن خطباء البيت الهاشمي اللامعين عبد الله بن جعفر ، وحفيده عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسنا ، وحين دعا يوسف ابن عمر خطباء الطالبيين إلى التبرؤ من زيد بن علي خطب عبد الله فأطنب وانصرف الناس وهم يقولون : ابن الطيار أخطب الناس[٢] . ومنهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، وأخوه جعفر بن الحسن ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان أحد من ينازع زيداً في الوصية ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا محاوباتهما[٣] .

وكان في شيعة علي وأنصار الطالبيين طائفة من الخطباء المفوهين في طليعتهم صعصعة بن صوحان الذي كانت له محاورات مشهورة مع معاوية وابن عباس . واشتهر من خطباء الشيعة أيضاً المختار الثقفي ، وقد رأيناه يسلك في خطابته مسلكاً يتميز به من بين سائر خطباء عصره ، في حرصه على السجع ومحاكاة كلام الكهان والمتنبئين . وكان في التوابين عدد من الخطباء والدعاة المجيدين منهم شيخهم سليمان ابن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد ، وعبيد الله بن عبد الله المري ، وقد شهد له بعض من سمعه بأنه لم يكن أبلغ منه في منطق ولا عظة[٤] . وكان زهير ابن القين ، بليغاً مفوهاً نصر الحسين بسيفه ولسانه ، ومن أنصار العلويين الذين جمعوا بين إجادة الشعر والخطابة الكميت بن زيد ، وله خطبة مشهورة يستعطف

(١) الكامل للمبرد ٢/١٤٩ .
(٢) البيان ١/٣١٢ .
(٣) البيان ١/٣٣٤ .
(٤) الطبري ٤/٤٣٢ .

بها هشام بن عبد الملك [١] ، والجارود بن أبي سبرة الهذلي الذي قال فيه الحجاج حين سمع حديثه وحسن بيانه : « ما ظننت أن بالعراق مثل هذا ». وكان الجارود يقول : « ما أمكنني وال قط من أذنه إلا غلبت عليه [٢] » .

وحين قامت الدعوة العباسية شد أزرها عدد من الخطباء والدعاة منهم سليمان ابن كثير وطلحة بن رزيق . وقد أشاد الطبري بفصاحتها [٣] ، وقحطبة بن شبيب ، وله خطب يثير بها الخراسانيين على بني أمية والعرب . والقاسم بن مجاشع ، وكان يصلي بشيعة بني العباس ثم يقص القصص فيذكر فضل بني هاشم ومعايب بني أمية [٤]. وكل هؤلاء من النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي ليكونوا دعاة لبني العباس .

د — سائر الخطباء المناهضين لبني أمية

ظهر في صفوف سائر الأحزاب والثائرين على بني أمية طائفة من الخطباء اللامعين وفي طليعتهم عبد الله بن الزبير ، رأس الحزب الزبيري ، وقد شهد له بعضهم بأنه كان من أحسن الناس حديثاً ، وأن من الفصحاء من كان يحرص على محاكاته.[٥] ولما سئل سعيد بن المسيب عن أبلغ الناس جعل معاوية وسعيد بن العاص وابنيهما وعبد الله بن الزبير في مرتبة واحدة ، ولكن كلام ابن الزبير ، عنده ، كان يفتقر إلى الطلاوة [٦] . ونبغ في آل الزبير طائفة من مجيدي الخطباء منهم مصعب ابن الزبير ، وعثمان بن عروة بن الزبير ، وأخوه عبد الله بن عروة ، وكان هذا من أبرع الخطباء وكانوا يشبهونه في بلاغته بخالد بن صفوان [٧] . ومن خطباء

---

(١) الأغاني ١٥/١١٣ .
(٢) البيان ١/٣٢٩ .
(٣) الطبري ٦/٤٤ .
(٤) الطبري ٦/٣٤ .
(٥) البيان ١/١٧٣ .
(٦) البيان ١/٣١٤ .
(٧) المعارف ص ٩٨ .

الحزب الزبيرى اثنان من ولاة ابن الزبير على الكوفة هما عبد الله بن يزيد الأنصاري وعبد الله بن مطيع العدوي .

ولما ثار ابن الأشعث على بني أمية ظاهره عدد من الخطباء وكان عبد الرحمن ابن الأشعث نفسه خطيباً وكان في جيشه كثير من القصاص والخطباء يحرضون القوم على قتال أهل الشام اشتهر منهم عامر بن واثلة الكناني ، وعبد المؤمن بن شبث ابن ربعي ، وكان علماً من أعلام الخطابة ، وذَر بن عبد الله ، وكان من أبلغ الناس في القصص[١].وأيوب بن القرّية وكان يحرض الناس على الحجاج ويقول لهم: تغدوا الجدي قبل أن يتعشاكم[٢] ، ولما قتله الحجاج أدركه الندم وتمنى لو استبقاه ليسمع من كلامه[٣] ، وعلى الرغم من أنه كان أميًّا كانت له منزلة خطابية كبيرة، ويذكر الجاحظ أنه كان عند العامة أشهر في الخطابة من سحبان وائل[٤] . ومنهم أعشى همْدان وهو ممن جمع بين الشعر والخطابة ، وكان ممن قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث[٥] . وعمران بن عصام العنزي ، وكان خطيباً شاعراً ظاهر في أول أمره بني أمية ، وكان ممن أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد ، ويذكر الجاحظ أنه قال بهذه المناسبة خطبة مشهورة وقصيدة[٦] ، ثم خرج مع ابن الأشعث وظفر به الحجاج فقتله[٧] . ومنهم النعمان بن زرعة بن ضمرة ، وقد ظاهر ابن الأشعث على الرغم من أن أباه كان من أنصار بني أمية وتربطه بمعاوية آصرة القربى . ولما وقع النعمان في يد الحجاج استطاع التخلص من القتل بلطيف اعتذاره[٨] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٠٥/٦ .
(٢) البيان ٣٥٠/١ .
(٣) الطبري ١٨٦/٥ .
(٤) البيان ٢٠/١ .
(٥) الطبري ١٨٠/٥ .
(٦) البيان ٤٨/١ .
(٧) الأغاني ٥٨/١٦ .
(٨) البيان ٣٥٤/١ .

ولم يتح لابن المهلب أن يضم إليه خطباء كثيرين كالذين وجدوا في ثورة ابن الأشعث ، وكان يزيد بن المهلب نفسه خطيباً ، وكذلك كان أخوه مروان بن المهلب يجيد الخطابة .

ومن الخطباء الذين بطش بهم الحجاج مَنْجُور بن غَيلان بن خَرَشة ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان من خطباء بني ضبة وعلمائهم وفيه يقول أحد الشعراء :

إذا قال بذّ القائلين مقاله ويأخذ من أكفائه بالْمُخَنَّقِ(١)

وثمة خطيب لم يكن له لون سياسي ثابت ، شأن شبث بن ربعي ، هو صبرة ابن شيمان الأزدي ، كان رئيس الأزد يوم الجمل طالباً بثأر عثمان ، ثم مال إلى شيعة علي وحث قومه على إجارة زياد في فتنة ابن الحضرمي(٢) ، ثم مشى في ركب بني أمية لما صار الأمر إليهم ، وكان خطيب قومه يفخر بهم في مجالس الخلفاء ، وقد روت كتب الأدب خطبته القصيرة التي قالها في مجالس معاوية مفاخراً خطباء نزار(٣) .

٣ ـ الأسر التي اشتهرت بالخطابة في هذا العصر

حين ننظر في الخطابة الجاهلية والإسلامية نلاحظ أن ثمة قبائل كانت الملكة الخطابية فيها أكثر شيوعاً منها في القبائل الأخرى ، ولذلك كثر فيها الخطباء المجلون وهي قبائل إياد وتميم وعبد القيس . وقد ظلت لهذه القبائل الثلاث شهرتها الخطابية في العصر الأموي ، على أنها لم تحتكر وحدها البراعة الخطابية فقد نافستها في هذا المضمار قبائل قريش المضرية ، وثقيف القيسية ، وشيبان الربعية ، والأزد اليمنية ، فكانت كثرة الخطباء الأمويين من هذه القبائل التي ذكرناها .

وفي بعض هذه القبائل لم تكن المهارة البيانية شائعة في أفرادها جميعاً وإنما كانت تتجلى في أسر دون غيرها ، وكانت الموهبة الخطابية فيها إرثاً يتوارثه الأبناء

---

(١) البيان ١/٣٤١ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ١/٣٤٨ .
(٣) الكامل للمبرد ١/٥٨ .

عن الآباء . ففي قبيلة عبد القيس الربعية نجـد في هذا العصر أسرة عريقة في الفن الخطابي هي أسرة آل رقبة . وفي قبيلة تميم حملت لواء الخطابـــة أسرة ظفرت بقسط كبير من الشهرة الخطابية في هذا العصر وفي العصر العباسي هي أسرة آل الأهتم . وفي الدوحة القرشية نجد عدداً من الأسر تألق نجمها في الفن القولي منها الأسرة الهاشمية والأسرة الاموية وآل الزبير وآل العاص .

وسنقف وقفة قصيرة عند الأسر غير القرشية ، أما قريش فقد أعطتنا الفصول السابقة فكرة واضحة عن خطبائها البارزين ، ولا سيما خطباء بني هاشم وبني أمية ، ولذلك سنجتزىء بالكلام على أسرة واحدة منها هي أسرة آل العاص .

وكذلك نجد في هذا العصر ظاهرة جديدة هي ظهور خطباء من العناصر غير العربية ، ولا سيما في مجال الخطابة الدينية ، وقد برعت في هذه الخطابة أسرة فارسية الأصل هي أسرة الرقاشيين .



آل رقبة

تنتمي هذه الأسرة إلى قبيلة عبد القيس الربعية ، وهي من الأسر العريقة في الفن الخطابي . وقد ذكر الجاحظ أن قبيلة عبد القيـس تفرقت بعد محاربة إياد فرقتين نزلت إحداهما عمان وهم خطباء العرب ، واستوطنت الثانية البحرين وهم من أشعر قبائل العرب ، ويظهر أبو عثمان عجبه لظهور هذه المواهب فيهم بعد فراقهم موطنهم الأول ، مع أنها لم تتجل فيهم حين كانوا في « سرة البادية ومعدن الفصاحة »[١] وذكر الجاحظ أسماء عدة من خطباء آل رقبة ولكنه ، كدأبه ، لم يعن ببيان تسلسلهم الزمني ، فذكر منهم : مصقلة بن رقبة ، ورقبة بن مصقلة ، وكرب بن رقبة [٢] . ولم يذكر ابن دريد إلا واحداً من هذه الأسرة هو مصقلة بن كَرب

(١) البيان ٩٦/١ .
(٢) البيان ٣٤٨/١ .

بن رقبة بن خوتمة ، وقال إنه الخطيب [١] . ويظهر أن الذين ترجموا لخطباء هذه الأسرة قد اضطربوا في ذكر أسمائهم ، وربما كان من دواعي هذا الاضطراب اشتراك أكثر من خطيب منهم في اسم واحد .

ولعل أول من اشتهر بالخطابة منهم هو كرب بن رقبة ثم جاء بعده ابنه مصقلة بن كرب بن رقبة وهو أشهر خطباء هذه الأسرة ، وقد ذكره ابن قتيبة ولكنه دعاه مصقلة بن رقبة وذكر أنه كان أخطب الناس زمن الحجاج [٢] . وذكر الطبري أن الحجاج لما دخل الكوفة بعد هزيمة ابن الأشعث بدير الجماجم أجلس مصقلة بن كرب بن رقبة إلى جنبه وأمره أن يخطب فيشتم كل أمرىء بما فيه [٣] . وكان لمصقلة هذا ولدان هما : كرب بن مصقلة ورقبة بن مصقلة ، وكان لكرب خطبة يقال لها « العجوز [٤] » ، وكان آل رقبة يفخرون بهذه الخطبة « ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها [٥] . » ومن المؤسف أن هذه الخطبة لم تصلنا كما لم تصلنا أية خطبة لآل رقبة . وقد عرف رقبة بن مصقلة بالتقوى وعده ابن حجر في رواة الحديث الثقات ، ووصفه أنه كان خطيباً مفوهاً ، ونقل عن ابن الأثير أن وفاته كانت سنة ١٢٩ هـ [٦] . ولرقبة هذا أخبار متفرقة في البيان وغيره يستدل منها على ما عرف به من ورع وتقوى . ولمكانته ألف المدائني كتاباً في أخباره [٧]. ونستدل من خبر أورده الجاحظ على أن ما عرفت به هذه الأسرة من اللسن والفصاحة لم يكن وقفاً على الرجال فحسب بل عرف به نساؤها أيضاً [٨] .

---

(١) الاشتقاق لابن دريد ص ١٩٦ .
(٢) المعارف ص ١٧٧ .
(٣) الطبري ١٦٩/٥ .
(٤) المعارف ص ١٧٧ .
(٥) البيان ٣٤٨/١ .
(٦) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٦/٣ .
(٧) فهرست ابن النديم ص ١٠٠ .
(٨) البيان ١٠٠/٢ .

آل الأهتم

أنجبت قبيلة تميم أسرة تعتبر من أعرق الأسر العربية في الفن الخطابي وهي أسرة آل الأهتم المنقرية . وقد تجلت براعة آل الأهتم الخطابية منذ العصر الجاهلي ، وتوارث أفراد هذه الأسرة الموهبة البيانية فتألق نجم خطبائها طوال العصرين الإسلامي والأموي وفي الحقبة الأولى من العصر العباسي .

وأول من انتهت إلينا أخباره من خطباء هذه الأسرة عمرو بن الأهتم ، وهو الذي قال الرسول حين سمع كلامه وأعجب ببلاغته : « إن من البيان لسحرا [١] » ، وكان أخوه عبد الله بن الأهتم ، خطيباً ذا مقامات ووفادات [٢] ومن نسل عبد الله هذا ظهر سائر خطباء آل الأهتم ، فكان له ولدان اشتهرا بالخطابة هما : صفوان بن عبد الله بن الأهتم وعبد الله بن عبد الله بن الأهتم ، وقد أصاب هذا منزلة رفيعة في عصر بني أمية فولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عندهم ، وحدثنا أنه دخل على عمر بن عبد العزيز مع العامة فألقى بين يديه خطبة طويلة عرض فيها بأسلاف عمر ، وصارحه فيها بأنه منذ قضى أبو بكر وعمر لم يجتمع أمر المسلمين إلا على « ضلع أعوج [٣] » ، وكان عبد الله هذا في جملة من أوفدهم عدي بن أرطاة إلى المهالبة حين خلعوا طاعة يزيد بن عبد الملك [٤] .

وفي الحقبة الأخيرة من عصر بني أمية ظهر من هذه الأسرة خطيبان أصابا حظاً بعيداً من الشهرة الخطابية ، هما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم وشبيب ابن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم . وكان هذان الخطيبان في جملة الخطباء الذين تباروا في مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وكانت بينهما منافسة شديدة في مضمار البلاغة والخطابة ، وأشار الجاحظ إلى هذه المنافسة التي كانت

---

(١) البيان ١/٥٣ .
(٢) البيان ١/٣٥٥ .
(٣) البيان ٢/١١٧ ، والعقد ٤/٩٣ وفي بعض الروايات : «على ظلع» مكان «على ضلع أعوج» .
(٤) البيان ٢/١٧٣ .

بينهما « الذي اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة والقرابة والمجاورة (١) » ، وكان من آثار هذا التنافس أن كلا منهما كان يحاول أن يعرض بصاحبه ، فكان خالد يقول في شبيب مثلا : « ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية (٢) » .

وقد شهد الجاحظ ببلاغتهما فقال : « وما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة الذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم ، وما أعلم أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً (٣) . » .

وعلى ما اتصف به خالد من البلاغة واللسن كان ممن عرفوا باللحن ، وكان يدخل على بلال بن أبي بردة ، والي البصرة ، يحدثه فيلحن فيقول له بلال : « أتحدثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات » ، فكان هذا فيما ذكروا سبب إقباله على تعلم الإعراب (٤) . وكانت صلة خالد وثيقة بهشام بن عبد الملك ، كان يفد عليه ويحدثه وربما وعظه فأبكاه (٥) . ويستخلص من بعض الأخبار أن بصره كف في ولاية بلال بن أبي بردة على البصرة (٦) . وشهد خالد انهيار الحكم الأموي وقيام الدولة العباسية ، وكانت صلته وثيقة بأبي العباس السفاح ، وكان من سماره وأهل المنزلة عنده ، فيما يروي الجاحظ (٧) . وقد فاخرة بعض اليمنية في مجلس أبي العباس فرد عليهم رداً مفحماً (٨) ، وعلق الجاحظ على هذا الرد بقوله : « فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام ، إنه المراوية الحافظ والمؤلف المجيد. ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حرك وبسط فماله نظير في الدنيا (٩) . » ،

(١) البيان ١/٤٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) البيان ١/٣١٧ .
(٤) الكامل للمبرد ١/٢٦٢ .
(٥) عيون الأخبار ٢/٣٤١ .
(٦) الكامل ١/٢٦٢ .
(٧) البيان ١/٣٣٩ .
(٨) زهر الاداب ٣/١٣٠ .
(٩) البيان ١/٣٣٩ .

وأدرك خالد زمن المنصور فقد ذكر المبرد أن جفوة وقعت بينه وبين سليمان بن علي عم الخليفة المنصور ووالي البصرة من قبله ، وأن سليمان أعرض عنه لذمه ولديه [١] . وقد أطرى بلاغة خالد كثير من النقاد والأدباء ، وكان الجاحظ من أشد المعجبين ببيانه وذلاقة لسانه ووصفه بأنه « أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سلف من منطقه [٢] . » وجعله المبرد « أحد من إذا عرض له القول قال [٣] » وقال فيه الشاعر مكي بن سوادة :

عليم بتنزيل الكلام ملقّن ذكور لما سدّاه أول أولا
يبذ قريع القوم في كل محفل وإن كان سحبان الخطيب ودغفلا
ترى خطباء القوم يوم ارتجاله كأنهم الكروان عاين أجدلا [٤]

وكان شبيب قريباً لابن عمه خالد في البلاغة والخطابة ، ولكنه لم يكن في منزلة خالد بلاغة وبياناً . قال الحصري : « وكان شبيب من أفصح الناس وأخطبهم ويشبه بخالد بن صفوان ، غير أن خالداً كان أعلى منه قدراً في الخاصة والعامة[٥] » وكان شبيب من خطباء المحافل المدودين ، وقد أثر عنه كلام يوصي فيه الخطباء بالحرص على السلامة من الخطل حين يتصدون للخطابة في المجالس والمقامات [٦] . وحدثنا الجاحظ عن مهارة شبيب في هذه المقامات فقال : « إنهم لم يروا قط خطيباً بلديًّا إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا متكلفاً أيام رياضته لها ، الى أن يتوقح وتستجيب له المعاني ، ويتمكن من الألفاظ . إلا شبيب بن شيبة فإنه كان قد ابتدأ بحلاوة ورشاقة ، وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد فيها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره [٧] . »

(١) الكامل ١/٢٦٣ .
(٢) البيان ١/٣٣٩ .
(٣) الكامل ١/٢٦٣ .
(٤) البيان ١/٢٤٠ الأجدل : الصقر
(٥) زهر الاداب ٤/٣٢
(٦) البيان ١/١١٢
(٧) المصدر السابق .

وشبيب أيضاً كان من مخضرمي الدولتين ، وكان مقرباً من المهدي ، يحادثه ويعظه ويصحبه في بعض أسفاره [١] ، ولمـــا توفيت الياقوتة بنت المهدي واشتد جزعه عليها دخل المعزون واجتهدوا في القول فلم يبلغ أحد منهم مبلغ شبيب في ذلك [٢]. وقد حدثنا أن أحد الأمراء أو الخلفاء – ولعله المهدي – أراد أن يمتحن بداهة شبيب ، وقد ذكر له أنه يستعمل الكلام ويستعد له ، فأمر رسولا فأخذ بيده فأصعده المنبر ، فابتده خطبة في الثناء على الخليفة برهن فيها على مقدرته على ابتداء الكلام [٣]. ولما توفي شبيب عزى صالح المري أهله وأبن شبيباً بقوله : « رحمة الله على أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخي المساكين [٤] » .

ثم توالت الخطباء من آل الأهتم بعد خالد وشبيب ، وقد ذكر الجاحظ طائفة منهم في البيان والتبيين [٥] .

آل العاص

من الأسر القرشية التي كانت لها أصالة في الفن الخطابي آل العاص ، واشتهر بالخطابة منها في العصر الأموي سعيد بن العاص وكان سعيد هذا وابنه عمرو ممن فاخر بهم بنو أمية الهاشميين [٦] . وقد ولي سعيد هذا المدينة لمعاوية أكثر من مرة وكان أحد الأجواد الممدوحين . وابنه عمرو بن سعيد الأشدق ، أشهر خطباء هذه الأسرة ، وقد قيل إنه لقب بالأشدق لتشادقه في كلامه أو لبلاغته ، أو لأنه كان أفقم مائل الذقن ، ولذلك قيل له « لطيم الشيطان [٧] » ، وفيه يقول أحد الشعراء :

تشادق حتى مال بالقول شدقه ⁂ وكل خطيب ،لا أبالك ، أشدق [٨]

(١) البيان ٢/١٠٠ ، ٢٥٦ .
(٢) الطبري ٦/٤٠٥ .
(٣) زهر الاداب ٤/٣٢ والعقد ٤/١٣٦ .
(٤) البيان ١/١١٣ .
(٥) انظر البيان ١/٣٥٥ .
(٦) شرح ابن أبي الحديد ٣/٤٧٧ .
(٧) البيان ١/١٢١ .
(٨) البيان ١/٣١٥ .

وجاء بعده ابنه سعيد بن عمرو وكان خطيباً ناسباً ، دخل على عبد الملك مع قريش وأشرافهم ، فتكلموا من قيام ، وتكلم وهو جالس ، فتبسم عبد الملك وقال: « لقد رجوت عثرته ، ولقد أحسن حتى خفت عثرته (١) .

ومن ولد سعيد بن العاص عمرو بن سعيد المعروف بعمرو بن خولة ، نسبة إلى أمه ، وكان من الخطباء الذين فاخر بهم بنو أمية الهاشميين ، وقد روي عن ابن عائشة أنه مامن خطيب شاهد عمراً هذا إلا ولجلج هيبة له ومعرفة بانتقاده (٢) ، وذكر الجاحظ أنه كان ناسكاً يجتمع إليه القراء والعلماء (٣) .

الرقاشيون

في ميدان الخطابة الدينية ، والقصص خاصة ، اشتهرت أسرة فارسية الأصل تنتمي بالولاء إلى قبيلة رقاش البكرية ، وقد ذكر أبو عبيدة شيئاً من تاريخ هذه الأسرة فقال إنهم كانوا خطباء الأكاسرة « فلما سبوا وخالطوا العرب ، نزعهم ذلك العرق » فقاموا في أهل هذه اللغة كمقامهم في أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب ، وما زالوا كذلك حتى أصهر إليهم الغرباء ففسد ذلك العرق ودخله الخوَر (٤) .

وأول من ذاع صيته في العصر الأموي منهم يزيد بن أبان الرقاشي ، كان من أصحاب أنس بن مالك والحسن البصري ، وكان من الخطباء المعدودين والقصاص المجيدين ، وقد روى ابن قتيبة والجاحظ جانباً من كلامه في الزهد والموعظة (٥). وتكلم مرة في مجلس الحسن ، وأعرابيان حاضران ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين . فقال : « أما الأول فقاص مجيد ، وأما الآخر — أي الحسن —

---

(١) البيان ٣١٦/١ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤٧٧/٣ .
(٣) البيان ١٧٣/٣ .
(٤) البيان ٣٠٨/١ .
(٥) عيون الأخبار ٢٩٥/٣ وما بعدها والبيان في مواضع متفرقة .

فمربي محكك (١) » . وهذا الخبر ينبئنا بظهور الطابع الفارسي في خطب هذه الأسرة ، وقد يكون لأصلهم الفارسي أثر في توخيهم السجع في خطبهم وقصصهم .

ونبغ بعد يزيد بن إبان ابن أخيه الفضل بن عيسى بن إبان ، وهو أحد الخطباء الذين تكلموا في مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقد عرف كذلك بالسجع في قصصه ، وكان عمرو بن عبيد ممن يحضر مجلسه ، وكان رئيس إحدى طوائف المعتزلة (٢) .

وكان ابنه عبد الصمد بن الفضل ، أغزر من أبيه وأبين وأخطب (٣) ، وكان كأبيه ميالا إلى السجع في كلامه ، وله كلام يطلل به سبب إيثاره الأسلوب المسجع على المرسل (٤) ، وكان عبد الصمد هذا من مخضرمي الدولتين (٥) .



(١) البيان ١/٢٠٤ .
(٢) البيان ١/٣٠٦ .
(٣) البيان ١/٣٠٨ .
(٤) البيان ١/٢٨٧ .
(٥) يرجح أن تكون وفاته حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة إذ أن ابنه الفضل بن عبد الصمد شاعر البرامكة ، توفي في حدود المائتين ، وفقاً لما ذكره الكتبي في فوات الوفيات (٢/١٢٥) .

زياد بن أبيه

١

فاتحة أمره

ولد زياد في مدينة الطائف ، موطن قبيلة ثقيف التي أنجبت ألمع ولاة بني أمية وقوادهم . وليس بين أيدينا من الأخبار عن الحقبة الأولى من حياة زياد ما فيه غناء ، فإن الغموض يحيط بأخبار مولده ونشأته وما أصابه من ألوان المعرفة والعلم في موطنه الأول . ومنذ عهد عمر يبدأ الضباب الذي يغشي أخبار نشأته في التقشع فإذا بنا نجد زياداً حاسباً ماهراً يكل إليه الولاة وقادة حملات الفتوح أمر الكتابة وتوزيع الغنائم على الجند . ولكنا لا نعلم من الذي علمه الكتابة والحساب ومن هم أساتذته الذين أخذ عنهم معارفه . ومهما يكن من أمر فإننا سنحاول أن نتلمس طريقنا وسط هذا الضباب ، معتمدين على بعض الأخبار التي انتهت إلينا من جهة وعلى الاستقراء والاستنتاج من جهة أخرى ، ريثما نبلغ المرحلة التي تتوافر فيها أخبار زياد فتتضح بها معالم الطريق .

وأول اضطراب وقع فيه الذين أرخوا لزياد هو في تحديدهم سنة مولده . فأبو عبيدة وأكثر المؤرخين يجعلون ولادته في عام الهجرة [١] ، وقد رأى بعض المستشرقين أن في هذا التحديد ما يبعث على الشك وأن سنة الهجرة تلعب في حياة بعض مشاهير المسلمين نفس الدور الذي لعبه عام الفيل في سيرة الرسول عليه السلام[٢]. وبعضهم يؤخر سنة ولادته إلى ما بعد الهجرة قليلا فيجعلها في السنة الثانية للهجرة [٣] ، عام غزوة بدر . ويدفعها بعضهم دفعة أخرى فيجعلها عام فتح مكة

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٥/٤٠٦ .

(٢) Lammens : Etudes sur le Siècle des Omayyades . P. 41

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٢/٢١٥ .

(٨ هـ) [١] . ويرى لامنس في تأخير سنة مولده إلى هذا العام محاولة لإخراج زياد من زمرة الصحابة [٢] ، ولا مفر لنا هنا من اللجوء إلى الاستنتاج لتحديد سنة ولادته ، فنحن إذا أخذنا بأرجح الروايات في تحديد سنة وفاته ، والتي تذكر أنه توفي عام ٥٣ هـ ، وإذا لاحظنا ما جاء في الطبري في وصف أحدهم لزياد من أنـه كان أبيض اللحية [٣] ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في بعض الأخبـار من تكليف عمر زياداً بمهمة في اليمن لايمكن أن يضطلـع بها غلام صغير [٤] ، آثرنا الرجوع بتاريخ مولده قليلا إلى الوراء ، إلى ما قبل الهجرة بسنوات قلائل . يؤيد هذا الافتراض ما جاء في بعض الروايات من أنه ولد قبل الهجرة [٥] ، وما ذكر في رواية أخرى من أنه هلك وهو ابن خمس وخمسين [٦] .

ونقع في اضطراب آخر حين نحاول البحث عن الأسرة التي ينتمي إليها زياد ، فهو تارة يدعى زياد بن سمية ، نسبة إلى أمـــه ، وتارة أخرى زياد بن عبيد . وتارة ثالثة زياد بن أبي سفيان ، ودعاه بعضهم زياد ابن أبيه إقراراً منهم بعجـزهم عن معرفة الأب الذي ينتمي إليه .

وكان عمر بن عبد العزيز يفر من هذا كله فلا ينسب زياداً وإنما يقول صاحب البصرة [٧] . والذي لاشك فيه أن هـذا الاضطراب في نسبة زياد لم يحدث إلا بعد أن استلحقه معاوية بنسبه ، أما قبل ذلك فلم يكن يقال له إلا زياد بن عبيد [٨]. ومن المحقق أيضاً أن الساخطين على زياد ، ومنهم بعض المؤرخين المنتمين إلى المدرسة

---

(١) ابن سعد ٧ ق ٧٠/١ .
(٢) لامنس ص ١٥٠ .
(٣) الطبري ٢١٦/٤ .
(٤) شرح ابن أبي الحديد ٦٧/٤ .
(٥) أسد الغابة ٢١٥/٢ .
(٦) المسعودي ، مروج الذهب ٦٨/٢ .
(٧) ابن عساكر ٤١١/٥ .
(٨) شرح ابن أبي الحديد ٦٨/٤ .

المراقبة ، كان لهم يد في الغموض والاضطراب اللذين اكتنفا أخبار أسرة زياد . ونحن نسوق ما جاء من الأخبار في أصل أبيه وأمه ثم نحاول استخلاص ما يبدو لنا أدنى إلى الحقيقة التاريخية .

فسمية ، أم زياد ، كانت ، فيما يذكرون ، أمة للحارث بن كلدة طبيب العرب . وقد ذكر بعضهم أنها كانت لدهقان من الفرس عالجه الحارث من مرض ألم به فوهب له سمية [١] . وذكر ابن عبد ربه أنها كانت لأبي الخير بن عمرو الكندي فوهبها للحارث بن كلدة ، فولدت له نافعاً ثم أبا بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغي ، فانتفى من أبي بكرة ومن نافع وزوجها عبيداً — وكان عبداً لابنته — فولدت على فراشه زياداً [٢] . وقيل إن الحارث تزوج صفية بنت عبيد بن أسيد الثقفي ومهرها سمية ، فزوجتها صفية عبداً لها رومياً يقال له عبيد فولدت منه زياداً [٣] ، وذكر ابن قتيبة أن سمية من أهل زندورد ، وكان كسرى وهبها لأبي الخير ، أحد ملوك اليمن ، فلما رجع إلى اليمن مرض بالطائف ، فداواه الحارث فوهبها له [٤] . ومع قول أكثر المؤرخين بأن أم زياد هي سمية جارية الحارث لم نعدم من يخالف هذا القول فيدعي أن أمه عربية تدعى أسماء بنت الأعور [٥] ومن خلال هذا الفيض من الأخبار المتناقضة نستطيع أن نستخلص أن أم زياد سمية كانت من أصل فارسي ، وأن زياداً ولد على فراش عبيد ، وأن نافعاً وأبا بكرة أخواه لأمه .

أما عبيد فقد جعله بعضهم عربياً من ثقيف [٦] ، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان عبداً رومياً [٧] ، وجاء في بعض المصادر أنه بقي إلى أيام زياد فابتاعه

---

(١) ابن عساكر ٤/٤٠٩ .
(٢) العقد الفريد ٥/٤ .
(٣) أنساب الأشراف ١/٤٨٩ .
(٤) المعارف لابن قتيبة ص ١٢٥ .
(٥) المعارف ص ١٥١ نقلا عن أبي اليقظان .
(٦) ابن أبي الحديد ٤/٦٧ .
(٧) ابن عساكر ٥/٤٠٩ .

وأعتقه [١] . فإذا سلمنا أن عبيداً كان عبداً رومياً ، وأن نسبة زياد إليه صحيحة ، نكون بذلك قد جردنا زياداً من نسبته العربية ، وليس هذا بالأمر الذي يسهل الجزم به . وقد أعطي زياد صفات الموالي تأكيداً لهذه الدعوى فوصفوه بحمرة اللون [٢] . وزعم بعضهم أن زياداً كان أول من ألف كتاباً في مثالب العرب وأنه دفعه إلى ولده وقال لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم [٣] . فهل يكون إخراج زياد من سلالة العرب الفاتحين من صنع خصوم زياد وابنه عبيد الله ، بدافع الحقد على قاتل حجر بن عدي وسافك دم الحسين بن علي . إن بعضهم لايستبعد هذا الأمر ، ويرى أن من غير المعقول أن يولي معاوية العراقين أحد الموالي في عصر أثارت فيه الفتوحات الإسلامية شعور الاعتزاز بالجنس والعصبية القومية في نفوس العرب الفاتحين ، ويلاحظ أيضاً أن معاصري زياد كانوا يعاملونه دائماً على أنه عربي أصيل ، وهم أجدر بالثقة من مؤرخي العصر العباسي [٤] . ونحن نتساءل : إن صح أن زياداً عربي النسب ، وأن عبيداً أباه كان ثقفياً خالص النسبة ، ففيم كان حرص زياد إذن على الانتساب إلى بني أمية من هذا السبيل غير المشرف ، سبيل الاستلحاق . وهل كان يؤثر أن يكون ابن أبي سفيان لغية على أن يكون ابنا لرشدة من عربي أصيل ، مهما يكن هذا العربي حقير الشأن . إن صح هذا فما أبهظ الثمن الذي أداه زياد لابتياع نسبه القرشي هذا . ثم أليس من المحتمل أن تكون غاية معاوية من استلحاقه بنسبه تمكينه من تولي إمارة البصرة ، تجنباً لسخط العرب المتعصبين لقوميتهم والذين كانوا في ذلك العهد قد بدأوا ينظرون إلى الموالي بعين الاحتقار والتعالي ويأبون أن يتولى أمورهم وال لا يمت إلى العنصر العربي المتفوق . فإذا طرحنا الروايات القائلة بأن زياداً هو ابن عبيد وأخذنا بالرواية التي تجعله ابنا غير شرعي لأبي سفيان فإن زياداً يغدو حينئذ

---

(١) الطبري ٣/٢٥٩ وابن أبي الحديد .

(٢) الطبري ٤/٢١٦ .

(٣) فهرست ابن النديم ص ٨٩ .

(٤) لامنس ص ٤١ .

عربياً قرشياً . على أن جميع الدلائل تشير إلى أن استلحق معاوية زياداً لم يكن إلا إجراء سياسياً محضاً قصد به اجتذاب هذا السياسي المحنك إلى صف الحزب الأموي ، وتمكينه من ولاية العراق . وسنعود إلى هذا الأمر حين نتحدث عن استلحاق معاوية زياداً .

وكذلك نجد الغموض والاضطراب يكتنفان أخبار أخوي زياد لأمه : نافع وأبي بكرة ، أكانا ولدي الحارث بن كلدة من جاريته سمية ، على ما تذكره أكثر المصادر (١) ، أم أن الحارث بن كلدة كان عقيماً لا يولد له فهما منسوبان إليه وليسا ولديه (٢) ، وهل كان اسم أبي بكرة نفيعاً أو مسروحاً (٣) . من الثابت أن أبا بكرة كان عبداً قبل مقدم الرسول لحصار الطائف ، سواء أكان عبداً لأبيه الحارث ، أم كان ابناً لعبد حبشي اسمه مسروح كان زوجاً لسمية قبل عبيد . ولما حاصر الرسول الطائف ووعد من ينضم إليه من العبيد بالعتق كان أبو بكرة في عداد هؤلاء العبيد فأعتقه الرسول ، وحرص هو منذ ذلك الحين على أن يحمل نفسه مولى رسول الله عليه السلام (٤) ، وبقي نافع إلى جانب الحارث فكافأه هذا بأن أقر به ابنا له . ويذكر ابن سعد أن زياداً لما تولى البصرة أقطع أبناء أبي بكرة وولاهم الولايات فصاروا إلى دنيا عظيمة وادعوا أنهم من العرب وأنهم من ولد نفيع بن الحارث الثقفي (٥) . وهكذا أصبح فيما بعد حال هؤلاء الإخوة الثلاثة مما يدعو إلى العجب ، لافتراق نسبهم مع انتمائهم إلى أم واحدة ، مما حمل أحد الشعراء على أن يقول فيهم هذه الأبيات :

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي من أعجب العجب

---

(١) العقد الفريد ٤/٥ وأنساب الأشراف ٤٨٩/١ . وابن عساكر ٤٠٩/٥ .

(٢) المعارف ص ١٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٧ ق ٨/١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

إن رجالا ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفي النسب
ذا قرشي فيما يقول وذا مولى وذاك ابن عمه عربي [١]

★ ★ ★

على الرغم من أننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا غناء عن نشأة زياد في الطائف ، بوسعنا أن نملأ بعض هذا الفراغ من طريق اللجوء إلى الاستنتاج والفرض . تذكر بعض الروايات أن زياداً أدرك النبي ﷺ ولم يره وأنه أسلم في عهد أبي بكر [٢] . وفي عهد عمر نجده يبرز فجأة إذ يكلفه الخليفة بمهمة في اليمن ويتيح له توفيقه في هذه المهمة إظهار كفاءته الإدارية وموهبته الخطابية . ونجده كذلك يرافق الجيوش الغازية في الشرق ويتولى فيها أعمال الكتابة والحساب . وهذا كله يحملنا على الافتراض بأن مواهب زياد الفذة قد ظهرت في وقت مبكر وأتاحت له أن يضطلع ، وهو في ميعة الصبا ، بمهام لا تناط إلا بالرجال المحنكين ، كما ينبغي لنا أن نفترض أنه تلقى ، وهو بالطائف ، لوناً من التعليم لم يكن متاحاً إلا للقلائل في ذلك الحين . وقد تكون بيئة الطائف الحضرية هي التي هيأت له التزود بهذه المعارف ، أو قد يكون انتماؤه إلى أسرة الحارث بن كلدة الطبيب المثقف هو ما أعانه على الإلمام بالحساب والكتابة . ولا يبعد أن عبيداً الرومي كان على معرفة بهذه العلوم وقد لقنها زياداً . ومهما يكن من أمر فإن زياداً قد لقي من العناية في تعليمه وتأديبه ما لم يكن يلقاه إلا الأقلون في عصره ، يضاف إلى ذلك ما كان يتحلى به من ذكاء وفطنة وعزيمة أتاحت له أن يشق الطريق بسرعة أمام طموحه المبكر . وثمة رواية تذكر أن عمر سأل زياداً عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده عالماً بكل ذلك[٣]. على أن أخبار زياد فيما بعد لا تنبىء بأنه كان واسع الاطلاع على الثقافة الدينية . وابن سعد

---

(١) مروج الذهب ٢/٥٥ .
(٢) ابن عساكر ٥/٤٠٦ .
(٣) المصدر السابق ٥/٤٠٦ .

يشير إلى معرفته بالكتابة ولكنه ينص على أنه لم يكن من القراء ولا الفقهاء [١]. وكان عمر نفسه أستاذاً غير مباشر لزياد وقد ظهر تأثره به جلياً سواء في منهجه السياسي أو في أحكامه [٢].

★ ★ ★

---

(١) ابن سعد ٧/٧٠ وابن عساكر ٥/٤٠٦.

(٢) انظر مثلا في ابن عساكر ٥/٤٠٦ خبر قضاء زياد في قضية عرضت له بقضاء أخذه عن عمر.

٢

زياد في ظل ولاة البصرة

بدأ اتصال زياد بالحياة العامة منذ غادر مسقط رأسه الطائف ، في عهد عمر ، ليستقر في البصرة مع طلائع الفاتحين العرب الذين استوطنوها ، وذلك أن قائد عمر في فتوح الأبلة ، عتبة بن غزوان ، كان متزوجاً من أزدة بنت الحارث بن كلدة. فلما قدم البصرة عاملا عليها ، عام ١٤ للهجرة على الأرجح ، قدم معه انسباؤه نافع وأبو بكرة وزياد[١] . وجاء في بعض الأخبار أن عتبة لما فتح الأبلة أصاب غنائم كثيرة ، ولم يكن في المسلمين أحد يكتب ويحسب غير زياد فولي قسم ذلك المغنم ، « وجعل له كل يوم درهمان ، وهو يومئذ غلام في رأسه ذؤابة[٢] » . وقد أقطع عمر بن الخطاب أبا بكرة وأخاه نافعاً أرضاً بالبصرة ، وكانت أول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث وأول مولود بها عبد الرحمن بن أبي بكرة[٣] . ومنذ ذلك الحين استقر أبناء سمية بالبصرة وتكاثر أبناؤهم وعظم شأنهم . وقد هيأت لزياد معرفته بالكتابة والحساب أن يرافق جيوش المسلمين في فتوحاتها في الشرق ، وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم . ولما ظفر العرب في واقعة جلولاء (١٦ هـ) بعث سعد بن أبي وقاص بالحساب مع زياد ، وأظهر الفتى في أداء مهمته وفي وصف ما حققه المسلمون من فتوح براعة لفتت إليه نظر عمر فكلفه بأن يقوم في الناس خطيباً يخبرهم بأمر الفتح ، فقام في الناس فذكر ما أصابوا وما قاموا به من الاتساع في الفتوح ، وظهرت في ذلك الموقف بواكير موهبته الخطابية التي انتزعت إعجاب عمر فدعاه بالخطيب المصقع ، وعلق زياد على كلام عمر بقوله : « إن جندنا

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥١ .

(٢) الطبري ٣/٩٥ وفتوح البلدان ص ٣٥١ وفي رواية الطبري أن زياداً كان يومئذ ابن أربع عشرة سنة .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٥٦ .

أطلقوا بالفعال لساننا (١) » . ومن المرجح أنه في هذه المناسبة أقر أبو سفيان بأبوته لزياد حين رأى إعجاب الناس ببلاغته ، وما منعه من ادعائه علانية إلا خوفه من عمر (٢) . على أن ثمة روايات أخرى تسوق خبر اعتراف أبي سفيان بأبوته لزياد على نحو آخر ، فهي تذكر أن عمر أوفد زياداً إلى اليمن لإصلاح فساد ظهر فيها ، فلما عاد دخل على عمر فخطب خطبة لم يسمع بمثلها حسناً ، فقال عمرو ابن العاص : « لله در هذا الغلام لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه . » وحينئذ يقر أبو سفيان بأنه هو الذي وضعه في رحم أمه سمية (٣) . وفي رواية أخرى نجد أبا سفيان يقر بأن زياداً ابنه ثم ينشد الأبيات التالية ، مخاطباً علي بن أبي طالب :

أما والله لولا خوف شخص ... يراني يا علي من الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حرب ... ولم يخف المقالة في زياد
وقد طالت مجاملتي ثقيفاً ... وتركي فيهم ثمر الفؤاد (٤)

ونحن لاندري متى أوفد عمر زياداً إلى اليمن ولا السبب الذي دعاه لأن ينوط به هذه المهمة الشاقة وهو بعد فتى صغير السن .

وبسبب إتقان زياد الحساب والكتابة ، اتصل بجميع ولاة البصرة الذين تعاقبوا عليها منذ عهد عمر حتى زمن معاوية . اتصل أولا بمواطنه المغيرة بن شعبة الثقفي وكتب له (٥) . ولما اتهم المغيرة بارتكاب الفاحشة مع إحدى النساء وشهد عليه أبو

---

(١) الطبري ٣/١٣٦ .

(٢) العقد الفريد ٥/٥ .

(٣) ابن عساكر ٥/٤١٠ .

(٤) ابن أبي الحديد ٤/٦٧ .

(٥) في ترتيب ولاة البصرة الذين كتب لهم زياد خلاف في المصادر التي تحدثت عن ذلك . فابن عبد ربه يذكر (العقد الفريد ٤/١٦٧) أنه كتب للمغيرة ثم لعبد الله بن عامر ثم لعبد الله بن عباس ثم لأبي موسى الأشعري . وابن عساكر يذكر (٥/٤٠٦) أنه كتب لأبي موسى ثم لعبد الله بن عامر ثم للمغيرة ثم لابن عباس . وكلاهما مخطىء لأن ترتيب هؤلاء الولاة كان كالتالي : المغيرة ثم أبو موسى ثم عبد الله بن عامر ثم عبد الله بن عباس (انظر الطبري مثلا في سنوات ١٧ هـ حتى ٤٠ هـ) .

بكرة وأخوه نافع ورجل ثالث ، امتنع زياد من الشهادة على المغيرة ، وقد حفظ له المغيرة هذه اليد وجزى صنيعه بمثله حين أمره معاوية بمصادرة أموال زياد . على أن موقف زياد هذا من حادثة المغيرة قد عرض أخويه للجلد وسخط عليه أبو بكرة منذ ذلك الحين وأقسم لايكلمه أبداً [١] .

أنقذ زياد المغيرة من الرجم ولكن عمر لم يبقه في منصبه بل عزله وولى مكانه على البصرة أبا موسى الأشعري (عام ١٦ هـ [٢]) . فاتصل به زياد وكتب له وما لبث أن أصبحت له منزلة كبيرة عنده . وقد جاء في بعض الأخبار أن رجلا من عنزة كان ساخطاً على أبي موسى فجاء إلى عمر يشكوه ، وكان مما أخذه عليه أنه فوض أمره إلى زياد ، وحين يسأل عمر أبا موسى عما دعاه إلى ذلك يجيب : « وجدت له نبلا ورأيا فأسندت إليه عملي [٣] . » . وتحدثنا الأخبار أيضاً أن أبا موسى وجه زياداً إلى عمر ليرفع إليه حسابه فلما رأى ذكاءه أمره بعدم الرجوع إلى أبي موسى فقال زياد : ياأمير المؤمنين ، أعن خيانة صرفتني أم عن تقصير . فقال : لا عن واحدة منهما ، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعية [٤] . ويبدو أن مهارة زياد في الحساب وذكاءه كانا هما سبب إعفائه من عمله ، لأن عمر الحريص الحذر قد تخوف أن يضع أموال المسلمين في يد فتى ذكي أريب كزياد .

وفي عهد عثمان كتب زياد لعبد الله بن عامر بن كريز الذي ولي البصرة بعد أبي موسى (عام ٢٩ هـ على الأرجح [٥]) واستطاع بفطنته وذكائه أن يحظى عنده ، فكان والياً على الديوان وبيت المال ، وكان ابن عامر يستخلفه على البصرة إذا شخص عنها [٦] . ثم وقع ما أفسد الأمر بينهما ، فقد كان زياد أشار على ابن

(١) انظر تفصيل الخبر في فتوح البلدان ص ٣٥٢ . وأنساب الأشراف ١/٤٩٠ .
(٢) فتوح البلدان ص ٣٥٤ .
(٣) الطبري ٣/٢٥٩ وابن عساكر ٥/٤٠٦ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٦٧ .
(٥) الطبري ٣/٣١٩ .
(٦) فتوح البلدان ص ٣٦٥

عامر بحفر نهر الأبلة حتى يبلغ به البصرة ، ولكن ابن عامر تباطأ في الأمر ، ثم مضى إلى خراسان واستخلف زياداً ، فحفر زياد النهر . فلما عاد ابن عامر غضب على زياد لظنه أنه فعل ما فعل حرصاً على أن يطير صيته في الناس ، ومنذ ذلك الحين تباعد ما بين الرجلين ، وظلت الجفوة قائمة بعد ذلك أمداً طويلا بين آل زياد وآل ابن عامر (١) .

وفي عام ٣٥ للهجرة يقتل الخليفة عثمان ويتبوأ علي الخلافة ، وقد غدا زياد حينئذ رجلا ناضجاً اجتمعت فيه خلال كثيرة ترغب فيه أرباب السلطان . وتحدثنا إحدى الروايات أن زياداً وقف موقف المحايد يوم معركة الجمل ، فلم يكن مع كثرة أهل البصرة الذين انضموا إلى عائشة في قتال علي ، بل اعتزل الفريقين ولزم بيت أخيه نافع . ولما تم الأمر لعلي وبايعه القوم سأل عبد الرحمن ابن أبي بكرة عن عمه « المتربص المتقاعد » فاعتذر له عنه بمرضه الذي منعه من أن يأتيه مبايعاً (٢) . وتضيف الرواية السابقة فتجعل علياً يأتي بنفسه ليعود زياداً ، ولا يلبث أن يعرض عليه ولاية البصرة ، ولكنه يشير على علي أن يولي رجلا من أهل بيته ليطمئن إليه الناس وينقادوا إليه ، ووعده بأن يمده برأيه ومشورته . وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح فإن الذي تم فعلا هو تولي ابن عباس البصرة وتولي زياد الخراج وبيت المال . وكان زياد يقوم بمهمة المشير الناصح له ، على ماعرف به ابن عباس من الفطنة وثاقب الرأي ، وكان يخلفه على عمله إذا شخص عن البصرة . ومع ذلك لم يسلم زياد ، حين كان يقوم بعمله في البصرة خليفة لابن عباس ، من مؤاخذة الإمام الصارم علي ، لهنات بلغته عنه (٣) .

وقد تجلت عبقرية زياد السياسية في هذه الحقبة ووضحت منذ ذلك الحين الخطوط العريضة في خطته السياسية التي انتهجها بعد ، حين أصبح والياً على فارس أولا ، ثم حين أصبح والياً لمعاوية على العراق والمشرق . ويظهرنا على خطوط سياسته هذه أمران حدثا إبان ولاية ابن عباس على البصرة .

(١) المصدر السابق .
(٢) الطبري ٣/٥٤٦ وابن عساكر ٥/٤٠٨ .
(٣) ابن أبي الحديد ٤/٧٣ .

أولهما : أن فتنة كانت بين الناس بالبصرة فلم يدر ابن عباس كيف يطفئها واستشار زياداً في الأمر فقال له : « إن كنت تعلم أنك على الحق وأن من خالفك على الباطل أشرت عليك بما ينبغي ، وإن كنت لاتدرك أشرت عليك بما ينبغي لك . » فقال له إني على الحق وهم على الباطل ، فقال زياد : اضرب من عصاك بمن أطاعك ، ومن ترك أمرك فإنه أعز للاسلام أن تضرب عنقه وأصلح له ، فاضرب عنقه [١] . » ولما ولي زياد البصرة فيما بعد وسلك هذه الخطة عينها علم ابن عباس حينئذ أن زياداً محضه النصح حين أشار عليه بهذا الرأي .

والأمر الثاني الذي يظهرنا على أسلوب زياد السياسي هو موقفه إبان فتنة ابن الحضرمي . ففي عام ٣٨ ﻫ خرج ابن عباس إلى الكوفة واستخلف زياداً على البصرة فأراد معاوية انتهاز الفرصة ليفسد البصرة على عليّ ، وقد عرفت البصرة بعثمانيتها ، فوجه إليها رجلاً يعرف بابن الحضرمي ، فلما قدمها التف حوله بنو تميم وكثير من أهل البصرة . وخشي زياد عاقبة الأمر فرأى أن خير مايفعله هو الإيقاع بين قبائل البصرة لئلا تجتمع عليه ، وقد أفاد من الخصومة الطبيعية التي كانت بين قبائل البصرة ، فلجأ أولا إلى ربيعة طالباً حمايتها فلما آنس منها تلكؤاً في نصرته لجأ إلى الأزد فأجاره زعيمها صبرة بن شيمان وحماه . ثم أخذ زياد يخوف الأزد غدر بني تميم ويزعم لهم أن هذه القبيلة تتحداهم وتفاخرهم بقوتها وشرفها ، حتى أفلح في الإيقاع بين القبيلتين وفي إثارة الأزد على تميم ، وكان يقول بعد ذلك : « ما كدت مكيدة قط كنت إلى الفضيحة بها أقرب مني للفضيحة يومئذ لما غلبني من الضحك [٢] . » ثم يرسل علي أحد أشراف بني تميم ليخذل قومه عن نصرة ابن الحضرمي فلا يفلح وينتهي أمره بالقتل ، وحينئذ توشك الحرب أن تقع بين الحيين لولا أن تميماً بادرت بمهادنة الأزد ووعدتها ألا تتعرض لجارها زياد ، ثم لا يلبث

---

(١) ابن عساكر ٥/٤٠٨ .
(٢) الطبري ٤/٨٤ .

أمر تميم أن يتفرق حين يوفد علي إليهم جارية بن قدامة التميمي الذي يفلح في استمالة جل قومه ثم يحيط بالبيت الذي لجأ إليه ابن الحضرمي ومن يلوذ بـه ويضع فيـه النار ويقضي بذلك على هذه الفتنة ويعود زياد إلى دار الإمارة [١] . وقد برهنت هذه الحادثة على كفاءة زياد السياسية ومهارته في التغلب على الصعاب التي تعترض سبيله ، كما أنها كشفت عن خطته السياسية التي تقوم على التفريق بـين القوم وضرب النـاس بعضهم ببعض ، وهي سياسة ظل يلتزمهـا بنجاح طوال مدة ولايته .



---

(١) المصدر السابق .

٣

زياد السياسي المحنك

ولا يكاد ينقضي قليل وقت بعد فتنة ابن الحضرمي حتى تتاح الفرصة أمام زياد لإظهار كفاءته السياسية الفذة ، ولقد كانت هذه الفتنة اختباراً لمهارته في التصرف إبان الأحداث وامتحاناً لرباطة جأشه ومتانة أعصابه ، فلما اضطربت الأمور في فارس وكرمان واحتيج إلى رجل صلب يقر النظام في المناطق الثائرة اتجهت الأنظار كلها إلى زياد الأريب الحول القلب ، وأشار ابن عباس وجارية بن قدامة على علي بانتداب زياد لهذه المهمة ؛ ووصفه جارية « بالرجل الصليب الرأي ، العالم بالسياسة، الكافي لما ولي . (١) » . ولم يكن علي ليجهل كفاءة زياد السياسية ، وقد رأيناه قبل ذلك يعرض عليه ولاية البصرة ، فانتدبه للنهوض بهذا الأمر وولاه فارس وكرمان . وهكذا كان على زياد أن يستهل عهد أول ولاية له استهلالا شاقاً ، ولم تأته الولاية منقادة تجرر أذيالها ، بل كان عليه أن ينتزعها بالقوة انتزاعاً ، وكذلك كان شأنه حين ولي البصرة فيما بعد ، فقد أتاها وهي تموج بالفتن والاضطراب يسود أرجاءها .

توجه زياد إلى فارس (عام ٣٩ هـ) وهي مرجل يغلي ، فقد خلعت طاعة علي وامتنع أهلها من أداء الخراج وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وطردوا عمالهم. وما هو إلا وقت قصير حتى عاد الهدوء والاستقرار بفضل زياد إلى هذا الإقليم الثائر ، وانقادت الأعاجم لهذا الوالي الجديد انقياد الحمل الوديع . وهنا أيضاً لجأ زياد إلى الخطة السياسية البارعة التي تفتقت عنها عبقريته وانتهجها طوال عهود ولايته . ذكر الطبري أن زياداً لما قدم فارس « بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على

---

(١) الطبري ١٠٥/٤

عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان [١] . . . » ، فكان زياد إذن يعتمد على الحيلة أكثر من اعتماده على السيف ، ولم يكن يلجأ إلى سياسة البطش والشدة إلا حين لا يجد مناصاً منها ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إذا رأى في وسعه إدراك مأربه من طريق آخر ، وهذا ما جعله يختلف عن خلفه الحجاج الذي كان لايعرف سياسة أخرى غير سياسة البطش وسفك الدماء . ولا يبعد أن يكون زياد قد استعان أول الأمر بالقوة لإخضاع الثائرين ، فيما تذكر بعض الروايات [٢] . على أنه من المحقق أن خطة زياد السياسية كانت تقوم على الركائز التي وضحناها آنفاً ، آية ذلك ما روي عن رجل من أهل اصطخر إذ قال : « أدركت زياداً وهو أمير على فارس وهي تضرم ناراً ، فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي [٣] . »

إن نجاح زياد في إخضاع فارس وكرمان وفي إقرار النظام في هذه البقاع الثائرة كان خليقاً أن يلفت إليه نظر السياسي الداهية معاوية فيسعى في اجتذابه إلى صفه ، ولكن ما هي الوسيلة التي لجأ إليها لتحقيق هذه الغاية . هنا يخطر لمعاوية أن يستغل ما سبق أن أقر به أبوه ، بمحضر من علي بن أبي طالب ، من أبوته لزياد . ماذا لو أرسل إلى زياد يستميله إليه ويدعوه أخاه إرضاء له ؟ إن هذا لن يكلفه شيئاً في واقع الأمر ؟ وإن انضمام سياسي ضليع مثل زياد إلى آل أبي سفيان يعتبر مغنماً عظيماً . وهكذا يوجه معاوية كتاباً إلى زياد يقول فيه : « أما بعد فإن العش الذي ربيت فيه معلوم عندنا ، فلا تدع كما أن تأوي إليه كما تأوي الطيور إلى أوكارها . ولولا شيء ، والله أعلم به ، لقلت قال العبد الصالح :

(١) الطبري ٤/١٠٥ .
(٢) الطبري ٤/١٠٥ .
(٣) المصدر السابق .

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . » ، ثم أثبت في ذيل الكتاب ، فيما يذكرون ، أبياتاً منها قوله :

لله در زياد أيما رجل — لو كان يعلم ما يأتي وما يذر
تنسى أباك وقد حقت مقالته — إذ تخطب الناس والوالي لنا عمر
فافخر بوالدك الأدنى ووالدنا — إن ابن حرب له في قومه خطر[1]

وكان في تقدير معاوية أن هذا الكتاب ، وفيه ما فيه من ترغيب وترهيب ، سيؤتي أكله في حمل زياد على الانضمام إليه والتخلي عن علي . ولكن زياداً لم يكن من صفاته الغدر ولا الجبن ، فما هو أن أتاه كتاب معاوية حتى وقف يخطب ويرد رداً عنيفاً على « ابن آكلة الأكباد » مظهراً الاستهانة به والاستخفاف بوعيده ، ويتصل الخبر بعلي فيشفق أن يفلح معاوية في التغرير بزياد واجتذابه اليه فيكتب اليه كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد وليتك الذي وليتك وأنا لا أزال له أهلا ، وإنه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيام عمر من أماني الباطل وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثاً ولم تستحق بها نسباً ، وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ثم احذره ثم احذره والسلام[2] . » والذي يلفت النظر في هذا الكتاب إقرار علي بما ادعاه أبو سفيان من أبوته لزياد ، ولم يفت ذلك زياداً ، وهو الحريص على نباهة الذكر ورفعة الشأن ، فلما قرأ الكتاب علق عليه بقوله : « شهد بها ورب الكعبة » ، وكأنما سره أن يشهد له علي ، خصم بني أمية الألد ، بالانتساب إلى أبي سفيان ، فهي شهادة لها قيمتها . ويحدثنا ابن أبي الحديد أنها لم تزل في نفسه حتى ادعاه معاوية[3] .

★ ★ ★

---

(١) ابن عساكر ٥/٤١٠ وابن أبي الحديد ٤/٦٧ وبين الروايتين بعض الاختلاف .
(٢) ابن أبي الحديد ٤/٦٦ وابن عساكر ٥/٤١٠ . وفي روايات الكتاب بعض الاختلاف .
(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤/٦٦ .

لم يفلح معاوية إذن في ضم زياد إليه وإثارته على علي ، وكان رد زياد عنيفاً على معاوية ، وكان مطمئناً إلى عجز معاوية عن الوصول إليه ودونه « ابن عم رسول الله في مائة الف من المهاجرين والأنصار . » ولكن مقتل علي (٤٠ هـ) أوقع زياداً في مأزق لم يكن يتوقعه ، وزاد في سوء الموقف تسليم الحسن الأمر لمعاوية ودخوله في طاعته ، ولم يشأ زياد أن يظهر الخضوع لمعاوية وقد تحداه من قبل ، وخشي غدر معاوية به فآثر الاعتصام بقلعته التي حصنها في فارس ، وذكر ابن أبي الحديد والطبري أن معاوية كتب إلى زياد ، بعد مقتل علي ، يتهدده وقد خاف امتناعه عليه ، فرد عليه زياد بكتاب عنيف يشتمه فيه ويتحداه ثم خطب خطبة نال فيها من معاوية وتهدده وأظهر عدم الاكتراث بوعيده ودونه « ابن بنت رسول الله – أي الحسن – في مائة الف من المهاجرين والأنصار [(١)] . » والأرجح عندنا أن معاوية لم يكاتب زياداً إلا بعد أن صالحه الحسن وامتنع زياد من الدخول في طاعته . وزياد أحذر من أن يتورط ، وقد قتل علي ، في شتم معاوية وتهديده وتعريض نفسه لسخطه وانتقامه ، وإن في خطبته التي زعم أنه قالها حين كتب معاوية إليه يتهدده بعد مقتل علي ، وكذلك في كتابه الذي زعموا أنه أرسله اليه ، من الصنعة والتكلف والمباينة لأسلوب زياد ما يجعلنا نستبعد نسبتها إليه ، ونرجح أنها من افتعال بعض رجال الشيعة في العصر العباسي [(٢)] .

والذي يبدو أدنى إلى الواقع التاريخي أن معاوية لما رأى امتناع زياد عليه بعد أن صالحه الحسن ودخل في طاعته سائر ولاة علي كتب إليه يدعوه إلى الدخول في طاعته . وكان معاوية يتخوف أن يؤلب عليه زياد أنصار الشيعة ويبايع لرجل من أهل البيت فيفسد عليه أمره ، ولا سيما أن بيده أموال فارس . والمحاولة الأولى التي قام بها معاوية لمواجهة الخطر الذي كان يتهدده من جهة زياد هي مطالبته ، بوصفه الخليفة الشرعي ، بما كان في يده من أموال فارس . وقد رأى معاوية أن

(١) الطبري ٤/١٢٩ وابن أبي الحديد ٤/٦٨ .

(٢) انظر خطبة زياد هذه وكتابه الى معاوية في ابن أبي الحديد ٤/٦٧ .

وجود هذه الأموال في حوزة زياد يمكنه من تأليب القوم عليه وحشد الجنود لقتاله وكان جواب زياد أن ما عنده من مال قد أنفقه في وجوهه وقد استودع قوماً جانباً منه احتياطاً للنوازل وأدى سائره إلى علي . فلما أتى الكتاب معاوية طمع في استدراج زياد للقدوم عليه فكتب إليه يدعوه أن يأتيه ليتحقق من صحة ماذكره بشأن الأموال فإن كان الأمر على ماذكره كان في وسعه أن يعود إلى مأمنه . ولكن زياداً لم يؤخذ بهذه الخديعة وظل معتصماً بقلعته في فارس [1] .

أخفقت محاولة معاوية هذه في استدراج زياد للخروج من معقله فلجأ حينئذ إلى وسيلة أخرى خيل اليه أنها ستكون أنجع في كسر شوكة زياد وحمله على الدخول في طاعته . كان زياد حين توجه إلى فارس قد ترك وراءه في البصرة جانباً من أسرته الكبيرة ، فوجه معاوية قائده الصارم بسر بن أبي أرطاة إلى البصرة وأمره بزج بعض أبناء زياد في السجن وأن يتوعد زياداً بقتلهم إن لم يأت أمير المؤمنين . ويحدثنا الطبري أن بسراً حبس عبد الرحمن وعبيد الله وعبادا بني زياد وكتب إلى زياد يتوعده بقتلهم إن لم يقدم على أمير المؤمنين ، ولكن زياداً رفض مرة أخرى أن يقدم على الخليفة ويكتب إلى بسر أنه ليس بارحاً مكانه حتى يحكم الله بينه وبين معاوية ، فإن قتل من في يديه من أولاده فالمصير إلى الله تعالى . ويهم بسر بإنفاذ وعيده لولا أن أبا بكرة ، على ما كان بينه وبين أخيه زياد بسبب حادثة المغيرة ، يسارع إلى معاوية ويستصدر منه أمراً بإطلاق سراح بني زياد [2] .

ولما أعيت معاوية السبل استدعى المغيرة بن شعبة وصارحه بما يساوره من هم وقلق لتمرد زياد عليه وإبائه الدخول في طاعته ، واستشاره فيما يفعله . وتذكر الأخبار أن المغيرة تطوع بالمضي إلى زياد في معقله لإقناعه بالدخول في طاعة الخليفة . وقد وفق المغيرة في مهمته واستطاع إقناع زياد بالتخلي عن موقف المتمرد العاصي فصح عزمه على مهادنة معاوية والقدوم عليه .

---

(١) الطبري ١٢٨/٤ .

(٢) المصدر السابق .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : كيف تسنى للمغيرة إقناع زياد بهذه السهولة مع إخفاق معاوية في محاولاته المتعددة لإدراك هذه الغاية . من المحقق أن المغيرة قد عرض على زياد ما أغراه بالتخلي عن موقف المتمرد والدخول في طاعة معاوية . ولا يبعد أن يكون معاوية قد وعده باستلحاقه بنسبه أو لوح له بالإمارة . يؤيد هذا الاحتمال ما جاء في شرح ابن أبي الحديد من أن المغيرة أشار على معاوية بأن يكتب إلى زياد يلاطفه ويعده فإنه « رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر » . وقد عمل معاوية بمشورة المغيرة فأرسل اليه كتاباً رقيق العبارة أظهر فيه أنه يريد أن يصل رحمه وأن يأخذ بيد أخيه زياد (١) . على أنه لم يقدم عليه إلا بعد أن استوثق لنفسه بعهد من معاوية يؤمنه فيه ويعاهده بعدم الغدر به (٢) . وقد خطب زياد قبل مسيره إلى الشام خطبة موجزة بليغة بين فيها الدافع إلى دخوله في طاعة معاوية وهو إيثاره العافية لهم وتجنيبهم هذه المذابح التي مازالت قائمة بين المسلمين منذ مقتل عثمان (٣) . ثم قدم على معاوية (عام ٤٢ هـ) ، فصالحه ولم يشتد في محاسبته على ما بيده من الأموال واكتفى بأخذ ما حمله إليه زياد دون مناقشة . وليس عجيباً أن يتساهل معاوية بشأن هذه الأموال إذ أن مطالبته زياداً بها لم تكن إلا ذريعة لحمله على مفاوضته ومساومته ، وما كان معاوية ليكترث بائتمار المغيرة وزياد على اقتسام بيت مال فارس دونه ، إن صح ما ذكره ولهوزن (٤) ، فقد كان كل ما يهمه ويقض مضجعه آنئذ هو إدخال زياد في طاعته ليأمن جانبه ، وقد تحقق له ما أراد ، وتم بذلك الصلح بين رجلين لم ينجب عصر بني أمية نظيراً لهما في الدهاء وحسن التدبير والخبرة بسياسة الناس .

استقر زياد ، منصرفه من لقاء معاوية ، في مدينة الكوفة التي كان على ولايتها

---

(١) ابن أبي الحديد ٦٨/٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) انظر هذه الخطبة في شرح ابن أبي الحديد ٦٨/٤ .
(٤) ولهوزن : الدولة العربية وسقوطها ، ص ١٠٠ .

يومئذ صديقه المغيرة بن شعبة (١) . وكان هذا يكرم وفادته ويعظمه ويأمر زوجته بألا تستتر عن أبي المغيرة . وكان زياد يحسن استغلال كنيته هذه في التقرب من زوج المغيرة الحسناء الحدثة ، وقد تزوجها فيما بعد إثر وفاة بعلها . وكان معاوية لم يزل يتخوف أمر زياد فأمر المغيرة بأن يلزمه وجماعة من رؤوس الشيعة في الكوفة بحضور الصلاة معه (٢) .

ومن المؤكد أن زياداً كان موضع مراقبة دقيقة إبان إقامته في الكوفة ، ليعرف مدى ولائه للخليفة ، ولا ريب أن زياداً الأريب الفطن كان أحذر من أن يتورط في توثيق صلاته بالشيعة ، أصدقاء الأمس ، وذوي النفوذ القوي في الكوفة ، حتى إذا تحقق معاوية من ولائه له صحت نيته على توليته البصرة ، ولكنه رأى أن يمهد لذلك باستلحاق زياد بنسبه ، إما وفاء منه بوعد كان منه لزياد ، يوم كان معتصماً بفارس ، وضماناً لإخلاصه وولائه له ، وإما ليمحو وضاعة نسبه ويجعله أهلا للامارة .

وقد اتقن معاوية إخراج مسرحية الاستلحاق لتبدو في نظر القوم إقراراً لحقيقة تاريخية ووضعاً للأمور في نصابها . وتم هذا الأمر عام ٤٤ للهجرة حسب رواية الطبري (٣) . وفي المصادر التاريخية روايات متعددة لهذه الحادثة ، وخلاصتها نقلا عن رواية المدائني ، أن معاوية جمع الناس وصعد المنبر وأجلس زياداً بين يديه ثم دعا الشهود ليشهدوا بما عندهم . فقام جماعة من الناس فشهدوا أنهم سمعوا أبا سفيان قبل موته يقر بأبوته لزياد . ثم قام أبو مريم السلولي ، وهو الشاهد الرئيسي في هذه الحادثة وقد زعموا أنه كان خماراً في الجاهلية ، فأخذ يروي قصة قدوم

---

(١) الطبري ١٣٧/٤ . وليس صحيحاً ما جاء في ابن أبي الحديد : (٦٨/٤) من أن معاوية أقر زيادا على ولاية فارس فان أول ولاية لزياد في زمن معاوية كانت على البصرة عام ٤٥ .

(٢) الطبري ١٣٧/٤ .

(٣) الطبري ١٦٣/٤ وكذا في شرح النهج ٧٠/٤ وجاء في مروج الذهب (٥٤/٢) أن معاوية استلحق زياداً عام ٤٠ هـ وهذا لايستقيم لأن الاستلحاق تم بعد دخول زياد في طاعة معاوية عام ٤٢ هـ .

أبي سفيان عليه في الطائف ، أيام الجاهلية ، وتكليفه إياه بأن يلتمس له بغياً من بغايا الطائف فجاءه بسمية جارية الحارث بن كلدة ، فرضيها على ذفرها وقذرها ، وكان زياد ثمرة هذه العلاقة العابرة . ولكي تتم الرواية فصولا زعموا أن سمية كانت من ذوات الرايات في الجاهلية ، وأنها كانت تنزل بالموضع الذي ينزل فيه البغايا بالطائف ، وكانت تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة (١) ، فلا شيء كان يمنع أبا سفيان إذن من إتيانها .

ولعب زياد ببراعة دور من لا علم له بالأمر ولا يد له فيه ، فحين فرغ الشهود من أداء شهادتهم قام فقال : « هذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لي بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما سمعتم . فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا . وأما عبيد فإنما هو والد مبرور أو ربيب مشكور (٢) . »

ولم يمر إعلان استلحاق زياد دون تعليق بعض الورعين الذين أحنقهم أن يقضي معاوية بخلاف ما جاء في الحديث النبوي من أن الولد للفراش وللعاهر الحجر (٣) .

وقصة الاستلحاق لا تعدو ، في نظرنا ، أن تكون لعبة سياسية بارعة قام بها معاوية إرضاء لزياد واصطناعاً له . أما الحقيقة التاريخية فما أسهل العبث بها في عصر كانت أقوال الناس فيه ورواياتهم الشفهية تقوم مقام الوثائق التاريخية الثابتة . وهب أن أبا سفيان قد اتصل بسمية ، كما يزعمون ، فمن أين لهم أن يتحققوا من أن زياداً كان ثمرة هذا الاتصال في حين أنهم يصورون سمية بغياً يتعاورها عشرات الرجال . وثمة أخبار تصور لنا زياداً راغباً عن هـذا الأمر ، كارهاً أن يغرس عوداً في غير منبته ، وأن المغيرة هو الذي أوحى إليه بالفكرة وحثه على وصل حبله بحبل

(١) العقد الفريد ٥/٤ ومروج الذهب ٢/٥٥ .

(٢) العقد الفريد ٥/٥ ، والربيب هنا زوج الام .

(٣) مروج الذهب ٥٥ . والحديث في النهاية لابن الاثير ٢٠٣/١ وفسر بأن الولد لصاحب الفراش ، الزوج أو السيد ، وللزاني الخيبة والحرمان .

معاوية . وتصور لنا رواية أخرى زياداً في صورة الورع التقي الذي يخشى أن يسخط الله بادعائه إلى غير أبيه عبيد ــ وقد ولد على فراشه وأشبهه ــ تحقيقاً لرغبة معاوية [١] . ولا يبعد أن يكون معاوية أو المغيرة صاحب فكرة الاستلحاق هذه والموحي بها ، وقد يكون زياد هو صاحب هذه الفكرة ، حسبما جاء في بعض الروايات [٢] . ومهما يكن من أمر فإن زياداً كان راضياً كل الرضا عن وصل حبله بحبل معاوية ، راغباً كل الرغبة في أن يدعوه الناس زياد بن أبي سفيان وأن يستبدل بنسبه الوضيع نسباً قرشياً عريقاً ، ولو كان ثمن ذلك أن يعلن على الملأ أن وجوده كان ثمرة اتصال مشين بين أمه البغي وبين أبي سفيان .

ومما ينبئنا بحرص زياد على الانتساب إلى البيت السفياني ما جاء في بعض الأخبار من أن رجلا جاء عبد الرحمن بن أبي بكر وسأله أن يكتب إلى زياد في حاجة له فكتب إليه ونسبه إلى غير أبي سفيان ، فقال الرجل : « لا أذهب بكتابك هذا فيضربني » فأتى عائشة فكتبت إليه : من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان . فلما جاء بالكتاب قال له زياد : إذا كان الغد فجئني بكتابك ، فلما أتاه في اليوم التالي جمع الناس وقال : ياغلام اقرأه ، ثم قضى حاجته [٣] .

وقد أثار استلحاق زياد موجة من السخط والاستنكار ، ولا سيما في البيت الأموي ، وبسبب ذلك قال الشاعر الأموي عبد الرحمن بن الحكم أبياتاً ينال فيها من معاوية وزياد ومنها :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل الهجان
أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان

(١) ابن عساكر ٥/٤٠٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ابن سعد ٧/٧٠ وابن عساكر ٥/٤١١ .

وأشهد أنهـــا ولدت زياداً   وصخر من سمية غير دان[١]

ولم يبال معاوية بسخط آل بيته الذين لم يرتاحوا إلى انضمام هـذا الدخيل إلى أسرتهم العريقة الشرف ، بل إنه كان يظهر غضبه على من يتعرض لزياد منهم ، وقـد آلى لا يرضى عن عبد الرحمن هذا حتى يعتذر لزياد ، وقد فعل .

وكان من أشد الساخطين على زياد بسبب هذا الأمر أخوه أبو بكرة ، وقـد أقسم لا يكلم زياداً ما عاش ، ومات وهو مصارم له . وقد روى ابن أبي الحديد ، نقلاً عن الجاحظ ، أن زياداً كتب إلى معاوية يستأذنه في الحج — وذلك إبان ولايته على البصرة — فأذن له واستعمله على الموسم وأجازه بألف ألف درهم . فبينما هو يتجهز إذ بلغ أخاه أبا بكرة ، وكان مصارماً له منذ لجلج في الشهـادة على المغيرة ، فدخل على زياد وفي حجره بني له يلاعبه ، فقال أبو بكرة يخـــاطب الغلام : « إن أباك ركب في الإسلام عظيماً ؛ زنى أمه ، وانتفى من أبيه . ولا والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط . ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك : يأتي الموسم غداً ويوافي أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وهي من أمهات المؤمنين . فإن جاء يستأذن عليها فأذنت له ، فأعظم بها فرية على رسول الله ﷺ وآله ومصيبة ، وإن هي منعته فأعظم بها على أبيك فضيحة . » فقال زياد : « جزاك الله يا أخي عن النصيحـة خيراً ، ساخطاً كنت أو راضياً . » ثم كتب إلى معـاوية يستقيله فأقاله[٢] .

وكذلك استقبل الأتقياء النبأ بكثير من السخط ، لما ذكرناه من مناقضة هذا العمل لحديث الرسول عليه السلام ، وكان الحسن البصري يجعل استلحـاق زياد إحدى الموبقات التي يوصم بهـا معاوية[٣] . وعد سعيد بن المسيب صنيع معاوية أول قضية ردت من قضاء رسول الله علانية[٤] . وكان جل الأتقياء في العصر الأموي إذا ذكروا زياداً تورعوا عن نسبته إلى أبي سفيان .

(١) الأغاني ١٣/٢٦٥ (دار الكتب) الهجان : الكريم الحسب .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤/٧٠ والعقد ٥/١١ .
(٣) الطبري ٤/٢٠٨ .
(٤) ابن عساكر ٥/٤١٢ .

ولم ينج زياد وأولاده بسبب هذا الاستلحاق من سخرية طائفة من الشعراء في طليعتهم الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري ، وكان زياد — أو ابنه عبيـد الله — يقول : ما هجيت ببيت قط أشد علي من قول الشاعر :

فكر ففي ذاك أن فكرت معتبر هل نلت مكرمـة إلا بتأمير
عاشت سمية ما عاشت وما علمت أن ابنها من قريش في الجماهير(١)

على أن أكثر الناس ما لبثوا أن نسوا هذا الأمر وطووا صفحته وجروا منـذ ذلك الحين على أن ينسبوا زياداً إلى أبي سفيان . ولما أصبحت الأمور مواتية لتقليد زياد إحدى الإمارات ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان في عام ٤٥ هـ ، ثم ما لبث أن جمع له الهند والبحرين وعمان(٢) .

★ ★ ★

لم يختر معاوية زياداً لولاية البصرة عفواً ، وإنما اختاره لهـا لأنها أصبحت آنذاك مصـدر قلق الدولة ، وقد عجزت شخصية ابن عامر الضعيفة عن فرض النظام وهيبة السلطة الحاكمة على القبائل التي استوطنتها . كانت القبائل التي نزحت إليها من المناطق الأخرى تحمل معهـا خصوماتها القبلية القديمة وعصبياتهـا ، فهي لذلك في نزاع متصل . وكانت البصرة من ناحية أخرى معسكراً للجيوش المنطلقـة نحو الشرق أو القافلة من غزواتها ، فلم تكن الحال فيها مستقرة هادئـة . وكان الفسق فاشياً فيها ، وقد غلب عليها السفهاء ، واختل الأمن حتى ما يجرؤ الناس أن يخرجوا ، إذا جن الليل ، إلا متحارسين(٣) . فكانت الحال في هذه المدينـة تستدعي وجود وال حازم قوي محنك فاختير لها زياد .

قدم زياد البصرة فكان أول ما صنعه أن جمع الناس في مسجدها وخطب فيهم خطبته البتراء المشهورة التي أعلن فيها خطته التي سيجري عليها . وقد تحقق الناس

---

(١) العقد الفريد ٥/٥ والبيتان لابن مفرغ .
(٢) الطبري ١٦٥/٤ .
(٣) شرح ابن أبي الحديد ٧٦/٤ .

فيما بعد من صدق زياد حين وجدوه يلتزم بدقة وحزم تلك السياسة التي تضمنتها خطبته البتراء . وكان زياد صريحاً في خطبته هذه لا يحاول أن يخدع سامعيه أو يتملقهم أو يظهر أمامهم بغير مظهره الحقيقي ، وحين أنبأهم أنه سيأخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمطيع بالعاصي كان جاداً فيما يقوله ، عازماً على إنفاذ هذه الخطة ولو كان فيها جنوح عن جادة العدل المطلق ومجافاة لروح الشرع ، وحين اعترض عليه أبو بلال أن يعاقب المرء بوزر يرتكبه سواه علل زياد لجوءه إلى هذه الخطة بقوله : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً . »(١)

وكان أول ما لجأ إليه زياد لإقرار النظام وإشاعة الأمن في البصرة أنه منع الناس من مغادرة دورهم بعد العشاء الآخرة ، وقد ذكر الطبري أنه كان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلي ، ثم يصلي ، فيأمر رجلا فيقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فاذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخريبة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله (٢) . وقد بثت تدابيره هذه الرعب في نفوس أهل البصرة ، فصار الناس يسرعون إلى دورهم بعد العشاء وربما تركوا نعالهم في المسجد خوفاً من أن يفوتهم الوقت (٣) . ولكي ندرك مدى نجاح زياد في إقرار النظام والأمن في البصرة حسبنا أن نرجع إلى ما قاله عمر بن شبة في وصف حكم زياد ، قال : « كان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق . » (٤)

(١) البيان ٢/٦٥ .
(٢) الطبري ٤/١٦٧ .
(٣) ابن أبي الحديد ٤/٧٦ .
(٤) الطبري ٤/١٦٧ .

فليس من العجيب إذن أن نسمع زياداً يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعلمت من أخذه (١) . » ، وقد رويت قصص طريفة عن استتباب الأمن في عهد زياد حتى باتت الإبل لاتحتاج إلى راع يتولاها ويحرسها (٢) .

والسياسة التي جرى عليها زياد في البصرة هي السياسة التي أوضحها في خطبته البتراء ، والتي يظهر فيها بجلاء تأثر زياد بشخصية عمر بن الخطاب وسياسته : سياسة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف . ومن الأساليب التي لجأ اليها في سياسته جعله أشراف القبائل وزعماءها مسؤولين عن سلوك سفهائها وملقحي الفتنة فيها ، فاضطر هؤلاء الزعماء إلى أن يأخذوا على يد من يخل بالأمن من عشائرهم ويكفوه أمرهم . واستطاع زياد بفضل هذه السياسة ، وضربه الناس بعضها ببعض ، أن يخمد فيما بعد فتنة أثارها الخوارج بالبصرة (٣) . ومن جملة التدابير التي لجأ اليها اصطناعه أصحاب رسول الله عليه السلام وأشراف أهل البصرة ، وكان يحرص على أن يضم مجلسه عدداً منهم ، وولى بعضهم أعماله ، كالحكم بن عمرو الغفاري ، وقد ولاه خراسان ، وولى قضاء البصرة عمران بن الحصين الخزاعي ثم ولى سمرة بن جندب وجعله خليفته على البصرة إذا شخص عنها (٤) ، وكل هؤلاء من صحابة رسول الله عليه السلام . ولا ندري أكان اختياره لأصحاب رسول الله بدافع التقوى فحسب ، حسبما رأى بعض الباحثين (٥) ، أم أن تفكيره السياسي هو الذي أملى عليه هذه الخطة .

وكان من جملة الأعمال التي قام بها زياد حين ولي البصرة توسيعه مسجدها وقد زاد فيه زيادة كثيرة (٦) ، ولكي يفرض على الناس هيبة السلطان وجه بعض

---

(١) المصدر السابق .
(٢) عيون الأخبار ٨/١ .
(٣) الكامل للمبرد ١٥٣/٢ .
(٤) الطبري ١٦٩/٤ .
(٥) لامانس ص ١٠٧ .
(٦) فتوح البلدان ص ٣٥٥ .

عنايته إلى المظاهر فكان ، فيما يذكرون ، أول من سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ حرساً خاصاً له كان يلازم المسجد [١] .

★ ★ ★

توفي المغيرة بن شعبة عام ٥٠ هـ فسارع معاوية بضم الكوفة إلى زياد تقديراً لولائه له ولكفاءته السياسية ، فكان أول من جمع له العراقان ، وانبسط لذلك سلطانه وأظل المشرق كله ، وأصبح الرجل الثاني بعد الخليفة . ولما ولي زياد الكوفة لم تعد البصرة مقره الدائم بل أصبح يقيم في كل من المصرين ستة أشهر ، يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة ، وكان خليفته على البصرة إذا شخص عنها سمرة ابن جندب ، وخليفته على الكوفة عمرو بن حريث [٢] .

ومنذ أن وطئت قدم زياد أرض الكوفة وجه همه إلى إقرار النظام فيها ، صنيعه بالبصرة ، وخنق صوت المعارضة لبني أمية فيها . وكان حلم المغيرة قد شجع هذا الصوت على أن يرتفع فيها من حين إلى آخر ، وكانت الكوفة مقر أشد العناصر مناوءة للحكم الأموي ، وفي طليعتهم شيعة علي ، فاتجهت نية زياد إلى القضاء على هذه العناصر الخطرة ، وكانت الخطة التي سلكها لتحقيق هذه الغاية هي تلك التي رسمها لنفسه منذ مستهل حياته السياسية ، والتي اتضحت خطوطها البارزة في قوله لابن عباس حين استشاره : « اضرب من عصاك بمن أطاعك ، ومن ترك أمرك فإنه أعز للاسلام أن تضرب عنقه ، وأصلح له [٣] » .

وقد رأى زياد أن يستهل عهده في الكوفة بخطبة يوضح فيها خطته ، شأنه بالبصرة ، ولكن أهل الكوفة الذين عودهم تساهل المغيرة وحلمه التطاول على الولاة جزوه على خطبته بوابل من الحصى ، فرأى زياد ألا مفر من أخذهم بالشدة ليستقيموا ، فأخذ على القوم أبواب المسجد وعاقب من حصبه منهم بقطع يده .

---

(١) الطبري ٤/١٦٩ .
(٢) ابن سعد ٧/٧٠ .
(٣) ابن عساكر ٥/٤٠٨ .

ومنذ ذلك الحين أيقن أهل الكوفة أن زياداً إذا أوعد أمضى وعيده [١] ، وأدركوا أنه من معدن آخر غير معدن سلفه المغيرة .

والاستدلال على براعة زياد في رسم الخطط السياسية الناجحة في القضاء على العناصر الخطرة التي كانت تهدد كيان الدولة حسبنا أن نذكر التدابير التي لجأ اليها لإضعاف النفوذ القبلي في الكوفة والبصرة ، وموقفه من الشيعة والخوارج فيهما .

١ — كان زياد يتخوف تحالف قبائل الكوفة واجتماعها على مناوءة الحكم الأموي فلجأ إلى تدبير من شأنه تفتيت الوحدة القبلية من جهة ، ورمي القبائل بعضها ببعض من جهة اخرى ، إذ ألغى التقسيم القبلي السباعي الذى كان سائداً قبل في الكوفة واستبدل به تقسيماً رباعياً[٢] . وقد توخى في تدبيره الإداري هذا أن يمزق وحدة القبائل اليمنية التي عرفت بولائها لعلي وأن يجمع القبائل المتعادية في وحدة صناعية ليشغل بعضها ببعض ويصرفها عن عدوها المشترك . فجمع تميماً وهمدان في ربع ، وكندة وربيعة في ربع آخر ، ومذحج وأسداً في ربع ثالث ، ثم ضم سائر قبائل الكوفة القليلة العدد في ربع واحد هو ربع أهل المدينة ، وهو يقابل خمس أهل العالية بالبصرة[٣] . وبدلاً من أن يتولى زعماء القبائل رئاسة هذه الأرباع ، حسبما كان شائعاً من قبل ، عين من قبله نقباء لهذه الأرباع كان مطمئناً إلى ولائهم له ولبني أمية[٤] .

ولكي يأمن زياد خطر تزايد عدد الموالي في الكوفة نقل طائفة منهم إلى البصرة، وأنزل طائفة أخرى منهم بلاد الشام . وكان معاوية فيما يظهر هو الذي أوحى إليه بهذا التدبير[٥] .

---

(١) الطبري ١٧٤/٤ .

(٢) كانت الكوفة في بدء تمصيرها أعشاراً ثم جعلها سعد بن أبي وقاص أسباعاً ثم جعلها زياد أرباعاً (انظر الطبري ١٥١/٣) .

(٣) الطبري ٣٣٠/٥ ولهوزن ١٠٣ .

(٤) انظر أسماء هؤلاء النقباء وأرباعهم في الطبري ١٩٩/٤ .

(٥) فتوح البلدان ص ٢٨٨ .

ثم عمد زياد إلى تدبير آخر لإقصاء العناصر الخطرة من العراق نهائياً فوجه مع الربيع بن زياد حين ولاه خراسان عام ٥١ هـ — خمسة وعشرين ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل الكوفة ، فنزل هؤلاء خراسان واستقروا فيها بعيالهم ، فكانوا طلائع القبائل العربية التي استوطنتها .

٢ — أما شيعة الكوفة فإنه لم يستطع أن يقضي على خطرهم باصطناع زعمائهم ، صنيعه بشيعة البصرة ورئيسهم شريك بن الأعور ، فرأى ألا مفر من ركوب خطة الحزم إزاءهم وأن يبطش بطائفة من أعيانهم ورؤوسهم ليستقيم أمرهم ، وكان من براعة تدبيره أنه استعان في البطش بهم بأهل الكوفة أنفسهم ، فكفى العراق بأهل العراق ، منفذاً بذلك خطته السياسية التي تقوم على ضرب الناس بعضها ببعض .

كانت طائفة من شيعة الكوفة يتزعمها حجر بن عدي الكندي قد أطمعها حلم المغيرة بن شعبة فاجترأت على شتمه وشتم بني أمية ، رداً على شتم هؤلاء علياً ، وأظهرت الاستخفاف بواليها ، ولم تعبأ بتهديده إياها . على أن المغيرة لم يلجأ إلى الشدة ، ايثاراً للعافية ، واكتفى بقطع العطاء عن حجر وأصحابه ، وكان ، فيما يذكر الطبري ، يتوقع لحجر وأصحابه القتل على يد الوالي الذي سيخلفه ، لأن سياسته الحليمة عودتهم الاجتراء على الولاة ، وهؤلاء ليس لهم جميعاً مثل حلمه واحتماله[1]. وقد صح ما توقعه المغيرة فإن حجراً توهم أن زياداً ، صديق الأمس ، سيغضي صنيع المغيرة ، عن تطاوله على بني أمية وولاتهم ، فكان يجتمع إليه شيعة علي فيظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، بل إنهم اجترأوا على حصب عمرو بن حريث ، خليفة زياد على الكوفة . وبلغ زياداً أمرهم فكتب إلى معاوية يخبرهم فأمره أن يشد حجراً وأنصاره في الحديد ويوجههم إليه . وحين أراد زياد إنفاذ الأمر حال أنصار حجر دون ذلك ولجأوا إلى القوة ، فكان عملهم هذا مسوغاً لمعاملتهم ، حين قبض عليهم ، معاملة المتمردين الثائرين على السلطة . ولما ظفر بهم زياد أشهد رؤوس الأرباع على خيانتهم فشهدوا على ذلك ، وكذلك سائر الناس ، وبذلك استطاع زياد

---

(١) تاريخ الطبري ١٨٩/٤ .

أن يدين حجراً بشهادة أهل الكوفة أنفسهم ، فلما جيء بهم إلى معاوية اعتمد على هذه الوثيقة فأمر بقتل حجر وسبعة من رؤوس أصحابه وجماعته [١] . وقد أثار مقتل حجر غير قليل من السخط على معاوية وعامله زياد ، واعتبر التقاة مقتله إحدى موبقات معاوية [٢] ، وحاك الشيعة حوله طائفة من الأحاديث والأساطير . على أن زياداً حقق بعمله هذا ما كان يتوخاه من فرض هيبة السلطان على أهل الكوفة ، وحملهم على لزوم الطاعة والإخلاد إلى السكينة .

٣ — لم تظهر في عهد معاوية ثورات خارجية ذات بال ، ويرجع كثير من الفضل في هدوء حركات الشراة في عهده إلى سياسة زياد في معاملتهم . وكان من ركائز هذه السياسة عدم اللجوء إلى القوة إلا إذا لم يكن مفر منها ، وكذلك عدم التعرض لمن لا يجاهره بالمداوة . وقد جاء في حديث له عن أحد رؤوس الشيعة : « لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج علي [٣] . » ، وكذلك كان شأنه في معاملة الخوارج إذ كان « يقتل المعلن ، ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة [٤] . » ، وقد صور المؤرخون الساخطون على بني أمية زياداً في صورة الوالي المتعطش إلى البطش وسفك الدماء ، وهي صورة لانخالها تمثل زياداً على حقيقته . فهو بدلاً من أن يضع السيف في الخوارج مثلاً سلك سبيل المصانعة مع من أسر منهم المداوة . وقد روى المبرد أنه كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول لهم : « ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرجلة — أي أنهم لا يقدرون على المشي — فيقولون : أجل ، فيحملهم ويقول : اغشوني الآن واسمروا عندي [٥] » ، وكان ربما يدعو الخوارج إليه فيكسوهم ويصلهم [٦] . وبلغه أن أحد

(١) انظر تفصيل مقتل حجر في تاريخ الطبري ١٨٧/٤ .
(٢) الطبري ٢٠٨/٤ .
(٣) الطبري ١٧٦/٤ .
(٤) الكامل للمبرد ١٦٢/٢ .
(٥) الكامل للمبرد ١٦٣/٢ .
(٦) الكامل ١٦٢/٢ .

أهل النجدة والبأس يرى رأي الخوارج فولاه بعض أعماله ، فكان هذا الخارجي يقول بعدئذ : « ما رأيت خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة[١] » .

أما من جهر بالمداوة منهم وأعلن الثورة ، وهم قلة ، فقد وكل بهم زياد قبائلهم وجعلها مسؤولة عن سلوكهم فلم يكلف نفسه عناء قتالهم . وهكذا حين خرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي بالبصرة واعترضا الناس سارعت قبيلة الأزد إلى قتال هذين الخارجيين وقضت على حركتها ، خوفاً من زياد . وقد علق المبرد على هذه الحادثة بقوله : « فكانت القبائل إذا أحست بخارجة منهم شدتهم وأتت بهم زياداً ، فكان هذا أحد ما يذكر من صحة تدبيره[٢] . » ، وقد اتبع زياد طريقة خاصة لمنع النساء من الخروج عليه ، فقد ظفر بامرأة منهم فقتلها ثم عراها ، فلم تخرج النساء على زياد بعدئذ خوفاً من التعرية[٣] .

تلك هي الخطوط الكبرى في سياسة زياد التي انتهجها إبان ولايته على العراق . وإلى جانب ذلك قام زياد بطائفة من الاصلاحات ولكن على نطاق ضيق ، وذلك كتوسيعه مسجدي البصرة والكوفة ، وإيعازه إلى أبي الأسود الدؤلي بوضع علم النحو ، حسبما تذكر إحدى الروايات[٤] . وقد لخص ابن عبد ربه ما قام به زياد من أعمال فقال : « وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا النقباء ، ونكب المناكب ، وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ، ووضع الكراسي وعمل المقصورة ، ولبس الزيادي ، وربع الأرباع بالكوفة ، وخمس الأخماس بالبصره ، وأعطى في يوم واحد المقاتلة والذرية من أهل البصرة وأهل الكوفة ، وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ، ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً ، والذرية مائة ألف وعشرين ألفا ، وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق[٥] . » ولا نحسب الأصمعي إلا مسرفاً على

---

(١) الكامل ١٦٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٥٣/٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) وفيات الأعيان ٣٣٩/١ .

(٥) العقد الفريد ٨/٥ .

زياد حين ذكر أنه « أقام تسع سنين على العراق لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة[١] . » ، وفي بعض ما ذكره صاحب العقد نظر ، فأخماس البصرة مثلا كانت معروفة قبل عهد ولاية زياد[٢] .

أما خارج نطاق العراق فقد عرف عن زياد تدقيقه في اختيار عماله . وكان يؤثر بأعماله من كانت لهم صحبة أو من عرفوا بتقاهم وصلاحهم . وقد قسم خراسان أرباعاً وولاها الحكم بن عمرو لأنه رأى له شرفاً وصحبة من رسول الله[٣] ، ثم اختار لها بعد وفاة الحكم الربيع بن زياد الذي قام ببعض الفتوح وكان أيضاً ممن عرفوا بالصلاح والتقوى . وتتضح لنا سياسته في أعماله من الوصية التي كان يوصي بها من يوليه عملا له فإنه كان يقول له : خذ عهدك ، وسر إلى عملك واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال ، فاختر لنفسك : إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من معرتنا أمانتك . وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرمك . وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك ، وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقبك[٤] .

في ضوء هذا العرض السريع لحياة زياد السياسية نود أن نصدر حكماً حيادياً على زياد السياسي وعلى كفاءته الإدارية ، وأن نوازن بينه وبين رجلين من أقطاب الساسة في العصر الأموي هما معاوية والحجاج ، ثم نبين منزلة زياد عند معاوية خاصة وبني أمية عامة .

لم يكن زياد سفاحاً مبيراً ولا ظالماً غشوماً كما تحاول أن تصوره بعض الأخبار ، ولا سيما تلك التي مصدرها مؤرخو العراق الناقمون على بني أمية وعمالهم . وكان والياً حازماً حديدي القبضة ، ولكنه لم يكن طاغية عاتياً . وأخباره التي أوردنا

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤١٤/٥ .
(٢) الطبري ١٠٩/٤ .
(٣) الطبري ١٧٠/٤ .
(٤) الأمالي ٨٢/٢ .

جانباً منها تدل بجلاء على أنه لم يكن يلجأ إلى القوة والعنف إلا حين لا يكون ثمة مناص من اللجوء إليها ، ولم يكن يضع السيف في موضع الندى ولا الندى في موضع السيف . وكان يعتبر إمامه في السياسة والإدارة عمر بن الخطاب ، ويتوخى أن يكون مثله حزماً وعدلاً واستقامة ، فلا غرو أن يرضى عنه أهل فارس حين وجه إليهم وأن يشبهوا سيرته بسيرة كسرى أنوشروان . ولكن طبيعة العمل الذي أسند إليه كانت تلجئه إلى أن يتخطى أحياناً حدود العدل المطلق والتمسك الدقيق بمبادىء عمر ، والتزام الشرع التزاماً صارماً . وقد حاول مرة أن يرغم عامله على خراسان على أن يجري في توزيع الغنائم على خلاف ما كان متبعاً منذ عهد عمر ، إرضاء لمعاوية[٢] . وقد أصاب الحسن البصري في قوله : « تشبه زياد بعمر فأفرط[٣] » . وقد وضع زياد لنفسه مبادىء سياسية واضحة قلما كان يحيد عنها ، وأراد أن يقف الناس على سياسته هذه فكتب على جدران مجلسه ، فيما ذكروا ، العبارات التالية : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف . المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته . الأعطيات والأرزاق في إبانها . لا احتجاب عن طارق ليل ولا صاحب ثغر[٤] . » ، وخطبته البتراء تشتمل على تخطيط واضح دقيق لهذه السياسة ، وهي بمثابة البيان الوزاري الذي تتقدم به الوزارات إلى المجالس النيابية في عصرنا الحاضر . على أن زياداً كان لا يكتفي بالكلام بل يقرن القول بالعمل ، سواء في وعده أو وعيده ، وقد قال فيه الشعبي : « والله ما تعلقنا عليه بكذبة ، وما وعدنا خيراً ولا شراً إلا أنفذه[٥] » .

وكان خير ما يشهد بكفاءته السياسية أنه كفى العراق بأهل العراق ، فلم يحتج إلى الاستعانة بجيوش أهل الشأم ، صنيع الحجاج بعده . وبفضل سياسته الحازمة التي جعلت كل قبيلة مسؤولة عن سلوك أفرادها استطاع أن يقمع كل محاولة

---

(١) الطبري ١٠٥/٤ .
(٢) الطبري ١٨٧/٤ .
(٣) البيان ٦٦/٢ .
(٤) العقد الفريد ٧/٥ .
(٥) الطبري ١٧٥/٤ .

لإثارة الفتن في العراق ، وقد أدت سياسته القائمة على توزيع الأعطيات في إبانها وعدم تجمير البعوث إلى إشاعة الرضى والشعور بالطمأنينة بين جمهور العراقيين . ونحن لا نبرىء زياداً من السعي وراء مصلحته الخاصة وإغناء موارده ورعايته لمصالح ذويه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يغفل مصالح الرعية ولا مصلحة الدولة التي يعمل لها ، وخير ما يشهد بحسن سياسته قول عمر بن عبد العزيز فيه حين بلغه استصلاحه الخوارج : « قاتل الله زياداً ، جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرّة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشأم في شأمهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف [(١)] » .

ونحن لا نبرىء زياداً أيضاً من الميل إلى العنف والشدة ، وقد أباح لخليفته على البصرة سمرة بن جندب أن يسلك هذه الخطة فقتل من أهل العراق خلقاً كثيراً ، فيما يذكر الطبري [(٢)] . وهو بهذه الصفة يختلف عن معاوية الذي كان أكثر ميلا إلى التسامح والحلم . وتظهرنا الحادثة التالية على اختلاف سياسة الرجلين ، قال زياد : « ماغلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة : طلبت رجلا فلجأ إليه وتحرم به . فكتبت إليه : إن هذا فساد لعملي ، إذا طلبت أحداً لجأ إليك فتحرم بك . فكتب إلي : إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس فيما بيننا [(٣)] . » ، وهذه الحادثة تظهرنا كذلك على أن معاوية كان أكثر حنكة سياسية من واليه المفضل . ويتجلى بعد نظر معاوية وتفوقه على زياد في النظر السياسي في حادثة أخرى كانت بين زياد والحسن بن علي ، وذلك أن زياداً طلب رجلا كان في الأمان الذي سأله الحسن بن علي لأصحابه ، فكتب فيه الحسن إلى زياد : « من الحسن بن علي إلى زياد . أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا ،

---

(١) الكامل للمبرد ٢/١٦٣ .

(٢) الطبري ٤/١٧٦ .

(٣) العقد الفريد ٥/١٠ .

وقد ذكر لي فلان أنك عرضت له ، فأحب ألا تعرض له إلا بخير . » فلما أتاه الكتاب غضب إذ قدم نفسه وعليه ولم ينسبه إلى أبي سفيان ، فكتب إليه : « من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن . أما بعد ، فقد أتاني كتابك في فاسق يؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك . وإن أحب لحم إلي أن آكله لحم أنت منه » فكتب الحسن إلى معاوية يشكو زياداً ، وأدرج كتاب زياد داخل كتابه . فلما قرأه معاوية غضب وكتب إلى زياد : « أما بعد ، فإن لك رأيين : أحدهما من أبي سفيان والآخر من سمية . فأما الذي من أبي سفيان فحزم وعزم . وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها . وإن الحسن ابن علي كتب إليّ أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجزناه عنك ونظراءه ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفإلى أمه وكلته لا أم لك . فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ، فالآن حين اخترت له [1] . »

ويظهر إيثار زياد للبطش على الحلم في حادثة أخرى رواها صاحب العقد ، نتبين منها حلم معاوية عن رجل وضع يده على كفله وهو ساجد ، وقد قتل زياد هذا الرجل عينه لأنه اجترأ فسأله عن أبيه وهو قائم يخطب في الناس [2] . على أن من الإنصاف لزياد أن نلتمس له العذر في خطة البطش والشدة التي سار عليها وبعده عن الحلم ، لأنه لو سار على سياسة الحلم وحدها في العراق لما استطاع أن يقر النظام في بلد ألف التمرد والثورة على بني أمية وولاتهم ، وكان أهله يعدون الحلم ضعفاً ووهناً من ولاتهم فيزدادون اجتراء عليهم واستخفافاً بهم .

وعلى الجملة كان زياد صاحب مدرسة في السياسة فذة برهن نجاحه فيها على جدارته بأن يعد واحداً من دهاة العرب الأربع في عصره : معاوية ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وزياد [3] . وقد تخرج من مدرسة زياد السياسية هذه

(١) العقد الفريد ١١/٥ والبيان ٢٩٩/٢ باختلاف يسير بين الروايتين .
(٢) العقد الفريد ٤٢/١ .
(٣) العقد ٧/٥ .

تلميذ كان أيضاً من أبناء الطائف ومن ألمع ولاة بني أمية هو الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد حاول الحجاج أن يجري في سياسة أهل العراق على خطة أستاذه زياد ولكنه أخفق في أن يحقق التوازن بين خطة الحزم والشدة وخطة اللين والمصانعة ، وهو ما نجح فيه زياد ، ولجأ إلى القوة وحدها فسفك الدم جزافاً وامتلأ عهده بالفتن والثورات . وقد صح في هذين السياسيين قول الحسن البصري : « تشبه زياد بعمر فأفرط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس[١] . » ، وأجاد عباد بن زياد الموازنة بين الرجلين حين سأله عبد الملك عن أبيه وعن الحجاج فقال : « يا أمير المؤمنين إن زياداً قدم العراق وهي جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق . وقدمها الحجاج فكسر الخراج ، وأفسد قلوب الناس ، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق . ولو رام منها مارامه زياد لم يفجأك ألا على قعود يوجف به[٢] . » . والحق أنه ما من فتنة ثارت في العراق أيام الحجاج إلا استعين بأهل الشام لإخمادها ، وكانت خطة الحجاج القائمة على العسف وسفك الدماء جزافاً وإعلاء كلمة السيف وحدها هي السبب في أكثر الثورات التي قامت في عهده .

كل ما قدمناه يفضي بنا إلى أن نعد زياداً أبرع ولاة الأمويين قاطبة ، وقد عرف له معاوية مكانته هذه فلم يتردد في توسيع سلطانه ، وكان يغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، فإذا هجاه عبد الرحمن بن الحكم لم يرض عنه معاوية حتى يعتذر له ويرضى عنه[٣] . وإذا نال ابن عامر منه أظهر معاوية الغضب عليه حتى يضطره إلى التماس الصفح من زياد . وكان من أوضح الدلائل على ارتفاع منزلة زياد عند معاوية أنه أرجأ الدعوة إلى بيعة يزيد إلى ما بعد وفاته ، وكان معاوية قد استشاره في هذا الأمر فأشار عليه بالتريث فيه[٤] . أما ما جاء في

---

(١) البيان ٢/٦٦ .
(٢) العقد ٥/٨ .
(٣) العقد ٥/٨ .
(٤) الطبري ٤/٢٢٤ .

تاريخ ابن عساكر من أن زياداً كان يفكر في صيرورة الأمر إليه بعد معاوية وأن معاوية عرض به في مجلسه لهذا السبب وقال إن الخلافة لا تكون لمنافق [١] ، فخبر لا نعتقد بصحته ، وهو يناقض كل المناقضة ما نعرفه عن نفسية زياد وحسن تقديره للأمور .

وتقديراً لخدمات زياد عين معاوية ابنه عبيد الله والياً على خراسان بعد وفاة أبيه ، ثم ولاه البصرة (عام ٥٥ هـ) ثم ما لبث أن جمع له الكوفة أيضاً [٢] . وكذلك ولى عدداً من أبناء زياد أعمالا أخرى . وثمة رواية تزعم أن عبيد الله ابن زياد قدم على معاوية بعد وفاة أبيه فوجد منه إعراضاً ، فتكلم ابن زياد منتصراً لأبيه ، معدداً فضائله ، فيرد عليه معاوية بكلام ينتقص فيه من شأن زياد ويعرض به ،ويتهمه بأنه قابل اصطناعه له بالكفر ، وأنه ما قال إلا عاند ،ولا قام إلا قعد ، إلخ ...[٣]، وهذا الحديث ظاهر الافتعال ، وهو يناقض رأي معاوية في زياد مناقضة تامة . ويظهر الافتعال أيضاً في هذا الحوار الظاهر التكلف الذي قيل إنه دار في هذا المجلس بين ابن زياد ومعاوية . ونحن نميل إلى قبول ما جاء في مصادر أخرى من خبر وفوده على معاوية ، عقب وفاة أبيه ، وكان بعضهم قد أشار على زياد حين دنت منيته باستخلاف عبيد الله فأبى لاعتقاده أن عمه — معاوية — إذا رأى فيه خيراً فسيوليه . فلما توفي زياد شخص عبيد الله إلى معاوية فقال له : « ما منع أباك أن يوليك ، أما أنه لو فعل لفعلت » . فقال عبيد الله : « يا أمير المؤمنين ، لا يقولنها أحد بعدك : ما منع أباه وعمه أن يكونا استعملاه » . فرغب فيه معاوية فاستعمله على خراسان[٤] .

★ ★ ★

شاء خيال الرواة ، ولا سيما من خصوم زياد وحساده ، أن يختم حياة زياد

---

(١) ابن عساكر ٥/٤١٧ .
(٢) الطبري ٤/٢٢٢ .
(٣) العقد ٤/٨٣ .
(٤) عيون الأخبار ١/٢٢٩ .

خاتمة قصصية وأن يقرن سبب وفاته بتصرفات بدرت منه ، من ذلك ما روي من أنه كان جمع الناس بالكوفة ليأخذهم بالبراءة من علي ومن أبى ذلك عرضه على السيف ، فلم يلبث أن أصابه الطاعون(١) . وصورت روايات أخرى زياداً وقد غلب عليه الجشع والطمع فكتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه وشماله فارغة ، فجمع له الحجاز مع العراقين واتصلت ولايته بأهل المدينة فاجتمع الناس بمسجد رسول الله ﷺ وضجوا الى الله ولاذوا بقبر النبي ثلاثة أيام ، فخرجت في كفه بثرة فحكها ثم سرت واسودت فصارت آكلة سوداء فهلك بذلك(٢) . وتجعل روايات أخرى الناس يفزعون إلى عبد الله بن عمر ، حين بلغهم تمريض ابن زياد لمعاوية بولاية الحجاز ، فيدعو ابن عمر على زياد فلا يلبث أن يصيبه الطاعون فيهلك(٣) . ونحن لا يسعنا إلا أن نقف من هذه الروايات كلها موقف الشك والارتياب ، وأن نرجح افتعالها من قبل خصوم زياد وحساده الذين نفسوا عليه اتساع سلطانه . بل إن بعضها منسوب إلى كثير بن زياد ، وقد ذكرت هذه الرواية أن معاوية ضم إليه اليمامة(٤) . ولا يبعد أن تكون هذه الرواية وليدة المنافسة بين اسرتي زياد والحجاج ، على ما يستظهر لامنس(٥) . ونحن نشك كثيراً في أن يقدم زياد على طلب توسيع سلطانه ، مثيراً بذلك ريبة معاوية ومخاوفه ، وكانت ولاية العراقين وما إليها خليقة بأن تملأ يديه كلتيهما ، بل أن تفيض عنهما ، فما حاجته إلى طلب المزيد من المتاعب والمشاغل .

إن كل ما نستطيع الاطمئنان إليه هو أن زياداً أصيب بالطاعون الدملي ، وكانت الطواعين كثيرة الانتشار في بلاد العراق الوبيئة ، فلما ظهرت الدبيلة في أصبعه فاستشار الأطباء في أمرها فأشار عليه بعضهم بقطعها ، وأشار عليه آخرون بغمسها في الخل(٦) .

(١) ابن عساكر ٥/٤٢١ ومروج الذهب ٢/٦٨ والطبري ٤/٢٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٢/٦٨ .

(٣) الطبري ٤/٢١٥ والعقد الفريد ٥/١٢ .

(٤) الطبري ٤/٢١٥ .

(٥) لامنس ص ١٤٤ .

(٦) عيون الأخبار ٢/١١٤ .

فلما صح عزمه على قطعها استشار شريحاً قاضي الكوفة فأشار عليه ألا يفعل ، كراهة أن يلقى الله أجذم ، وقد قطعها فرارا من قضائه وبغضاً لقائه ، أو يعيش أجذم فيعير ولده بذلك . فأخذ زياد برأيه ولم يلبث أن مات . وتذكر بعض الأخبار أن الناس لاموا شريحاً لما أشار به على زياد فاعتذر إليهم بقوله عليه السلام إن المستشار مؤتمن[١].

أما سنة وفاته فأكثر الروايات على أنها كانت في رمضان من عام ٥٣ للهجرة[٢] ، وكانت وفاته بالكوفة فدفن بمكان قريب منها يعرف بالثوية . ونجد تحديداً دقيقاً ليوم وفاته في مرثية الجعد بن قيس له ، ويستدل منها على أنه توفي يوم الثلاثاء لأربع مضين من شهر رمضان[٣] ، ولكن الشاعر لا يحدد سنة وفاته ، فإذا أخذنا بهذه الروايات يكون زياد قد هلك وهو ابن خمس وخمسين على وجه التقريب ، وقد جاء في بعض الروايات ما يؤيد هذا[٤] . أما اليعقوبي فيذكر أن وفاته كانت عام ٥٤ هـ[٥] . على أن لا منس يؤخر سنة وفاته إلى عام ٥٦ هـ اعتماداً على نقود عثر عليها وقد نقش عليها اسم زياد وتاريخ سكها يرجع إلى سنوات ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ للهجرة ، وهو يرجح لذلك أن وفاته كانت في الرابع من رمضان ٥٦ للهجرة[٦] .

وقد خلف زياد زهاء عشرين ولداً وثلاثاً وعشرين بنتاً ؛ ومن أولاده الذين كان لهم شأن بعده عبيد الله وسلم وعباد والمغيرة وعبد الرحمن[٧] .

وكان لوفاة زياد صدى ارتياح وشماتة لدى خصوم بني أمية والكارهين لحكمه . وقد ذكروا أن عبد الله بن عمر قال حين بلغه نبأ وفاته : « اذهب ، إليك ابن

---

(١) الطبري ٤/٢١٥ ، ومروج الذهب ٢/٦٨ .
(٢) الطبري ٤/٢١٤ ومروج الذهب ٢/٦٨ وابن عساكر ٥/٤١٤ ، وابن سعد ٧/٧٠ وأسد الغابة ٢/٢١٥ .
(٣) الطبري ٤/٢٢١ .
(٤) مروج الذهب ٢/٦٨ .
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٨٠ .
(٦) لامنس ص ١٥٠ .
(٧) المعارف ص ١٥١ .

سمية فلا الدنيا بقيت لك ، ولا الآخرة أدركت .»[١] وكذلك هجاه الفرزدق بأبيات لمطاردته إياه بسبب تعرضه للناس بهجائه . على أن زياداً لم يعدم أصدقاء أوفياء يأسون لوفاته ، وقد رثاه عدد من الشعراء منهم مسكين الدارمي والجعد بن قيس وصديقه الأثير حارثة بن بدر الغداني ، ومن مرثيته هذه قوله :

أبا المغيرة ، والدنيا مفجعة ، وإن من غرت الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة وكان عندك للنكراء تنكير
لو خلد الخير والإسلام ذا قدم إذا لخلدك الإسلام والخير[٢]

★ ★ ★

(١) الطبري ٤/٢١٥ .

(٢) زهر الآداب ٤/٥٧ والعقد ٣/٦٠٠ والخير : الكرم وشرف الأصل .

٤

جوانب من شخصيته

كشفت لنا سياسة زياد عن جانب من صفاته الخلقية التي كان لها أثر واضح فيما أصابه من توفيق ونجاح إبان ولايته على العراق ، فقد وجدنا فيه ذلك الرجل الحازم الماضي العزم الذي لا تثنيه الصعاب عن تحقيق أغراضه ، وقد وصف زياد نفسه بهذه الصفة فقال : « ما حمدت نفسي في أمر قط عقدت نفسي فيه عقدة ضعف ، ولا لمت نفسي في أمر قط عقدت فيه عقدة الحزم ، ولا حدثت نفسي بأمر قط فحدثت به غيري حتى أصير إليه[1] » .

ووجدنا فيه أيضاً رجلاً جريئاً فيما يرى أنه الحق ، صريحاً ، بعيداً عن المداورة والنفاق والكذب . وقد شهد له أصدقاؤه وأعداؤه على السواء بأنه ما وعد أهل العراق أو أوعدهم إلا أمضى وعده ووعيده[2] .

ووجدنا فيه كذلك سياسياً لبقاً بعيد النظر ، خبيراً بتصريف الأمور والاحتيال للمآزق التي يقع فيها ، ومما يظهرنا على حسن تدبيره أيضاً قوله : « ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه ، ولكن العاقل الذي يحتال الأمر أن لا يقع فيه[3] . » ولهذا عده الناس واحداً من دهاة العرب الأربعة .

وإن ما أصابه زياد من نجاح في سياسته يعود كذلك إلى خبرته بنفس العربي وطبعه ، وإلى فراسته ودقة ملاحظته ، وقد أتاحت له مواهبه هذه أن يسوس كل طائفة من الناس السياسة التي تلائمها .

وإلى صفاته هذه اجتمعت فيه خصال أخرى تدخل في تكوين شخصيته ، فقد

---

(١) ابن عساكر ٥/٤١٦.
(٢) الطبري ٤/١٧٥ .
(٣) ابن عساكر ٥/٤١٧ .

كان كريماً يحرص على أن تكون مائدته حافلة دائماً بالطاعمين ، وقد حدثنا أنه كان لا يطعم طعاماً إلا مع العامة[١] .

وكان باراً بأسرته ، حفياً بذوي قرباه ، وصولا لرحمه ، يجود على ذويه وأقربائه بالمال ويقطعهم الأراضي ويوليهم الولايات . وقد ذكر البلاذري أنه أقطع كل بنت من بناته ستين جريباً ، وأقطع أخاه نافعاً ما مشى[٢] ، وعلى رغم الجفوة التي كانت بينه وبين أخيه أبي بكرة قرب أولاد أخيه إليه وأقطعهم الولايات حتى صاروا إلى دنيا عظيمة[٣] . ولما اشتدت وطأة المرض على أبي بكرة وثقل أرسل إليه زياد أنس ابن مالك ليصلح ما بينهما ، وكان مما قاله أنس لأبي بكرة : « اتق الله ، أبا بكرة ، في زياد أخيك ، فإن الحياة يكون فيها ما يكون ، فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه ، فوالله ، ما علمت ، إنه لوصول للرحم : هذا عبد الرحمن ابنك على الأبلة ، وهذا داود على مدينة الرزق ، وهذا عبد الله على فارس كلها . والله ما أعلمه إلا مجتهداً . » فلما أصر أبو بكرة على القطيعة وأقسم لا يكلمه زياد ولا يصلي عليه ، خرج زياد من الكوفة فصلى عليه أنس بن مالك[٤] .

وكذلك كان زياد وفيـــاً لأصدقائه ، يدني مجلسهم ويسامرهم ويكرمهم ولو عرضته هذه الصداقة أحياناً للمؤاخذة واللوم . وكان من أصدقائه المقربين حارثة بن بدر ، وكان مولعاً بالشراب سيء السمعة ، وعلى رغم ذلك لم يتخل عنـه زياد ، وكان يحتمل ما يبدر منه من هزل ومعابثة في مجلسه ، على حرص زياد على التزام الجـد الصارم في حضرته[٥] . ومما يدل على رعايته لحقوق الصداقة ما يروى من أن رجلين اختصما عنده فقال المدعى عليه : « أيها الأمير ، إنه ليسطو عليّ بخاصة ذكر أنهـا له منك . » فقال زياد : « صدق ، وسأخبرك بمنفعتها له : إن يكن الحق عليك أخذتك به ، وإن يكن لك عليه حكمت عليه ، ثم قضيت عنه[٦] . » على أن زياداً لم يكن

(١) المصدر السابق ٤١٦/٥ .
(٢) فتوح البلدان ص ٣٧١ .
(٣) طبقات ابن سعد ٧ ق ٨/١ .
(٤) العقد الفريد ٩/٥ .
(٥) العقد الفريد ٥٩/٣ .
(٦) البيان ٣٠١/٢ .

ليحجم عن دوس جميع القيم الخلقية بقدمه حين تستوجب ذلك مصلحة الدولة ، شأنه حين بطش بحجر بن عدي ، صديقه بالأمس .

وكان زياد يعرف لكل طبقة من الناس قدرها ومنزلتها ، ويحرص على توقير الأشراف وذوي الأنساب والأسنان وحملة العلم ، وكان مما أوصى به الناس قوله : « استوصوا بثلاث منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ . فوالله لا يأتيني شيخ بحدث استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا ضربته[١] . » ، ومما ينبئنا بمعرفته بأقدار الناس هذا الحوار الذي دار بينه وبين حاجبه عجلان . فقد سأله زياد : كيف تأذن للناس . فأجاب بقوله : « على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب . قال : فمن تؤخر . قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء[٢] . » وكان زياد يحسن إكرام جلسائه والحفاوة بهم ، وقد قال قبيصة بن جابر يصفه : « صحبت زياداً فما رأيت رجلاً أخصب نادياً ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بعلانية منه[٣] . »

وقد وصف لنا زياد بأنه كان مهيب المنظر ، يفرق الناس من لقائه والمثول بين يديه ، وروي عن بعضهم قوله : « ما رأيت زياداً كاسراً إحدى عينيه ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، يخاطب رجلاً ، إلا رحمت المخاطب[٤] . » وكان مما يزيد في تهيب الناس له حرصه على التزام الجد في مجالسه ، فلم يكن ممن يباسطون محدثيهم بالمزاح والمفاكهة أو يفسحون في مجالسهم مجالاً للدعابة والتندر ، وحين غلبت النكتة على صديقه حارثة بن بدر في قضائه بين بني طفاوة وبني راسب خلا به زياد ولامه على جنوحه إلى الدعابة في مجلسه وأمره إلا يعود إلى مثلها[٥] .

---

(١) العقد ١٣/٤ وابن عساكر ٤١٥/٥ .
(٢) العقد الفريد ١٢/٥ .
(٣) ابن عساكر ٤١٤/٥ .
(٤) شرح النهج ٧٤/٤ ، وكان في إحدى عيني زياد انكسار .
(٥) العقد ٥٩/٣ .

٥

زياد الخطيب المفوّه

أوتي زياد موهبة بيانية وفصاحة ولسنا جعلت منه أحد أعلام الخطابة البارزين في عصر بني أمية . وأول ما تجلت موهبته هذه في أيام عمر حين قدم عليه بشيراً بفتح أفاءه الله على المسلمين ، فأعجب عمر ببلاغته واقتداره على القول ودعاه بالخطيب المصقع (١) . على أن الخطبة التي كشفت عن موهبة زياد الخطابية الفذة إنما هي خطبته البتراء التي قالها يوم قدم البصرة والياً عليها ، وقد انتزعت هذه الخطبة إعجاب البلغاء فقال ابن الأهتم لما سمعها : « أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب (٢) . » ، وخطب زياد وأقواله ، على قلة ما انتهى إلينا منها ، تشهد له بطول الباع في مضمار البلاغة واللسن وتدعم المنزلة الرفيعة التي بوأه إياها البلغاء والنقاد في الميدان الخطابي . وكان معاوية يفاخر به الخطباء في مجلسه ويدعوه كذلك بالخطيب المصقع (٣) . وكان الشعبي يكثر الثناء على بلاغته ، على كره الكوفيين والشيعة لزياد ، وكان يقول : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً (٤) . » كما روي عنه قوله : « مارأيت أخطب من زياد (٥) . » ، وممن شهد له بالبلاغة أيضاً عبيد الله بن الحسن ، فقد جاء في تاريخ ابن عساكر أن زياداً قال يوماً لجلسائه : من أغبط الناس عيشاً . فقالوا : الأمير وجلساؤه . فقال : ما صنعتم شيئاً . إن لأعواد المنبر هيبة ، وإن لقرع لجام البريد لفزعة ، ولكن

---

(١) ابن عساكر ٥/٤٠٦ .
(٢) البيان ٢/٦٥ .
(٣) العقد الفريد ٤/٥٥ .
(٤) البيان ٢/٦٥ .
(٥) ابن عساكر ٥/٤١٤ .

أغبط الناس رجل له دار لايجري عليه كراؤها ، وله زوجة صالحة قد رضيته ، فهما راضيان بعيشهما ، إلخ الحديث ... فقال عبيد الله بن الحسن معلقـاً على كلام كلام زياد : من أراد أن يسمع كلاماً من در فليسمع هذا الكلام [1] »

بيد أن زياداً ، على بلاغته ، لم يكن - فيما يبدو - ممن يتذوقون الشعر ، وكان حظ خلفه الحجاج من هذا التذوق الأدبي أوفر من حظه . وهـذا يفسر عدم حظوة الشعراء عنده وعدم حرصه على دعوتهم إلى مجلسه ليسمع شعرهم ، صنيع الحجاج ، بل إنه كان على نقيض ذلك ربما تهدد بعض الشعراء وطاردهم لإيذائهم الناس بهجائهم ، فعله بالفرزدق [2] . وكانت قلة تذوقه للشعر تجعله غير بصير بمعانيه الدقيقة ، وبضروب الكناية والتلويح والغمز فيه ، ولما هجاه عبـد الرحمن بن الحكم ، إثر ادعاء معاوية إياه ، وقال فيه أبياته الـتي سبقت الإشارة اليها ، حلف معاوية لايرضى عنه حتى يرضي زياداً فدخل عليه وأنشده أبياتاً يمدحه فيها ومنهـا قوله :

لأنت زيادة في آل حرب أحب إلي من وسطى بناني

فرضي عنه واغتفر له هجاءه السابق له . فلما سمع معاوية هذه الأبيات قال : « قبح الله زياداً ما أجهله . والله لما قلت له أخيراً حيث تقول : لأنـت زيادة إلخ ... شر من القول الأول ، ولكنك خدعته فجازت خديعتك عليه [3]. »

★ ★ ★

انتهت الينا بضع عشرة خطبة لزياد ، منها خطب كاملة أو شبه كامـلة ، ومنها نتف مأخوذة من خطب لزياد . ومن المحقق أن خطبا كثيرة له قد فقدت ، شأن كثير من الخطب الأموية ، ولكن شهرة زياد الخطابية تكاد تقوم على خطبة واحدة هي خطبته البتراء ، ولا نجد لزياد ، فيما بين أيدينا من خطـب ، خطبا أخرى

---

(١) ابن عساكر ٥/٤١٦ .
(٢) انظر خبر زياد مع الفرزدق في الطبري ٤/٧٩ .
(٣) الأغاني (دار الكتب) ١٣/٢٦٥ .

جديرة أن ترفعه إلى مصاف خطباء الطليعة في عصره . ونحن قائلون كلمة سريعة في هذه الخطب ، لنقف بعدئذ وقفة أطول عند البتراء .

١ ــ لزياد خطبتان قصيرتان قالهما إبان فتنة ابن الحضرمي يحرض فيهما الأزد على بني تميم الذين نصروا ابن الحضرمي ، وقد أثبتها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة [١] .

٢ ــ لما ولى علي زياداً بلاد فارس أرسل إليه معاوية يتهدده ويخوفه ، فجمع زياد الناس وقال الخطبة التالية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق ، يخوفني بقصده إياي وبيني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . أما والله لو أذن في لقائه لوجدني أعرف الناس بضرب السيف [٢] . »

وثمة خطبة أخرى لزياد ذكروا أنه قالها حين أرسل إليه معاوية يتهدده إن لم يدن بالطاعة له . وهذه الخطبة تشبه في نصها ــ حسب رواية الطبري ــ الخطبة السابقة . ولقد رجحنا قبل أن زياداً لم يقل إلا الخطبة الأولى ، وأنه ما كان ليتورط بشتم معاوية وتحديه وقد رأى الحسن يدخل في طاعة معاوية ويهادنه ، وقد رويت هذه الخطبة في شرح ابن أبي الحديد بصورة أخرى ، وفيها من التهديد والوعيد والشتم ما يستبعد صدوره عن زياد وهو في موقفه ذاك ، ونحن أميل إلى أنها افتعلت على لسانه [٣] .

٣ ــ وحين عزم زياد على التوجه إلى معاوية والدخول في طاعته أراد أن يسوغ مسلكه هذا للناس فقام فقال الخطبة التالية : « أيها الناس ، ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم . فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي ، في كل عيد يذبحون . ولقد

(١) شرح النهج ١/٣٤٨ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٥/٤١٠ وقدوردت هذه الخطبة في شرح نهج البلاغة (٤/٦٧) باختلاف يسير في اللفظ آكلة الاكباد : هي هند أم معاوية ، وكانت بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب بعد غزوة أحد ولاكت كبده ورأس النفاق إشارة إلى أبي سفيان وموقفه من رسول الله عليه السلام .

(٣) انظر نص الخطبة في كل من الطبري ٤/١٢٩ وشرح النهج ٤/٦٨ .

أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول في الجنة . كلا ، ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإني لخائف أن يرجع كما بدأ فكيف لامرىء بسلامة دينه . وقد نظرت في أمور الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله (١) . »

٤ — ولما استلحق معاوية زياداً وشهد الشهود قام زياد في أعقابهم فقال : « هذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لي بآخره . وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم وشهد الشهود بما سمعتم . فالحمد لله الذي رفع منا ماوضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا . وأما عبيد فإنما هو والد مبرور ، أو ربيب مشكور (٢) . »

ونلاحظ في هذه الخطبة أن زياداً وقف موقف المتشكك من صحة هذا الاستلحاق ، كأنما الأمر لم يكن من تدبيره ولا عن رأيه ، وأنى له أن يوقن من صحة هذا الأمر وهو لم يشهد أوله ، ولكن أمير المؤمنين والشهود أعلم بما قالوا ، وعلى كل فإن عبيداً إن لم يكن أباه حقاً فهو زوج أمه المبرور .

٥ — ولزياد فضلا عن هذه الخطب التي ذكرناها خطب قصيرة ، وأجزاء من خطب قالها في مناسبات شتى . منها خطبة قيل إنه قالها لما قدم البصرة بعد أن استلحقه معاوية (٣) ، وخطبة قالها لما ولي الكوفة بعد المغيرة (٤) ، وخطبة أخرى قالها بالكوفة حين قدمها والياً عليها (٥) ، وخطبتان قصيرتان قالهما بالكوفة يتهدد في الأولى منهما حجراً وأصحابه (٦) ، ويتهدد في الثانية أهل الكوفة لنصرهم حجراً (٧) .

---

(١) شرح النهج ٦٨/٤ .

(٢) العقد ٥/٥ و ١١٣/٤ ورويت في شرح النهج ٦٩/٤ . ومروج الذهب ٥٥/٢ باختلاف يسير في اللفظ .

(٣) شرح النهج ٧٤/٤ .

(٤) تاريخ الطبري ١٧٤/٤ .

(٥) الطبري ١٨٩/٤ .

(٦) الطبري ١٩٠/٤ .

(٧) الطبري ١٩١/٤ .

وله خطبة موجزة يوصي فيها بالشريف والعالم والشيخ (١) ، وجزء من خطبة يحذر فيها الناس من أن يقولوا ما يجر عليهم سخط إمامهم (٢) ، وجزء من خطبة أخرى يذكر فيها أن أكذب الناس من كذب الناس على المنبر .

٦ ـ وقد أثر عن زياد وصيتان ، الأولى وصيته لمن كان يوليه عملا من أعماله ، وهي توضح جانباً من أسلوبه السياسي ، وقد تقدم ذكرها . والثانية وصيته حين دنت منيته ، وقد ذكر لنا أن عبد الملك كتبها بيده وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهي : « هذا ما أوصى به زياد بن أبي سفيان ، حيث أتاه من أمر الله ما ينتظر ، ومن قدرته مالا ينكر . أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة من عرف ربه وخاف دينه ، وأن محمداً عبده ورسوله . وأوصي أمير المؤمنين وجماعة المسلمين بتقوى الله حق تقاته ، ولا يموتن إلا وهم مسلمون ، وأن يتعاهدوا كبير أمرهم وصغيره ، فإن الثواب في الكبير على قدره في التجمل له ، والصغير غير قليل في حاجتهم إليه وطاعتهم الله فيه . وإن الله جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته . فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ، ومسيء بخذلان الله إياه ، ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء . فما أحق من تمت نعمة الله عليه في نفسه ، ورأى العبرة في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ، فيعطي ما عليه منها ولا يتكبر بما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار لا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة حتى صاروا إلى دار ليست لهم منها أوبة ، ولا يقدرون فيها على توبة . وأنا استخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم (٣) . »

٧ ـ أصابت خطبة زياد البتراء شهرة بعيدة وروتها كثير من المصادر التاريخية والأدبية(٤) ولكننا لا نجد لها رواية واحدة في جميع هذه المصادر شأنها شأن

---

(١) العقد الفريد ١١٣/٤ والبيان ١٤٥/٢ .

(٢) البيان ٢٥٩/١ .

(٣) البيان ٣٨٧/١ ، وابن عساكر ٤٢٢/٥ .

(٤) تجدها مثلا في الطبري ١٦٥/٤ ، وشرح النهج ٧٥/٤ ، والعقد ١١٠/٤ ، والبيان ٦١/٢ وعيون الأخبار ٢٤١/١ .

جل الخطب القديمة . بل إنها وردت في بعض المصادر وقد شطرت شطرين جعل كل منها خطبة مستقلة[١] . وقد جاء في مناسبة هذه الخطبة أنها إنما قيل لها : « البتراء » لخلوها من حمد الله والصلاة على نبيه . وذكر الجاحظ أن « خطباء السلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين بإحسان ، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد ، وتستفتح بالتمجيد البتراء[٢] . » على أننا لا نميل إلى قبول هذا التعليل لإطلاق لفظ البتراء على خطبة زياد ، وذلك للأسباب التالية :

(ا) ليس من المعقول إطلاق لفظ يشعر بالنقص والذم على هذه الخطبة التي انتزعت إعجاب النقاد والبلغاء جميعاً . والأمر الطبيعي أن يطلق عليها ما يشعر بعلو قيمتها الفنية وعظم منزلتها الادبية .

(ب) جرت عادة العرب على أن يطلقوا على الخطب الممتازة أسماء تعرف بها ، تقديراً لجودتها ودلالة على ارتفاع شأنها عندهم ، وقد ذكر الجاحظ أن من خطب العرب « العجوز » وهي خطبة لآل رقبة ، و « العذراء » وهي خطبة قيس بن خارجة ، و « الشوهاء » وهي خطبة سحبان وائل المشهورة[٣] . وربما أوهم لفظ « الشوهاء » أن المراد به الذم ولكن الجاحظ نفسه ينص على أنها سميت كذلك لحسنها وجودتها . فكذلك نرى أن تسمية خطبة زياد من هذا القبيل ، وأن إطلاق هذا اللفظ عليها إنما هو للدلالة على جودتها وارتفاع شأنها لا للانتقاص من قدرها .

(ج) كان استهلال الخطب بحمد الله والصلاة على نبيه شائعاً في الخطب منذ العصر الاسلامي ، ولكنه لم يكن ملتزماً التزاماً صارماً ، وثمة طائفة من الخطب الأموية التي انتهت إلينا لا نجد ما ينبيء باستهلالها بالحمد ، كخطبة الحجاج بالكوفة مثلا ، فإنه استهلها ببيت من الشعر لم يسبقه حمد ولا تمجيد . وعليه فليس في خلو خطبة زياد من الحمد ما يدعو لإفرادها بهذه السمة المميزة . ومع ذلك فقد جاء في مناسبة الخطبة البتراء في البيان والتبيين والعقد وغيرهما ما يدل على أن

(١) في عيون الاخبار وذيل الأمالي ص ١٨٥ .

(٢) البيان ٢/٦ .

(٣) البيان ١/٣٤٨ .

هناك خلافاً في أمر خلو هذه الخطبة من الحمد ، فثمة رواية تذهب إلى أن زياداً حمد الله في مستهل خطبته وأنه قال : « الحمد لله على أفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه ، اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً[١] » .

لهذا كله نميل إلى رفض ما قيل في سبب تسمية هذه الخطبة « بالبتراء » ونرجح أنها سميت كذلك لأنها كانت في قوة أثرها في نفوس أهل البصرة كالسيف الباتر . وفي كتب اللغة ما يؤيد استعمال لفظ البتراء بهذه الدلالة ، فقد جاء في القاموس المحيط ما نصه : « والبتراء الماضية النافذة[٢] » ، فلا شيء يمنعنا إذن من قبول هذا التعليل .

وأجود روايات هذه الخطبة تلك التي أثبتها الجاحظ في البيان والتبيين نقلا عن المدائني وغيره ، وعن الجاحظ أخذها أكثر من بعده ، ونحن نثبتها هنا نقلا عنه :

« أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الامور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من تركـكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ، قربتم القرابة ، وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس . كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب . حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً .

(١) البيان ٢/٦٢ والعقد ٤/١١٠ .

(٢) مادة « بتر » في القاموس المحيط للفيروزبادي .

إني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم .

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة . فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في ، واعلموا أن عندي أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له . فإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا آخذ داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني . ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ماعليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن جعلتها دبر أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وارعوا على أنفسكم ، فرب مسوء بقدومنا سنسره ، ومسرور بقدومنا سنسوءه .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ورزقاً عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثا .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولاتشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولاتدركوا به حاجتكم . مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم .

أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله . وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي (١) . » .

ويذكر الجاحظ أن زياداً لما فرغ من خطبته قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فيقول له زياد : كذبت ، ذلك نبي الله داود . وقام الأحنف بن قيس ، سيد تميم البصرة ، فقال : « أيها الأمير ، إنما المرء بجده ، والجواد بشده . وقد بلغك جدك أيها الأمير ما ترى ، وإنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء . وإنا لن نثني حتى نبتلي . » فلم يعلق الأحنف على الخطبة نفسها من حيث أسلوبها وبلاغتها وإنما علق على مضمونها .

ولكن الخارجي أبا بلال كان له رأي آخر في مضمون هذه الخطبة ، فقد علق عليها ، فيما يشبه الهمس ، بقوله : « أنبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله : « وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى » وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، والمقبل بالمدبر ... » وكان جواب زياد عليه أن قال : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك - أي الخوارج - حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً (٢) . »

ونحن نرى أن قيمة هذه الخطبة مردها إلى أمور ثلاثة : الأول أنها استوفت عناصر الخطبة الكاملة ، فقد أحسن زياد تنسيقها وترتيب أفكارها وأحكم التسلسل في أقسامها والترابط بين أجزائها ، على نحو ما بينا في فصل سابق ، وقلما نجد خطبة أموية تماثلها في حسن التقسيم وجودة الترتيب . والثاني أنها كانت خير ما قاله ولاة العصر الأموي لإيضاح خطتهم في الحكم وسياستهم التي سيسيرون عليها ، وهي بما اشتملت عليه من مبادىء سياسية كانت صالحة لأن تكون دستوراً للساسة والولاة في ذلك العصر . والثالث أنها بفصاحتها وروعة بيانها نموذج ممتاز للفصاحة العربية الخالصة .

وعلى أن الحجاج كان تلميذاً في مدرسة زياد السياسية ، وعلى أنه كان أوغل

(١) البيان ٢/٦٢ . (٢) البيان ٢/٦٥ .

في البيان العربي الأصيل من زياد وخطيباً من الطراز الأول ، لم يستطع أن يأتي بخطبة تضاهي خطبة زياد في الكمال الفني ، وكانت أجود خطبه ، وهي خطبته يوم قدم الكوفة والياً عليها ، بعيدة عن حسن التنسيق والترتيب ، وليس فيها إلا تصوير لشخصية الحجاج المخيفة وتهديد بالبطش بكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعته .

وأظهر ما يتسم به أسلوب زياد في خطبه عامة ترتيب الأفكار وتسلسلها ووضوحها ، والعناية بالأداء الموجز المركز . ولو نظرنا في خطبته البتراء لوجدناها تشتمل على طائفة من المبادىء السياسية والعظات الدينية والخلقية ، قد صيغت في قوالب لفظية مركزة يصلح كل منها أن يكون موضوعاً لخطبة مستقلة . ولكن زياداً لا يتبع أسلوب التفصيل والتوسع وإنما أسلوب الإشارة الموجزة ، وهو يكتفي بذكر مبادئه السياسية دون أن يعني بتعليل أخذه بها . ولزياد مقدرة عجيبة على أداء أفكاره بأوجز عبارة وأقل لفظ ، مع قوة التأليف ومتانة التركيب وروعة الأداء .

وأسلوبه ، إلى ذلك ، يتسم بعنف اللهجة وحرارتها ، والطابع البدوي فيه أقل ظهوراً منه في أسلوب الحجاج ، وهو يحرص على أن يحمل سامعه على تصديقه والاقتناع بأقواله ، فربما لجأ لذلك إلى الاتكاء على أدوات التوكيد ولكنه لا يلجأ إلى التكرار ، والأثر الإسلامي بين في خطبه ، ولا سيما في صدر خطبته البتراء .

وزياد لا يستشهد بالشعر في خطبه ، على نقيض خلفه الحجاج ، وهو قليل الاحتفال بالسجع ، زاهد في تكلف الصنعة ، وربما وقع في كلامه شيء من السجع ولكنه غير مقصود لذاته ولا يظهر فيه أثر التكلف ، كقوله في البتراء : « ينبت فيها الصغير ، ولا ينحاش عنها الكبير » ، وقد يلجأ زياد إلى الأسلوب التصويري ولكن في غير إسراف ، كقوله في البتراء : « أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات . »

هذه المميزات الخطابية هي التي حملت القوم على الإعجاب بفصاحة زياد ، وهي التي تدعونا لأن نضمه في عداد خطباء الطليعة لا في عصر بني أمية وحده بل في عصورنا الأدبية قاطبة .

نماذج من الخطب السياسية

في عصر بني أمية

اوي – خطب بني أمية وولاتهم وقوادهم وأنصارهم

١

خطبة معاوية لما قدم المدينة عام الجماعة :

« أما بعد ، فاني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . وأردتها على مثل ثنيات عثمان فأبت علي ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فان لم تجدوني خيركم ، فاني خير لكم ولاية . والله لاأحمل السيف على من لاسيف له ، وإن لم يكن منكم الا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذني ، وتحت قدمي . وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فان أتاكم مني خير فاقبلوه ، فان السيل إذ ازاد عنّى ، وإذا قل أغنى . وإياكم والفتنة ، فانها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة[١] .

٢

لما حضرت معاوية الوفاة ، ويزيد غائب ، دعا مسلم بن عقبة المري والضحاك ابن قيس الفهري فقال لهما : أبلغا عني يزيد وقولا له :

« يا بنيّ ، إني كفيتُك الشد والترحال ، ووطّأت لك الأمور ،

(١) العقد الفريد ٤/٨١ . ابن أبي قحافة : أبو بكر . الثنيات ج ثنية : الطريق في الجبل ، أراد على مثل الأمور الشاقة التي ركبها عثمان ، وفي بعض الروايات : سنيات . مايستشفي القائل بلسانه : ما يقوله القائل ليشفي مابنفسه من الحقد . دبر أذني : خلف أذني ، أي لم أعبأ به . عنّى : أتعب وأرهق .

وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقابَ العرب ، وجمعت لك ما لم يجمَعْه أحد . فانظر أهلَ الحجاز ، فانهم أصُلك وعِتْرتك ، فمن أتاك منهم فأَكرِمه ، ومن قعد عنك فتماهَدْه . وانظر أهلَ العراق ، فان سألوك عزل عاملٍ في كلّ يومٍ فاعزِله عنهم ، فانّ عزل عاملٍ واحد أهونُ عليك من سلّ مائةِ ألف سيفٍ ، ثم لا تدري علامَ أنت عليه منهم . ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشِعار دون الدِثار، فان رابك من عدوّك ريبٌ فارمِه بهم ، فان أظفركَ اللهُ فارددُ أهل الشام إلى بلادهم ، لا يُقيموا في غير بلادهم فيتأدّبوا بغير آدابِهم .

وإنّي لست أخافُ عليك أن ينازعَك هذا الأمرَ إلا أربعةَ نفرٍ من قريش : الحسينُ بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأمّا عبد الله بن عمر ، فرجُلٌ قد وقذه الورع ، وإذا لم يبق احدٌ غيرُه بايَعك . وأما الحُسين بن عليّ ، فانه رجلٌ خفيف ، وأرجو أن يكفيكهَ اللهُ بمن قتل أباه وخذل أخاه ، ولا أظنّ أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه ، فان خرج وظفِرت به فاصفَحْ عنه ، فانّ له رحِماً ماسّةً ، وحقّاً عظيماً ، وقرابةً من محمد صلواتُ الله عليه وسلامُه . وأمّا ابنُ أبي بكر ، فان رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له هِمّةٌ إلا في النساء واللهو . وأمّا الذي يجثِم لك جثومَ الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصةٌ وثب ، فذاك ابن الزبير ، فانْ هو فعلها بك فقدرتَ عليه

فقطّعه إرْباً إرباً . »(١)

٣

خطبة عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق :

« ارمُوا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سَلفكم لمن غَبر منكم عِظة ، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزلَ بكم جائحة السَطَوات ، وتجوسَ خلالكم بوادرُ النِقمات ، وتطأَ رقابكم بثقلها العقوبةُ فتجعلَكم همَداً رُفاتاً ، وتشتملَ عليكم بطونُ الأرض أمواتاً .

فايايَ من قول قائل ، ورشقة جاهلٍ ، فانّما بيني وبينكم أن أسمعَ النَغْوة ، فأُصمِّمَ تصميم الحُسام المطرور ، وأصولَ صيالَ الحنِق الموتور . وإنما هي المصافحة والمكافحةُ ، بظُبات السيوف وأسنّة الرمَاحِ ، والمعاودة لكم بسوء الصَباح . فتاب تائبٌ ، وهدِل خائب ، والتوبُ مقبول ، والإحسانُ مبذول ، لمن عرَف رُشده ، وأبصر حظّه . فانظروا لأنفُسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهلُ الطاعة يداً على أهل الجهل من سُفهائكم ، واستدعوا النِعمةَ التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيسِ زينتها ، فانكم من ذلك بين فضيلتَين : عاجلِ الخَفض والدَعة ، وآجلِ الجزاء والمثُوبة . عصمكم اللهُ من الشيطان وفِتنته ونَزْغه ، وأمدّكم بحسن معُونته وحِفظه ،

(١) البيان والتبيين ١٣١/٢ . تاريخ الطبري ٣٢٢/٥ . العقد الفريد ٨٧/٤ . عترة الرجل : عشيرته الأدنون . الشعار : الثوب يلي الجسد . والدثار مايلبس فوق الشعار . وقذه : غلبه وصرعه . الرحم : القرابة . إرباً إرباً : عضواً عضوا .

انهضوا — رحمكم اللهُ — إلى قبض أعطياتكم . غيرَ مقطوعةٍ عنكم ، ولا مكدَّرةٍ عليكم . »[١]

★ ★ ★

٤

بلغت عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر أمور أنكرها فقام يخطب فيهم فقال :

« يا حاملي ألأمَ أنوف رُكّبت بين أعيُنٍ ، إنما قلّمت أظفاري عنكم ليلين مَسّي إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادُكم راجعاً عليكم . فأمّا إذ أبيتم إلا الطعنَ على الأُمراء ، والعَتْبَ على السلفِ والخُلفاء ، فوالله لأُقطِّعنَّ بطونَ السياطِ على ظهوركم . فان حسمَتْ مُستشري دائكم ، وإلا فالسيفُ من ورائكم . فكم من عِظةٍ لنا قد صمَّت عنها آذانُكم ، وزجرةٍ منّا قد مجّتها قلوبُكم . ولستُ أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جُدتم علينا بالمعصية ، ولا مُؤيساً لكم من المراجعة إلى الحُسنى ، إن صرتم إلى التي هي أبرُّ وأتقى . »[٢]

★ ★ ★

---

(١) صبح الأعشى ٢١٨/١ . لمن غبر : لمن بقي ومكث . الجائحة : المهلكة المبيدة . الرفات : الحطام . النغوة والنغية : أول الخبر قبل أن تستثبته . أصمم : أقطع . المطرور : المشحوذ . ظبات ج ظبة : حد السيف . هدل : خار واسترخى . نزغ الشيطان بينهم : أفسد وأغرى .

(٢) العقد الفريد ١٣٧/٤ . الكامل للمبرد ص ٧٨٣ (ط . ليبسيك) . الأمالي ٢٤٥/١ . استشرى الداء : تمكن وتفاقم . مجتها : كرهتها وعافتها . أيس منه : قنط ويئس .

٥

خطبة لعمرو بن سعيد الأشدق يتهدّد فيها أهل مكة :

« أمّا بعدُ ، معشرَ أهلِ مكّة . فانّا سكنّاها غِبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً . ولذلك كنّا إذا رُفعت لنا اللُّهوةُ بعد اللهوة ، أخذنا أسناها ، ونزلنا أعلاها . ثم شرِج أمر بين أمرين ، فقَتلنا وقُتِلنا ، فواللهِ ما نزعنا ولا نُزِع عنّا ، حتى شرب الدمُ دماً ، وأكل اللحمُ لحماً ، وقرع العظمُ عظماً .

فوَلي رسولُ الله ﷺ برسالة الله إيّاه ، واختياره له . ثم وَلي أبو بكر لسابقته وفضله ، ثم وَلي عمر . ثم أُجيلت قِداحٌ نزعن من شُعَب حول نبعةٍ ، ففاز بحظيّها أصلبُها وأعتقُها ، فكنّا بعضَ قِداحها . ثم شرِج أمر بين أمرين ، فقَتلنا وقُتلنا ، فوالله ما نَزعنا ولا نُزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحمُ لحماً ، وقرع العظم عظماً ، وعاد الحرامُ حلالاً ، وأُسكِت كلُّ ذي حِسٍّ عن ضرب مُهنَّدٍ ، عَرْكاً عركاً ، وعَسْفاً عسفاً ، ووَخْزاً ونهساً ، حتى طابوا عن حقّنا نفساً ، واللهِ ما أعطَوه عن هوادةٍ ، ولا رضُوا فيه بالقضاءِ . أصبحوا يقولون : حقُّنا غلَبناعليه ، فجزينا هذا بهذا ، وهذا في هذا .

يأهلَ مكةَ ، أنفُسَكم أنفسكم ، وسفهاءَكم سُفهاءكم ، فانّ معي سَوطاً نَكالاً ، وسيفاً وبالاً ، وكُلٌّ مصبُوبٌ على أهلِه . »[1]

---

(١) العقد الفريد ٤/١٣٣ . اللهوة ، بضم اللام وفتحها : العطية ، والجمع لهى . شرج : من الشرج ، وهو انشقاق القوس والعود ، أراد فرق وباعد . القداح ج قدح : السهم قبل أن يراش وسهم الميسر . الشعب ج شعبة : الأغصان ، أراد بها أصحاب الشورى . النبع : شجر تتخذ منه القسي والسهام . الحظي : ذو الحظوة والفضل . النهس : النهش بمقدم الأسنان . سوطاً نكالاً : أي سوطاً ذا نكال ، من نكل به : أي صنع به صنيعاً يحذر به غيره . الوبال : الشدة والثقل .

٦

لما عزم معاوية على طلب البيعة لابنه يزيد ، دعا جماعة من أشياعه وطلب إليهم أن يخطبوا إذا اجتمع الناس ويدعوا إلى مبايعة يزيد ، فقام الضحّاك بن قيس الفهري فقال :

« أصلح اللهُ أميرَ المؤمنين وأَمتع به . إنّا قد بلونا الجماعة والأُلفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمَن للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة . ولا خيرَ لنا أن نُترك سُدىً ، والأيامُ عُوَّجٌ رواجع ، والأنفُس يُغدى عليها ويُراح ، والله يقول : كلَّ يومٍ هو في شانٍ . ولسنا ندري ما يختلفُ به العَصْرانِ . وأنت يا أميرَ المؤمنين ميّت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل اللهَ بك المَتاع . وقد رأينا من دَعَة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسن مذهبه ، وقصد سيرته ، ويُمْن نقيبته ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المَرضيَّة ، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا . فليُولِّه أميرُ المؤمنين ، أكرمه اللهُ ، عهدَه ، وليجعلْه لنا ملجأً ومفزَعاً بعدَه ، نأوي إليه إن كان كونٌ ، فانه ليس أحدٌ أحقَّ بها منه ، فاعزمْ على ذلك ، عزم الله لك في رُشدك ، ووفقك في أمورنا . »(١)

★ ★ ★

(١) الامامة والسياسة ١/١٢٤ . الأمالي ٢/٧٣ . عيون الأخبار ٢/٢١٠ . بلونا : جربنا . عوج : من عاج أي رجع ومال . يمن النقيبة : التوفيق والحظ والبركة . إن كان كون : إن حدث أمر .

٧

لما فرغ الخطباء الذين دعاهم معاوية من الكلام حين أراد البيعة ليزيد قام الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بيزيدَ في ليله ونهارِه ، وسِرِّه وعلانيته ، ومدخلِه ومخرجه . فان كنت تعلمه الله رِضاً ولهذه الأُمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوّده الدنيا ، وأنت صائر إلى الآخرة ، فانه ليس لك من الآخرة إلاّ ما طاب . واعلم أنه لا حُجّة لك عند الله إن قدّمتَ يزيد على الحسن والحُسين ، وأنت تعلم من هما ، وإلى ما هما . وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ، غُفرانَك ربَّنا وإليك المصير . »(٢)

★ ★ ★

٨

خطبة زياد البتراء :

وردت في ترجمة زياد بن أبي سفيان ص ٢٤١

★ ★ ★

٩

خطبة الحجّاج بالكوفة :

حدث عبد الملك بن عُمير الليثي قال : بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق . فإذا به قد

(٢) المصادر المذكورة في الخطبة السابقة .

دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطّى بها أكثر وجهه ، متقلّداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، يؤم المنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق . حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي : ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابنُ جَلا وطَلاّعُ الثنايا ... متى أضعِ العِمامةَ تعرِفوني

يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قِطافُها وإني لصاحبُها، وكأني أنظرُ إلى الدماء بين العمائم واللِحى ؛

هذا أوانُ الشدّ فاشتدّي زِيَمْ ... قد لفّها الليلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ
ليس براعي إبلٍ ولا غَنَم ... ولا بجزّارٍ على ظهرِ وضَم
قد لفّها الليلُ بعصلبيّ ... أروعَ خرّاجٍ من الدَوّي
مهاجرٍ ليس بأعرابيّ

قد شمّرت عن ساقِها فشُدّوا ... وجدّت الحربُ بكم فجدّوا
والقوسُ فيها وترٌ عُرُدُّ ... مثلُ ذِراعِ البَكر أو أشدُّ
لا بُدَّ ممّا ليس منه بُدُّ

إنّي والله يا أهلَ العِراق ما يُقعقَعُ لي بالشِنانِ ، ولا يُغمَزُ جانبي كتَغماز التينِ ، ولقد فُرِرتُ عن ذكاء ، وفُتّشت عن تجربة ، وإنّ أمير المؤمنين — أطال اللهُ بقاءه — نثر كنانته بين يديه ، فعجم عِيدانها ، فوجدني أمرّها عوداً ، وأصلبَها مكسِراً ، فرماكم بي ، لأنّكم طالما أوضعتُم في الفتنة، واضطجعتُم في مراقد الضلال .

والله لأحزمنكم حزمَ السَلَمة ، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل ، فانكم لكأهل قريةٍ كانت آمنةً يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعُم الله ، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإني والله ما أقول إلاّ وفيتُ ، ولا أهُمُّ إلاّ أمضيتُ ، ولا أخلُق إلاّ فريتُ . وإنّ أميرَ المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّبِ بن أبي صُفرة ، واني أُقسم بالله لا أجدُ رجلاً تخلّفَ بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الاّ ضربت عنقه . »[1]

★ ★ ★

١٠

خطبة طارق بن زياد لما فتح الأندلس :

« أيها الناسُ ، أين المفرُّ ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، فليس ثَمّ والله إلا الصدقُ والصبر، فانهما لا يُغلَبان ، وهما جُندان منصوران ، ولا تَضُر معهما قِلة ، ولا تنفع مع الخوَر والكسل والفشَل والاختلاف والعُجب كثرةٌ .

(١) الكامل المبرد ١/٢٢٣ . ابن جلا : الواضح الأمر . الثنايا ج ثنية : الطريق في الجبل ، أراد أنه قوي جلد على الصعاب ، والبيت لسحيم بن وثيل الرياحي . الشد : الاسراع في السير . زيم : اسم لفرس أو ناقة . الحطم : الذي لا يبقي من السير شيئاً . الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم . العصلبي : الشديد. الأروع : الذكي . الدوي : الصحراء . وخراج من الدوي : أراد أنه قادر على الخروج من المآزق الصعبة . الشنان ج شن: القربة اليابسة . فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنها . عجم العود : مضغه ليعرف صلابته . أمرها : أقواها . أوضعتم : أسرعتم . السلمة : شجر كثير الشوك . أخلق : أقدر . فريت : قطعت.

أيها الناسُ ، مافعلتُ من شيءٍ فافعلوا مثله : إن حملتُ فاحملوا وإن وقفت فقِفُوا ، ثم كونوا كهيئة رجلٍ واحد في القتال . ألا وإني عامدٌ إلى طاغيتهم ، بحيث لا أتهيبُه حتى أخالطَه أوأقتل دونه ، فان قُتلت فلا تهنوا ولا ولا تحزنوا ، ولا تنازَعُوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكُم ، وتولُّوا الدُبرُ لعدوكم، فتبدَّدُوا بن قتيل وأسير . وإياكم أن ترضَوا بالدنيّة،ولاتعطوُا بأيديكم ، وارغبوا فيما عُجِل لكم من الكرامة ،والراحة من المِهْنة والذلة ، وما قد أُجِّلَ لكم من ثواب الشهادة، فانكم إن تُفشَلوا ـ والله معكم ومُعيذُكم ـ تبوءُوا بالخسُران المُبين ، وسوءِ الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حاملٌ حتى أغشاه ، فاحمِلوا بحملتي . »(١)

★ ★ ★

١١

خطبة خالد بن عبد الله القَسْري بمكة يدعو إلى الطاعة :

« يا أيّها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حُرمةً ، وهي التي اختار اللهُ من البُلدان فوضع بها بيتهَ ، ثم كتب على عباده حِجَّه من استطاع إليه سبيلا . أيّها الناس ، فعليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعةِ ، وإياكم والُشبهُات ، فاني واللهِ ما أُوتى بأحد يطعنُ على إمامه إلاّ صلبتُه في الحرَم . إنّ اللهَ جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها ، فسلّموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كَيْتَ وكيت ، إنه لا رأيَ فيما كتب به الخليفةُ أو رآه إلاّ إمضاؤُه .

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ٧٣/٢ . الفشل: الجبن والضعف . لاتهنوا : لاتضعفوا . لاتعطوا بأيديكم : لاتستسلموا . إن تفشلوا : إن تغلبوا وتهزموا .

واعلموا أنه بلغني أنّ قوماً من أهل الخِلاف يقدَمونَ عليكم، ويقيمون في بلادكم، فإيّاكم أن تُنزِلوا أحداً ممّن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة، فاني لا أجد أحداً منهم في منزل أحدٍ منكم إلاّ هدمت منزله. فانظروا مَن تنزلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة، فان الفُرقةَ هو البلاء العظيم.» (١)

★ ★ ★

ثانياً — خطب الزبيرية

١٢

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب:

« الحمدُ لله له الخلقُ والأمرُ، والدنيا والآخرة، يُؤتي المُلكَ من يشاء، ويَنزعُ المُلك ممّن يشاء، ويُعزّ من يشاءُ، ويُذِلّ من يشاء.

أما بعدُ، فانّه لم يُعزّ الله من كان الباطلُ معه، وإن كان معه الأنامُ طُرّاً، ولم يُذلّ من كان الحقّ معه، وإن كان مفرداً ضعيفاً. ألا وإنه أتانا خبرٌ من العراق، بلد الغَدر والشِقاق، فأحزننا وسرّنا. أتانا أن مُصعباً قُتل رحمةُ اللهِ عليه ومغفرته، فأمّا الذي أحزننا من ذلك، فان لفراق الحَميم لذعةً ولوعةً يجدُها حميمُه عند المصيبة، ثم يرعوي مِن بعدُ ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وكريم العَزاء. وأما الذي سرّنا منه فانّا قد علمنا أنّ قتلَه شهادةٌ له، وأنه عزّ وجلّ جاعلٌ لنا وله في ذلك ذخيرة إن شاء الله تعالى.

(١) تاريخ الطبري ٨/٨٠.

أسامه الطغام ، الصُلْمْ الآذان ، أهلُ العراق ، إسلامَ النعَم المُخطَّمة ، وباعوه بأقلّ من الثمن الذي كانوا يأخذون منه . فإن يُقتَلْ فقد قُتِل أبوه وعمه وأخوه ، وكانوا الخيارَ الصالحين . إنا والله لا نموتُ حتفَ آنافِنا ، ولكن قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظِلال السيوفِ ، وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطّ . ألا وإنما الدنيا عاريّةٌ من الملك القهّار الذي لا يزول سلطانُه ، ولا يَبيدُ مُلكه ، فإن تُقبل الدنيا عليّ لم آخُذْها أخذ الأشِر البطِر ، وإن تدبر عنّي لم أبكِ عليها بُكاءَ الخرقِ المَهين ، أقول هذا وأستغفرُ اللهَ لي ولكم . »[1] .

★ ★ ★

١٣

خطبة مصعب بن الزبير لما بعثه أخوه والياً على البصرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم (طسم . تلك آياتُ الكتابِ المُبين ، نتلوُ عليك من نبأ مُوسى وفِرعونَ بالحقّ لقومٍ يُؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلَها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم ، يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءَهم انّه كان من المفسِدين) — وأشار بيده نحو الشام — ونريد أن نَمُنّ على الذين

---

(١) الأغاني ١٧/١٦٦ . العقد الفريد ٤/١٠٩ . تاريخ الطبري ٧/١٩٠ . يرعوي : يرجع إلى صوابه . صلم أذنه : قطعها . المخطمة : من خطم البعير إذا جعل على أنفه الخطام ليقتاد به . أبوه وعمه وأخوه : أبوه الزبير وقتل منصرفه من وقعة الجمل ، قتله عمرو بن جرموز . وأخوه المنذر وقتل بمكة يوم الحرة ، وعمه عبد الرحمن بن العوام وقد استشهد يوم اليرموك . مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل . قعصاً بالرماح : طعناً بالرماح . العارية : مايتداوله الناس ويتعاورونه . الخرق : الأحمق .

استُضعِفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثين) — وأشار بيده نحو الحجاز — (ونُمكّنَ لهم في الأرض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذَرون) — وأشار بيده نحو العراق (١) .

★ ★ ★

ثالثاً - خطب الخوارج

١٤

خطبة لصالح بن مسرّح الصفري

« الحمدُ لله الذي خلق السماواتِ والأرضَ وجعل الظُلُماتِ والنُورَ ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، اللهمَّ إنا لا نعدِل بك، ولا نحفِد إلاّ اليك ، ولا نعبُد إلاّ إياكَ ، لك الخَلقُ والأمرُ ، ومنك النَفع والضَرُّ ، واليك المصيرُ ، ونشهد أن محمداً عبدُك الذي اصطفيتَه ، ورسولُك الذي اختَرته وارتضيتَه ، لتبليغ رسالاتك، ونصيحةِ عبادك ، ونشهدُ أنّه قد بلّغ الرسالةَ، ونصح للأمةِ ، ودعا إلى الحقّ ، وقام بالقِسط ، ونصر الدين ، وجاهد المُشركين ، حتى توفاه اللهُ ﷺ .

أُوصيكم بتقوى الله ، والزُهد في الدنيا، والرغبةِ في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراق الفاسقين، وحُبّ المؤمنين. فان الزهادة في الدنيا ترغّب العبدَ فيما عند الله، وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرةَ ذكر الموت تُخيف العبدَ من ربّه، حتى

---

(١) العقد الفريد ٤/١٣٥ . يستحيي : يبقيهم أحياء .

يجأر اليه ، ويستكين له . وإنّ فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين . قال الله تعالى في كتابه : « ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ، ولا تقُم على قبره ، إنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ، وإن حبّ المؤمنين لَلسَّببُ الذي يُنال به كرامةُ الله ورحمته وجنّته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ألا إن من نِعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً مِن أنفُسهم ، فعلّمهم الكتابَ والحِكمة ، وزكاهم وطهّرهم ، وفقّههم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلواتُ الله عليه . ثم وَلي الأمر مِن بعده التقيُّ الصِدّيقُ ، على الرضا من المسلمين ، فاقتدى بهديه ، واستنّ بُسنّته ، حتى لحق بالله ، رحمه الله ، واستخلف عمرَ ، فولاّه اللهُ أمر هذه الرعيّة، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سُنة رسول الله ﷺ ، ولم يُحنق في الحق على جِرّته ، ولم يخَف في الله لومةَ لائم ، حتى لحق به ، رحمةُ الله عليه .

وولي من بعده عثمان ، فاستأثر بالفيء ، وعطّلَ الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزز المجرم ، فسار اليه المسلمون فقتلوه ، فبرىء الله منه ورسولُه وصالحُ المؤمنين .

ووَلي أمرَ الناس من بعده عليٌّ بن أبي طالب فلم ينشَب أن حَكّم في أمر الله الرجال ، وشكَّ في أهل الضَلال ، وركن وأدهن ، فنحن من عليٍّ وأشياعه بَراءٌ .

فتيَسّروا ، رحمكم اللهُ ، لجهاد هذه الأحزاب المتحزّبة ، وأئمة الضَلال الظَلَمة ، وللخروج من دار الفناء ، إلى دار البقاء ، واللحاق باخواننا المؤمنين المُوقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالَهم التماسَ رُضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعوا من القتل في الله فان القتـل أيسرُ من الموت ، والموتُ نازلٌ بكم ،غيرَ ما ترجُم الظُنون، فمفرّقٌ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ، وإن اشتدّ لذلك كُرهكم وجزعُكم . ألا فبيعوا الله أنفسَكم طائعين وأموالكم ، تدخلوا الجنّة آمنين ، وتعانِقوا الحوُر العِين ، جعلنا اللهُ وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يَهدون بالحقّ وبه يَعدلون .[1] »

★ ★ ★

١٥

من خطبة أبي حمزة الخارجي بمكّة وقد بلغه أن أهلها يعيّرون أصحابه بحداثة سنهم :

« يا أهلَ مكّةَ ، تُعيرونني بأصحابي ، تزعمون أنّهم شبابٌ ، وهل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ إلاّ شباباً . نِعم الشبابُ مُكتهِلين ، عَميَةٌ عن الشرّ أعينُهم ، بطيئةٌ عن الباطلِ أرجُلُهم . قد نظر اللهُ اليهم في آناء الليل منثنيةً أصلابُهم بمثاني القُرآن . إذا مرّ أحدُهم بآيةٍ فيها ذكرُ الجنّة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرّ بآيةٍ فيها ذكرُ النارشهِق شهقةً كأنّ زفيرَ جهنَّمَ في أذنيه . قد وصلوا كَلالَ ليلِهم بكلال نهارهم ، أنضاءُ عبادةٍ ، قد أكلت

(١) تاريخ الطبري ٧/٢١٧ . حفد اليه : خف وأسرع . جأر اليه : رفع صوته بالدعاء . الجرة : ما يخرجه البعير ليجتره ، والاحناف : لصوق البطن بالصلب ، والمراد أنه لا ينطوي على الحقد انطواء البطن على الجرة . أدهن : غش .

الأرضُ جباهَم وأيديهم وركَبَهم. مُصفرّةٌ ألوانُهم، ناحلة أجسامُهم، من كثرة الصيام، وطولُ القيام، مستقلّون لذلك في جَنب الله، مُوفون بعهد الله، مُستنجزون لوعد الله.

إذا رأوا سهام العدوّ قد فُوّقت، ورماحه قد أشرعت، وسيوفَه قد انتُضيت، وبرقت الكتيبةُ ورعدت بصواعقِ الموت، استهانوا بوعيدِ الكتيبة لوعدِ الله، فمضى الشابُّ منهم قُدُماً حتى تختلفُ رجلاه على عُنق فرسه، قد رُمّلت محاسنُ وجهه بالدماء، وعُفّرِ جبينُه بالثرى، وأسرع إليه سباعُ الأرض، وانحطّت عليه طيرُ السماء. فكم من مُقلةٍ في منقار طائر، طالما بكى صاحبُها من خَشية الله، وكم من كفٍ بانت عن معصَمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خدٍّ عتيق، وجبينٍ رقيق، قد فُلق بعَمَد الحديد.

رحمةُ الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحَها في الجِنان. الناسُ منّا ونحن منهم، إلاّ عابدَ وثن، أو كفرةَ أهل الكتاب، أو إماماً جائراً، أو شاداً على عَضُدِه.»(١)

★ ★ ★

(١) العقد الفريد ٤/١٤٤. الآناء ج أني: الساعة من الليل. مثاني القرآن: سوره. الكلال: التعب. أنضاء ج نضو: المهزول، وأنضاه: أهزله. فوق السهم: جعل له فوقا، وهو موضع الوتر من السهم، أي أعده للرمي. قدما: متقدما شجاعا. رملت: لطخت. بانت: انفصلت. العتيق: الجميل النبيل.

رابعاً : خطب الشيعة

١٦

خطبة للحسين بن عليّ قالها حين أقبل يريد الكوفة فوجد أهلها قد نقضوا عهدهم وانفضّوا عنه ؛ حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناسُ ، إنّ رسولَ الله ﷺ قال : من رأى سُلطاناً جائراً مستحلاً لحُرَم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسُنّة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فلم يُغيِّرْ عليه بفعل ولا قولٍ ، كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخَله . ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطّلوا الحُدود ، واستأثروا بالفَيء ، وأحلّوا حَرام الله ، وحرّموا حلالَه . وأنا أحقُّ من غيَّر ، قد أتتني كُتُبُكم ، وقدِمت عليّ رسلُكم ببيعتكم ، أنكم لا تُسلموني ولا تخذُلوني . فان تمّمتم عليّ بَيعتكم تُصيبوا رُشدكم ؛ فأنا الحُسين بن عليّ ، وابنُ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ ، نفسي مع أنفُسِكم ، وأهلي مع أهليكم . فلكم فيّ أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتُم عهدَكم ، وخلعتُم بَيعتي من أعناقكم ، فلَعمري ما هي لكم بنُكر ، لقد فعلتموها بأبي وابن عمّي مُسلم ، والمغرورُ من اغترّ بكم ، فحظَّكم أخطأتم ، ونصيبَكم ضيّعتم ، ومن نكث فانما ينكُث على نفسه ، وسيُغني الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . [١] »

★ ★ ★

(١) تاريخ الطبري ٥/٤٠٣ (دار المعارف) . يغير عليه : يظهر إنكاره لعمله . الفيء : الغنيمة والخراج .

١٧

خطبة سليمان بن صُرَد يدعو التوّابين إلى الثأر لمقتل الحسين :

« أثني على الله خيراً ، وأحمد آلاءَه وبلاءه ، وأشهدُ أن لا إلـه إلا اللهُ وأنّ محمداً رسوله . أما بعدُ ، فاني واللهِ لخائفٌ ألا يكونَ آخرنا إلى هـذا الدهر ، الذي نكدت فيه المعيشة ، وعظُمت فيه الرزيّة ، وشمِل فيـه الجورُ أولي الفضل من هذه الشيعة ، لما هو خيرٌ . إنّا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبيّنا ، ونُمنّيهم النصر ، ونحثُّهم على القدوم . فلما قدِموا وَنَيْنا وعَجَزنا ، وأدهنّا وتربّصنا ، وانتظرنا ما يكونُ ، حتى قُتل فينا ولدُ نبيّنا وسُلالتـهُ وعُصارته وبَضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ فلا يُصرَخ ، ويَسألُ النَّصَف فلا يُعطـاه ، اتّخذه الفاسقون غَرضاً للنَبْل ، ودَريّةً للرماح ، حتى أقصدوه ، وعدَوا عليه فسَلبوه .

ألا انهضُوا فقد سخِط ربُّكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى اللهُ . واللهِ ما أظنُّه راضياً دون أن تُناجزوا مَن قتلَه أو تَبيروا . ألا لا تهابوا الموتَ ، فواللهِ ما هابه امرؤٌ قطُّ إلاّ ذلّ . كونوا كالأُولى من بني إسرائيلَ إذ قال لهم نبيُّهم : « إنّكم ظلمتُم انفُسَكم باتخاذكم العِجلَ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفُسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم . » فما فعل القومُ ؟ جثَوا على الرُكَب واللهِ ، ومدُّوا الأعناق ، ورضُوا بالقَضاء ، حتى حين علِموا أنه لا يُنجيهم من عظيم الذَنب الا الصبرُ على القتل . فكيف بكم لو قد دُعيتم الى مثلِ ما دُعيَ القومُ اليه ؟ اشحذوا السيوفَ ، وركّبوا

الأسنّة ، « وأعِدّوا لهم ما استطعتُم من قوّة ومن رِباط الخيل » ، حتى تُدعَوا وتُستَنفَروا . »(١)



١٨

خطبة ليزيد بن أنس الأسدي يحرّض أصحاب المختار الثقفي على القتال :

« يا معشرَ الشيعة ، قد كنتُم تُقتَلون وتُقطَع أيديكم وأرجُلكم ، وتُسمَلُ أعينُكم ، وتُرفعون على جُذوع النخل ، في حُبّ أهل بيت نبيّكم ، وأنتم مُقيمون في بيوتكم وطاعة عدوّكم . فما ظنّكُم بهؤلاء القوم إن ظهَروا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يَدَعُون منكم عيناً تطرِف ، ولَيقتُلُنكُم صَبْراً ، ولَتَرُونّ منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه . واللهِ لا يُنجيكم منه إلاّ الصدقُ والصبر والطعنُ الصائبُ في أعيُنهم ، والضربُ الدّراكُ على هامِهم ، فتيَسّروا للشدّة ، وتهيَّئوا للحَملة ، فاذا حركت رايتي مرّتين فاحمِلوا . »(٢)

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٥٤ . غد أعناقنا : تشوف وتشوق . ونينا : تراخينا . أدهنا : من الإدهان ، أن يظهر المرء خلاف مايبطن . النصف:الإنصاف .غرضاً: هدفاً . الدرية : مخفف الدريئة ، الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها . أقصدوه : أصابوه في مقتل . الحلائل ج حليلة : الزوجة . تبيروا : تهلكوا . رباط الخيل : الخيل التي تربط في سبيل الله .

(٢) جمهرة خطب العرب ٢/٧٤ . سمل عينيه : فقأهما . ظهروا عليكم : انتصروا عليكم . قتله صبراً : هو أن يحبسه ويرميه حتى يموت . الضرب الدراك : المتتابع .

خامساً : خطب سائر المناهضين لبني أمية

١٩

خطبة لعامر بن واثلة الكناني يحرّض فيها أهل العراق على مبايعة عبد الرحمن بن الأشعث وخلع الحجاج :

« أمّا بعدُ ، فانّ الحجّاجَ واللهِ ما يرى بكم إلا ما رأى القائلُ الأولُ إذ قال لأخيه : احمِل عبدكَ على الفرس ، فان هلكَ هلك ، وإن نجا فلَكَ . إنّ الحجّاج والله ما يُبالي أن يُخاطرَ بكم ، فيُقحِمكم بلاداً كثيرةَ اللُّهوب واللُّصوب . فان ظفرتُم فغنِمتُم أكلَ البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سُلطانه . وإن ظفِر عدوُّكم كنتم أنتم الأعداءَ البُغَضاء الذين لا يُبالي عَنَتَهم ، ولا يُبقي عليهم . اخلعُوا عدوَّ الله الحجّاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فاني أُشهِدكم أني أوّل خالعٍ . »[١]

★ ★ ★

٢٠

خطبة ليزيد بن المهلّب يحرّض فيها أصحابه على قتال أهل الشام :

« أيّها الناسُ ، إني أسمع قول الرَّعاعُ ، قد جاءالعبّاسُ ،قد جاء مَسلمةُ ، قد جاء أهلُ الشأمِ . وما أهلُ الشأم إلا تسعةُ أسياف ، منها سبعةٌ معي ، واثنان عليَّ . وما مَسلمة إلاّ جرادةٌ صفراء . وأمّا العبّاسُ فنسطوس بن

(١) جمهرة خطب العرب ٢/٣٢٣ . اللهوب ج لهب : المهواة بين الجبلين . اللصب : الشعب في الجبل . العنت : الهلاك والمشقة .

نسطوس . أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاط . إنما أقبل إليكم الفلاّحون والأوباش كأشلاء اللجم ، والله ما لقُوا قط حدّاً كحدّكم ، ولا حديداً كحديدكم . أعيروني سواعدكم ساعةً من نهار تصفقون بها خراطيمهم . فانّما هي غدوةٌ أو روحة ، حتى يحكم اللهُ بيننا ، وهو خيرُ الحاكمين . »[1]



(١) البيان والتبيين ١/٢٩٢ . العقد الفريد ٤/١٢٧ . مسلمة : هو مسلمة بن عبد الملك ، والعباس هو العباس بن الوليد ، وقد بعثهما يزيد بن عبد الملك في جيوش أهل الشأم لقتال ابن المهلب . نسطوس بن نسطوس : أراد أن أمه رومية . الجرامقة : قوم من العجم نزلوا الموصل في الاسلام . الجراجمة : قوم من العجم نزلوا بلاد الشام . أشلاء اللجم : حدائد اللجام بلا سيور . الحديد : السلاح . تصفقون : تضربون . الخراطيم : الأنوف .

الفهرس

القسم الثالث

أعلام الخطابة السياسية في عصر بني أمية

القسم الرابع